أدوين أولدفاذر ريشاور

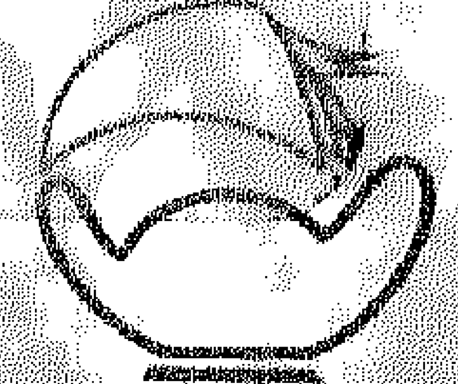
تاريخ اليابان

من الجذور حتى هيروشيما



ترجمه عن الفرنسية

يوسف شلب الشام



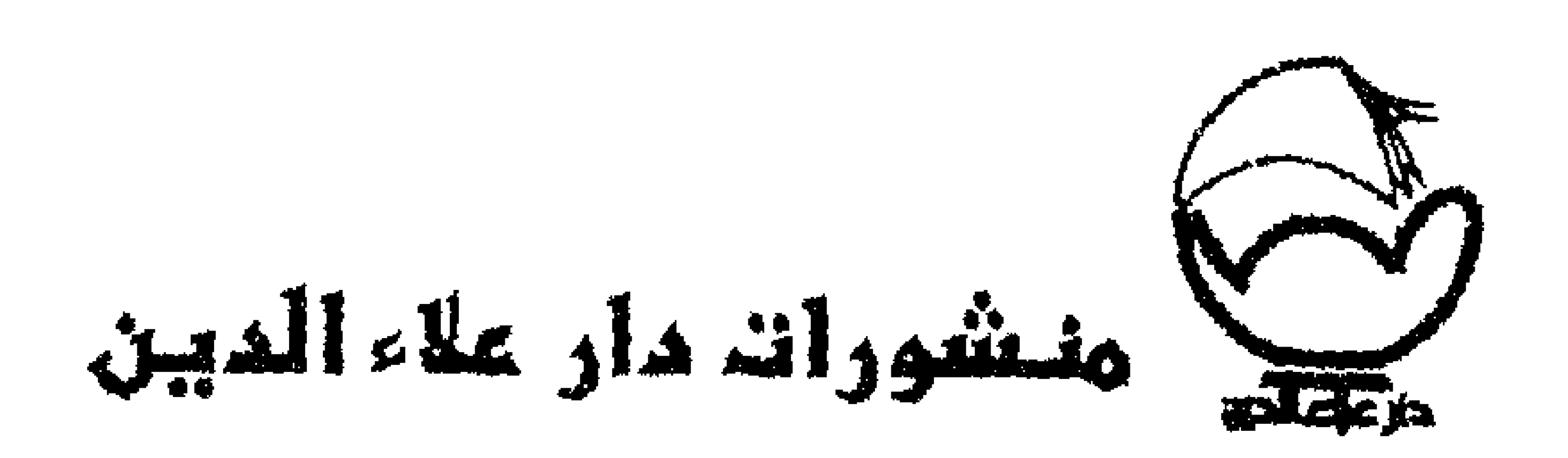
دارعلاء الدين منشورات دارعلاء الدين

أدوين أولدفاذر ريشاور
EDWIN O. REISCHAUER

تاريخ اليابان

من الجذور حتى هيروشيما

ترجمه عن الفرنسية
يوسف شلب الشام



دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠
١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
الإخراج الفني : علاء هزاع شرف

يطلب الكتاب على العنوان التالي :
دمشق ص.ب - ٣٠٥٩٨
هاتف : ٥٦١٧٠٧١
فاكس : ٥٦١٣٢٤١

البلاد والناس

منذ البدء استودعت الطبيعة أرخبيل نيبون عوامل القوة والحضارة. فالإقليم المعتدل والأمطار السخية والأرض الخصبة إلى حدود معقولة وبخاصة قربه النسبي من مراكز الحضارة المؤثرة كل ذلك كان منذ أقدم العصور الأوراق الرابحة التي هيأت اليابان لأن تلعب دوراً من الدرجة الأولى في تاريخ العالم.

الموارد والعوائق الطبيعية:

يشكل القوس الياباني شريطا من الجزر على حافة القارة الآسيوية يمتد بين درجتي عرض ٣٠ و ٤٠ شمالي خط الاستواء فيؤلف بذلك منطقة تناقضات مناخية. فالقسم الشمالي من جزيرة هوكايدو يوجد على خط العرض نفسه الذي توجد عليه مدينة بوردو بينما تنطبق المنطقة الوسطى حول طوكيو على مضيق جبل طارق والنهاية الجنوبية من كيوشيو تحتل موقعا شبيها بالجنوب الأقصى من مراكش. وهذا الامتداد على خطوط العرض يؤدي إلى فروقات حرارية ومطرية رغم ما يقوم به المحيط من تخفيض في مدى التنوعات المناخية.

تعتبر اليابان في سعتها على مستوى البلاد الأوروبية، فهي أضيق من فرنسا ومن إسبانيا وتتفوق مساحاتها قليلا على مساحة إيطاليا أو بريطانيا العظمى اللتين كانتا مهدا لإمبراطوريتين غربيتين رئيسيتين. وتقربها تضاريسها من إيطاليا :بنية من جبال مرتفعة ومن هضاب متشابكة تجتاز جزر الأرخبيل الأربع الكبرى من جانب إلى جانب، بينما تخطيط الشواطئ ذو المفاجآت والنزوات وجرأة التضاريس وغزارة النباتات جعل كل ذلك منها بلدا غنيا في المواقع التي ليس لها مثيل. ومما لا شك فيه أن الحساسية المرهفة

والأصالة الفنية اللتين نجدهما في كل مرحلة من مراحل تاريخ اليابان إنما غذاهما جمال هذا الإرث الطبيعي النادر المثال. وفدية فيض الطبيعة هذا هو ضيق المساحة المزروعة التي تغطي أقل من ٢٠% من الأرض. ففي كل مكان نبذ الجبل اليابانيين إلى المحيط ليجعل منهم ((رواد البحر الآسيويين)). وبما أن البحر كان وسيلة الربط المميزة بين جزر الأرخبيل فإنه دفع الإنسان الياباني إلى اكتشاف العالم . وفضلاً عن ذلك فإن التقاء التيارات الحارة والباردة التي تلحس السواحل حرض على قيام نهضة مبكرة قوية في صيد الأسماك.

في مادة الموارد المعدنية بدت الطبيعة – في مقابل ذلك – أما مقترة . ويشكل الفحم الإنتاج الوحيد الذي يستخرج من تحت الأرض واحتياطاته معقولة الحجم. والواقع أن الثروة الطبيعية الوحيدة الحقيقية لليابان هي الماء. فالماء هو الذي يحفظ الغطاء الغابي الكثيف في الجبال، وهو الذي يجتاز الحقول المزروعة المروية عبر آلاف الأقنية الصغيرة التي هي ثمرة عمل الرجال خلال ألفين من السنين، والماء أيضا هو الذي سمح لليابان أن تتجاوز أقوى المردودات الزراعية العالمية وأن تتمتع بطاقة كهربائية تستثمرها استثمارا منهجيا في الخدمات المنزلية والصناعية.

الجزرية ونتائجها:

عامل جغرافي آخر ترك طابعه على كل تاريخ اليابان هو العزلة. ورغم أن التقنية ألغت المسافات وسمحت لليابان بأن تأخذ مكانها بين الدول التجارية الكبرى فإن الحواجز اللغوية والثقافية بقيت تقيم عوائق كبيرة في وجه الاتصال مع العالم الخارجي.

ومما لا مراء فيه أن اليابان ترتبط بحضارة الشرق الأقصى التي انتشرت بدءا من مهدها الصيني في اتجاه كوريا وفيتنام. ورغم أن نطاق هذه الحضارة كان يضم منذ القدم ما بين الربع والثلث من بني الإنسان فإنها بقيت زمنا طويلا في معزل عن مراكز الحضارة الكبيرة الأخرى لأن سلاسل آسيا الوسطى الجبلية وصحاريها والطبوغرافيا المعقدة لجنوب شرقي آسيا والغابات غير المضيافة للأرخبيل الماليزي كل ذلك وقف خلال قرون طويلة عقبة كأداء في وجه الاتصالات مع مجالات الهند المتحضرة ومع الشرق الأوسط أو حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد تحملت اليابان – التي تسمى أحيانا إنكلترا الآسيوية – وأكثر من بريطانيا العظمى نفسها نتائج موقعها الاستثنائي على

تخوم القارة. وبينما لا يفصل إنكلترا عن القارة الأوروبية إلا واحد وثلاثون كيلو مترا فإن الحد الغربي من اليابان يبعد مائة وسبعة وسبعين كيلو مترا عن كوريا، وعندما نعلم أنه ينبغي قطع ثمانمائة من الكيلو مترات في المحيط قبل الوصول إلى السواحل الصينية ندرك لماذا تردد الملاحون اليابانيون القدامى مدة طويلة قبل إقدامهم على المغامرة بمثل هذه الرحلة المحفوفة بالأخطار.

من حيث ثقافتها تعتبر اليابان تابعا يدور في فلك الثقافة الصينية ، ففيها وجدت مصادر إلهامها كما فعلت أوروبا الشمالية عندما نهلت من ثقافات حوض المتوسط. وإننا نجد أكثر من مشابهة بين انتشار الحضارة الصينية عبر أرخبيل اليابان خلال الألف الأول للميلاد وبين تقدم الثقافة المتوسطية في أوروبا الشمالية في العصر نفسه. ولكن عزلة أشد قوة من اليابان سمحت بتفتح قيم ثقافية أصيلة تجاوزت إلى مدى بعيد أنماطها المستعارة. لقد انتشر رأي مبتذل تناقله الكثيرون الذين طاب لهم أن يقدموا لنا اليابانيين على أنهم مجرد مقلدين ومنتحلين أدنياء بينما الحقيقة هي انهم بعيدون عن ذلك كل البعد ورغم انهم واعون لما عليهم من دين تجاه الأنماط الثقافية الأجنبية فإنهم عرفوا كيف يمزجونها في تركيب مستحدث وأن يتبنوها على قياس ترابهم الوطني. فإذا أخذنا اللباس التقليدي وأنواع الأطعمة وفن البناء أو طرائق الحياة فإننا نلاحظ أن الياباني قادر على الابتكار والتجديد. ونحن لم نعد نجد في أي بلد أخر تلك الحصر السميكة المصنوعة من القش والمستعملة في تغطية الأرض، ولا تلك القواطع الورقية المتحركة التي تقوم مقام الجدران، أو تلك المساكن الخفيفة المفتوحة على الطبيعة على أقصى اتساع، أو جذوة النار المنزلية التي تضرم في الفحم، أو المشكاة المخصصة للقطع الفنية، أو مغاطس الاستحمام المميزة المصنوعة من الخشب أو الحديد، وطقس الحمام الذي يؤخذ جماعة في نهاية يوم العمل لا يرتدي في أي مكان أهمية لحظة مميزة من الاسترخاء الكلي والراحة الجسدية كما هو الأمر في اليابان.

والأصالة الثقافية لليابان توجد بوضوح أيضا في بنيتها اللغوية. وقد استخدمت اللغة اليابانية رسوم الكتابة الصينية واستعارت من القارة كلمات عديدة ولكنها احتفظت بذاتية لا تقهر. وهي في العديد من الجوانب تبدو ذات صلة مع اللغة الكورية ولكنها ليست ذات قرابة كاملة مع أي لغة معروفة وتستخدم أسلوبا في الكتابة ذا تعقيد ليس له مثيل.

كل هذه العوامل والسبل تبين أن اليابانيين شعروا بشخصيتهم منذ وقت مبكر جدا واجتهدوا في أن يؤكدوا مناقبهم الخاصة. وعندما ظهرت الدول القومية في العصر الحاضر نما الشعور القومي الياباني وقوي بسرعة كبيرة جدا لأن الخصائص العرقية والجغرافية كانت قد قدمت خمائر عديدة تساعد على الوحدة وعلى التلاحم. وفي مقابل ذلك فإن الشعور الحاد ((بشخصية قومية)) مدعومة بـ ((العزلة الجليلة)) طبع العلاقات الدبلوماسية اليابانية بطابع خاص ، فقادة البلاد قلما عرفوا كيف يتصرفون تصرفا سليما في علاقاتهم مع العالم الخارجي وكثيرا ما وجه اللوم لتعاليهم اللامبالي وشعورهم بالتفوق أو شعورهم بعقدة النقص تجاه الأجنبي. ولا يزال المؤرخون حتى اليوم يسعون لأن يجدوا في موقعهم الشاذ المنعزل تفسيرا لتذبذب سياستهم الخارجية وتقلباتها وللصعوبة التي يعانون منها حاليا من أجل الاندماج في توازن القوى العالمية.

حضارات العصر الحجري الحديث (النيوليثيك) : جمون و يايوا:

ينتسب اليابانيون إلى العنصر المنغولي الذي يشكل الصينيون والكوريون فروعا أخرى منه. ففي خلال مجرى التاريخ تشكل نموذج بشري انطلاقا من عناصر جنسية مختلفة، ومن المعروف أنه منذ العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) تركت مجموعات مختلفة من الناس القارة كي تستقر في الأرخبيل.

من بين شعوب اليابان الأولى يستحق الأينو أن ينوه بهم بشكل أخص. فهم مجموعة جنسية من العنصر القوقازي المبكر Protocaucasien انفصلت عن العنصر الأبيض قبل أن يأخذ هذا صفاته المورفولوجية النهائية. ويبدو أن الأينو في عصر قديم احتلوا القسم الأكبر من اليابان حيث وصلوا إليه في وقت لاحق من الشمال بدون شك. ومهما يكن من أمر فإن لدينا ما يدل على أن الأينو كانوا يعيشون منذ اثني عشر قرنا فوق جزيرة هوكايدو وفوق الثلث الشمالي من هونشو، ومنذ ذلك الوقت طردوا على التوالي نحو الشمال على يد السكان اليابانيين أو ذابوا فيهم لدرجة أنهم فقدوا ملامحهم المميزة ، واليوم يكاد الأينو أن يكونوا قد اختفوا تماما ولكن بعد أن تركوا لأحفادهم بعض الملامح الجسدية مثل غزارة شعر الجسد بوجه خاص التي لا يزال يتصف بها العديد من اليابانيين وثمة نظرية أخري واسعة الانتشار تشير -على العكس من ذلك - إلى أن شعوب شرقي آسيا وفورموزا هم الذين يشكلون خلفية الجنس الياباني. فثمة مشابهات عديدة في

الأساطير والعادات الاجتماعية وفن البناء في هذه البلاد يبدو أنها تدعم هذه الفرضية مع أنه لا يوجد في المكتشفات الأركيولوجية الموثوق بها ما يمكن أن يؤيدها . والأقرب إلى الصواب أن تحركا بشريا واسعا يرتبط بتقدم الحضارة الصينية وصل على دفعات متتالية إلى آسيا الجنوبية الشرقية كما وصل -عن طريق كوريا- إلى اليابان وتقدم لنا المكتشفات الأركيولوجية قناعة بان معظم سكان اليابان البدائية كانوا قد انتقلوا إليها عن طريق كوريا أو عن طريق مناطق أخرى من جنوب شرقي آسيا. وتتالت هذه الحركة حتى القرن الثامن للميلاد وفي ذلك القرن أو قرابة ذلك كان التمثل قد تقدم كثيرا واكتسب العنصر الياباني الملامح التي نعرفه بها اليوم. وكان قد انتشر فوق مجموعة الأرخبيل باستثناء ملجئ صغير للأينو في أقصى الشمال من البلاد. ومن جهة أخرى فإن بعض الأقليات التي لم يتم تمثلها تمثلا كاملا في الجنوب من كيوشيو بقيت تحافظ على مؤسسات سياسية وتقاليد ثقافية متميزة.

أما دخول التقنيات الآسيوية إلى اليابان فكان معاصرا لهذه التنقلات بالسكان. فمنذ الألف الخامس قبل الميلاد كان أرخبيل اليابان يؤوي مجتمعا بدائيا منظما على أساس الصيد والالتقاط سماه المؤرخون مجتمع جومون من أسم الأواني الفخارية المفتولة التي تميزه وكان عصرا ذا خصوبة فنية كبيرة تتسم بالسعي وراء الزخرفات التزيينية الأصلية. وقد استمر فن جومون حتى العصر التاريخي في ملاجئ الأينو في الشمال.

وفي الوقت نفسه بدأت حضارة نيوليثية جديدة قادمة من كوريا بالانتشار. ظهرت هذه الثقافة في القرن الثالث من كيوشيو حتى وصلت تباعا إلى اليابان الوسطى عن طريق البحر الداخلي والى سهل كانتو عن طرق السواحل الشرقية وأخيرا بلغت شمالي البلاد رغم الجبال في نحو من القرن لأول للميلاد. وقد أطلق على هذه الحضارة الجديدة اسم يايوا. وهي تتميز تميزا أساسيا عن ثقافة جومون بسبب ظهور اقتصاد زراعي مبني على زراعة الرز المسقي استمر دون تغييرات كبيرة حتى عصرنا الحاضر. أما في المجال الفني فإن منتجات عصر يايوا هي آنية فخارية ذات طوق أو مصنوعات من البرونز والحديد ذات إلهام صيني في أغلب الأحيان. وظهور هذه التقنيات الحديثة هذه مرتبط ارتباطا وثيقا بإنشاء أول إمبراطورية صينية كبيرة موحدة في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد وفتح الصين الشمالية لكوريا في عام ١٠٨ قبل الميلاد. ويذكرنا هذا التوسع في

التقليد بانتشار الثقافة الرومانية في كل من بلاد الغال وبريطانية في ذلك الزمان بالذات على وجه التقريب. وتظهر لنا وثائق صينية تعود إلى القرن الثالث الميلادي بلاد اليابان مجتمعا زراعيا مجزأ متدرج الطبقات الاجتماعية خاضعا لسلطة رؤساء دينيين من الرجال والنساء هم نوع من السحرة الشافين CHAMANS الذين يقومون بدور الوسطاء الشفعاء بين يدي القوى الكونية والأرواح التي تسيطر على الطبيعة. وكانت البلاد موزعة بين عدد كبير من القبائل التي كان الكثير منها يخضع لسلطة (بلاد الملكة) الغامضة التي أشارت إليها النصوص الصينية.

دولة ماتو القبلية:

انطلاقا من نهاية القرن الثالث للميلاد اتخذ اليابانيون لهم عادة الكوريين في بناء مدافن على هيأة الجوشة[1] Tumulus لدفن رؤسائهم. ولم تنقطع هذه الأبنية عن الاتساع في مساحاتها شيئا فشيئا للدلالة على نفوذ الأرستقراطية البدائية المتزايد. وفي نحو من بداية القرن الخامس بلغت حجوما كبيرة توحي بأن هذه القبور غدت خلال قرن ونصف رمزا لتمركز قوي في السلطة وتجمع ملحوظ للثروات. ولهذه القبور شكل (ثقب القفل) - مستديرة من الخلف ومستطيلة من الأمام- وعليها شواهد اسطوانية الشكل من الأجر المشوي تسمى الهانيوا Haniwa تعلوها دائما تماثيل صغيرة تمثل محاربين شاكي السلاح أو خيولا أو بيوتا أو حيوانات مختلفة ذوات أهمية جمالية وأركيولوجية بالغة. أكبر هذه المدافن المخصصة للأمراء يبلغ طوله مع الحفر المحيطة به حوالي ثمانمائة من الأمتار. وتجعلنا المعدات والأشياء التي وجدت في هذه القبور نفترض وجود أرستقراطية عسكرية كانت تفرض سلطتها على السكان الريفيين.

أكبر هذه المقابر التي اكتشفت تقع بالقرب من مدينتي نارا و أوزاكا الحاليتين. والمعتقد تقليديا أن الأمر يتعلق بقبور للأباطرة اليابانيين الأولين . وهذا التفسير تؤيده المصادر الصينية التي تذهب إلى أن الرؤساء المحاربين المدفونين تحت هذه الجشوات إنما هم من سلالة (الملكة) . وإذا قمنا بتقاطعات بين المكتشفات الأركيولوجية والكتابات الصينية والروايات الشفهية فإن ذلك يسمح لنا بأن نرسم ملامح المجتمع الياباني في القرن الخامس

---

[1] الجوشة بناء حجري على هيأة مخروط يقام فوق القبر - المترجم -

الميلادي. فنحن نستطيع أن نثق بحق بالأسطورة القومية التي تقول بغزو متوال أتى من البحر الداخلي ووصل حتى ياماتو قامت به قبيلة واحدة يحتمل أنها أخضعت الشعوب المعادية الأخرى واحدا بعد أخر.

وكان الزعماء الدينيون في سهل ماتو يدعون بأنهم من أحفاد الإلهة - الشمس التي نشروا عبادتها في مجموع البلاد. وكان مركز هذه العبادات هو معبد إيز ISE الكبير الذي لا يزال حتى اليوم واحدا من الأماكن الرئيسية المقدسة في اليابان وأجمل أثر للبناء الديني تركته هذه الأزمان القديمة. ووجود إلهة في أصل هذه السلالة الإمبراطورية إضافة إلى التلميحات الواردة في الكتابات الصينية عن قبائل تقودها نساء كل ذلك يوحي بوجود مجتمع أمومي أصلي لم يختف إلا بكل بطء عند الاحتكاك بالقارة الآسيوية. وقد سمحت التقنيات الأركيولوجية التي جرت في اليابان وعلى أطراف القارة بالكشف عن شعارات كهنة ياماتو الكبار التي لا تزال الرموز الثلاثة المميزة للعائلة الإمبراطورية . وهذه الرموز هي مرآة من البرونز ذات إيحاء صيني هي رمز للإلهة الشمس وسيف طويل من الحديد و(حلية معقوفة) اسمها ماغاتاما تمثل مخلب دب.

انطلاقا من القرنين الخامس والسادس ظهرت دولة يابانية مؤلفة من مزيج القبائل المجزأة أشارت إليها المصادر الصينية، ومنذ ذلك الوقت غدا المجتمع الياباني مقسما إلى عشائر أو عائلات تسمى أوجي UJI ، وكان أفراد هذه العائلات - دون أن يكونوا بالضرورة مرتبطين برباط الدم - يشكلون نوعا من الأقارب أو الأهل ويخضعون لسلطة رئيس وراثي. وكانوا يعبدون الإله نفسه في معبد العائلة. وتنقسم كل أوجي إلى زمر حرفية متخصصة تسمى البي BE كانت وراثية بدورها وتمارس أعمالا محددة مثل الحياكة أو صناعة الأنية الفخارية أو الزراعة ويخضع مجموع هذه العائلات بطريق التسلسل لرؤساء ياماتو فكان بعضها تحت سلطنهم المباشرة بينما كانت أخرى تدير وحدات إقليمية صغيرة تتمتع باستقلال ذاتي واسع.

ثم ما لبثت سلطة ياماتو أن امتدت شيئا فشيئا على مجموع الأراضي اليابانية باستثناء الشمال الذي تسكنه دائما قبائل الأينو . وكان سلطانها يمارس حتى على بعض الأقسام من كوريا الجنوبية . وتروي الروايات الشفهية أن هذا التوسع فوق القارة كان ثمرة فتوح عجيبة قامت بها إمبراطورة مقاتلة بينما يجدر بنا أن نرى فيه دليلا إضافيا على الهجرة

الكورية المستمرة باتجاه اليابان . وحتى القرن الثامن كان ما يقارب من ثلث الطبقة الأرستقراطية في دولة ياماتو من أصول قارية حتى ليمكن مقارنة هذه الهيمنة على القارة بهيمنة الإنكليز على نورمانديا في العصور الوسطى. وقد بلغت السيطرة اليابانية في كوريا الجنوبية ذروتها في نهاية القرن الرابع ثم ما لبثت أن تراخت بالتوالي حتى زالت في عام ٥٦٢ .

إرث العصر التاريخي المبكر:

كان لا بد لليابان من المحافظة طويلا على طابع تنظيمها الاجتماعي البدائي القائم على العائلات ، وسيستمر الإحساس بقيم التسلسل والوراثة وصورة المحارب على الحصان أثناء كل عصر الإقطاع. ورؤساء ياماتو الأوائل هم الذين خلقوا العائلة الأمبراطورية التي تعتبر أقدم عائلة حاكمة في العالم والتي لابد لها من أن تبقى على طول تاريخ اليابان مبدأ كل سلطة شرعية.

وكان لابد لهذا العصر من أن يترك آثارا دائمة في مجال الدين على الأخص. وقد اتخذ مجموع المعتقدات والممارسات الطقسية التي ظهرت منذ فجر التاريخ اسم شينتو SHINTO – أي طريق الإلهة – في نهاية المطاف لتمييزها عن البوذية. وما لبثت عبادة الإلهة –الشمس وأجداد العائلة أن ذابت في عبادة للطبيعة شديدة الشمول. فسيل هادر أو مطر مدرار أو اعوجاج وعر في صخرة أو مغارة غامضة أو شجرة عملاقة أو حجر ذو شكل غريب أو شخص مشوه الشكل أو حشرة مؤذية كل ذلك كان مهيأ ليكون موضوعا للتوقير والاحترام. والحديث يدور في هذه المناسبة عن الكامي KAMI وهو تعبير ترجم ترجمة خاطئة على أنه يعني (الألهة) بينما هذا المفهوم الواسع عما هو مقدس والخاص بالتقليد الشنتوي يمكن أن يكون قريبا من معنى (التعظيم إلى درجة التأليه – DEIFICATION–) الذي تحتفظ به يابان اليوم لأباطرتها أو للجنود الذين يموتون في سبيل الوطن.

والشنتوية البدائية لا تستلزم أية محرمات أخلاقية وإن اهتمت بالطهارة الطقسية وربما كان هذا ما يفسر حب اليابانيين لاستعمال المياه. وأماكن العبادة والأعياد والاحتفالات لا حصر لها إذ يكفي مكان يوحي بشعور احترام ديني في بعض الأوقات حتى ينقلب إلى مكان للعبادة ثم بعد ذلك إلى معبد، واليوم ترصع هذه المعابد بعشرات الآلاف منظر

اليابان، ويمكن التعرف عليها بأروقتها المميزة التي تسمى TORII ويعود بعضها إلى أزمان بعيدة القدم واعتبر بعضها معابد قديمة مخصصة لآلهة العائلات المحلية بينما لم يكن بعضها يزيد عن كونه مجرد أبنية بسيطة من الحجر أو الخشب شيدت في زمان أكثر حداثة بالقرب من شجرة عتيقة كثيرة العقد أو فوق قمة أحد الجبال.

لم يتغير جوهر الشنتوية القديمة إلا قليلا منذ مطالع التاريخ المبكر حتى اليوم. وقد حاولوا خلال الف وثلاثمائة عام أن يدونوا عناصرها المختلفة وأن يجعلوا فيها نوعا من التماس والتلاحم. ومنذ قرن واحد عرفت ميثولوجيا الشنتو البدائية تجديدا في العناية بها ورعايتها على يد مرتلي القومية اليابانية المتطرفين حيث أعاد إليها اعتبارها مواطنون متحمسمون تدفعهم روح من التعصب الشديد. ومع ذلك فإن الاستخدام الأيديولوجي للشنتوية لم يبدل تبديلا محسوسا في مبادئها الأساسية التي ظلت كما كانت : عبادة الطبيعة واحترام الجدود والشعور بالاندماج مع قوى الكون ومع الأجيال الماضية التي طواها النسيان.

❋ ❋ ❋

في مدرسة الصين

على غرار أوربيي الشمال الذين نهلوا دون تمييز من التراث اللاتيني والجرمني المزدوج فإن اليابانيين حققوا مزيجاً مركباً من عناصر ثقافتهم البدائية وما جلبوه من حضارة الصين. ويمكن أن نعتبر بداية تاريخ اليابان منذ اليوم الذي بلغت فيه للمرة الأولى موجة الحضارة القادمة من القارة شواطئ الأرخبيل . وفي إطار جديد دخلت منتجات الثقافة الصينية المعدة إعداداً عالياً في اتحاد من التقاليد غير المصقولة لدولة ياماتو.

الاتصالات الأولى: رهبان بوذيون وتقنيون:

بعض الاتصالات تمت منذ فترة طويلة بين اليابان والصين. فمنذ القرن الأول الميلادي تردد السفراء والتجار بشكل مستمر بين البلدين كما أن المهاجرين القادمين من كوريا أدخلوا للأرخبيل معارف علمية وفنية من القارة. وفي نحو من القرن الخامس كانت أنماط الكتابة الصينية معروفة على نطاق واسع من اليابانيين، ومع ذلك فإننا سنلاحظ أن هذه الاستعارات المختلفة قد تمت رويداً رويداً وبشكل غير محسوس وبطريقة متمادية دون أن يكون اليابانيون دائماً على إدراك واضح لما يتم . ولم تتسارع حركة الاقتباس هذه إلا انطلاقاً من النصف الثاني من القرن السادس للميلاد عندما تنبه اليابانيون للفوائد التي تحملها لهم حضارة القارة وأثبتوا رغبتهم في أن تنفذ إليهم على أوسع نطاق. وليست واضحة كل الوضوح تلك الدوافع التي أثارت اليابانيين فجأة للإفادة من العالم الصيني. فربما شعروا بعد أن تغلبوا على مشاكلهم السياسية الداخلية وبلغوا مستوى معيناً من التطور انه أصبح بإمكانهم بعد الآن أن يسلموا زمامهم لمدرسة الصين إضافة إلى أن بريق الحضارة الصينية الذي لا يضاهى أصبح يشدهم أكثر من أي وقت مضى.

ونحن نعرف أن الحضارة الصينية ترقى إلى الألف الثاني قبل الميلاد. وربما بلغت الإمبراطورية العسكرية الصينية الأولى أوجها في عصر عظمة روما الذي يقع بين عامي ٢٢٠ ق.م و ٢٢٠ ميلادية. وقد تبع ذلك عصر من الخواء السياسي والحروب الأهلية والاجتياحات البربرية التي طالت حتى النصف الثاني من القرن السادس للميلاد حيث تشكلت امبراطورية ثانية أكثر ازدهارا وقوة من الأولى. وفي خلال القرنين السابع والثامن كانت الصين تتمتع دون جدال برخاء وقوة سياسية وتقدم تقني أعلى من أمثالها في كل بلاد العالم الأخرى. وكان هذا العصر الذي ينطبق على عهد أسرة تانغ عصر عظمة ومجد وإشعاع ثقافي لم تعهد الصين مثيلا لها من قبل.

إذن ليس مستغربا بعد ذلك الوقت أن تتحمل يابان العصور المظلمة -حتى ولو كانت محمية بوضعها الجزري – عواقب هذا التجديد، وسيعرف مجموع الأرخبيل غليانا ثقافيا يتناقض مع خمود أوروبا الغربية في ذلك الوقت. وفي ذلك الوقت كان اختلاف أوروبا الشمالية عن اليابان في مجال التنظيم الاجتماعي أقل من اختلافها عنها في حيويتها المنقطعة النظير من حيث الأنماط السياسية المتميزة، فانحطاط روما في الغرب يقابله في الشرق ازدهار في الصين التي بدت يومئذ في أوج عظمتها.

لقد جرت العادة أن نرجع إلى عام ٥٥٢ م مطالع النفوذ الصيني في أرخبيل نيبون وهو العام الذي اعتنق فيه بلاط ياماتو رسميا الديانة البوذية التي دخلت على يد سفراء كوريين. ومن المحتمل مع ذلك أن البوذية نفذت إلى اليابان قبل ذلك التاريخ الذي لا ينبغي أن نسند إليه إلا أهمية حجر صوى على قارعة الطريق. يبقى أن البوذية ستستخدم كدعامة لدخول الثقافية الصينية لاعبة دورا شبيها بذلك الذي لعبته المسيحية وهي تنشر عبر أوروبا العصور الوسطى قيم عالم البحر المتوسط.وكانت البوذية قد قدمت من الهند واستقرت في الصين أثناء اضطرابات طارئة بين الإمبراطوريتين الأوليتين. وبعد أن أولاها رعايتهم وزراء متحمسون بلغت كوريا ومن هناك وصلت إلى اليابان. فما بين القرنين السادس والثامن قام رهبان كوريون وصينيون بل وهنود يمارسون في اليابان أعمال تبشير نشيط، وفي الوقت نفسه توجه إلى الصين مئات من اليابانيين الذين اهتدوا إلى الدين الجديد لتعميق دينهم ، وعندما عادوا إلى الأرخبيل ظهروا أكثر حماسة من المبشرين الأجانب في نشر المذهب الجديد ونشر قيم القارة الآسيوية ، وبما أنهم كانوا

رواد حقيقيون فقد أدخلوا لليابان الفنون والمؤسسات والأفكار السائدة في الصين.

في خلال النصف الثاني من القرن السادس نفذت البوذية وثقافة القارة على أوسع نطاق إلى بلاط ياماتو لدرجة أن اتجاهين ظهرا في البلاط المذكور أحدهما يحبذ الأفكار الجديدة والثاني معاد لكل تجديد ويرتبط ارتباطا لا فكاك منه بالديانة الشنتوية. وبعد أن تم القضاء على الاتجاه المحافظ على يد البوذيين في عام ٥٨٧ تضاعفت معطيات القارة في جميع المجالات وبخاصة على يد الوصي وولي العهد شوتوكو الذي كان على رأس حركة إصلاحية. وفي عام ٦٠٤ أعلن مواد دستور المواد السبع عشرة الذي هو محصول تعاليم مستمدة من البوذية ومن الحكمة الكونفوشيوسية. وفي عام ٦٠٧ أرسل إلى الصين سفارة رسمية بقيت مستمرة بانتظام خلال قرنين ونصف القرن، ولم يكن لهذه البعثات الدبلوماسية أي أثر مباشر في تغيير سياسي أو اقتصادي حاسم وإن كان لها نفوذ عميق في الأمور الفكرية وفي الحياة الثقافية .

وبنفاذ بصيرة مدهش بالنسبة لبلاد ما كادت تخرج من بواكير تاريخها الغامضة عين القادة اليابانيون مراقبين لامعين من الشباب لمرافقة السفراء والانتهال من معارف الصين. ونظمت البعثات الأولى من ذوي الإطلاع التقني قبل كل شيء، ومن بين هؤلاء (التقنيين) تم انتقاء البعض تبعا لمعارفهم في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ الصيني بينما اختير آخرون بسبب كفاءتهم في مادة الطقوس واللاهوت البوذي أو بسبب مواهبهم الشعرية أو الموسيقية أو براعتهم بالرسم. وقد كلفوا فورا بالدراسات أثناء العام الذي تبقى فيه السفارة ويمكن أن يمددوا إقامتهم أحيانا خلال العقد أو العقود التي تفصل بين رحيل السفارة ومجيء السفارة الثانية ، وعندما يعودون إلى اليابان يصبحون روادا في اختصاصهم ويكلفوا بنقل المعارف المكتسبة من مدرسة الصين والإفادة منها . وبما أنهم رجال التحديث الوحيدون في البلاد فإنهم لا يتأخرون عن الشعور بسلطتهم فنجحوا في علم ٦٤٥ في القيام بانقلاب أحسنوا إعداده وقلبوا ميزان القوى في بلاط ياماتو ودشنوا عصر تايكا TAIKA أو عصر (التغيير الكبير) . والهدف الرسمي هو أن يجعلوا من الأرخبيل نسخة طبق الأصل من صين أسرة تانغ . ولم يكن اليابانيون هم الوحيدون الذين أرادوا جعل مؤسساتهم صورا منسوخة عن مؤسسات جارتهم الصين وإنما اندرجت في مثل هذا المسعى الممالك الصغيرة في كوريا ومنشوريا والممالك المتاخمة لإمبراطورية تانغ. وهذا

التصميم من استيحاء الأنماط الأجنبية الذي أصبح دارجا في الدول الحديثة يبدو في غاية الطرافة والجدة بالنسبة لذلك العصر.

إصلاح المؤسسات:

بدأ اليابانيون لدى احتكاكهم بالمؤسسات الصينية يحلمون بتنظيم سياسي من النموذج الإمبراطوري يمكن أن يسمح لهم بمعاملة جارتهم الكبرى معاملة الند للند. وقد بدأ الأمير شوتوكو يصدر رسائله إلى أباطرة الصين على الطريقة التالية : (من إمبراطور الشمس المشرقة إلى إمبراطور الشمس الغاربة). ثم ما لبث أمراء بلاط يامان أن تبنوا مراسم أباطرة الصين وشعاراتهم الرمزية، وغدا العاهل -مع احتفاظه بسلطته كزعيم ديني- ملكا أوتوقراطيا كما تقدمه أنقى تقاليد الصين. وقد احتفظ إمبراطور اليابان حتى الزمن الحاضر بهذه السلطة المزدوجة زعيما دينيا ومنفذا سياسيا سامي المقام.

تخلى اليابانيون شيئا فشيئا تحت التأثير الصيني عن أخر تقاليدهم الأمومية، ولما حاول راهب بوذي أن يغتصب العرش بسبب نفوذه على إحدى الإمبراطوريات أقصي النساء نهائيا عن السلطة انطلاقا من النصف الثاني من القرن الثامن، ووجب انتظار ألف عام وتحلل كامل للسلطة الإمبراطورية حتى ترى اليابان امرأة جديدة تعتلي العرش. وكانت مكانة المرأة تميل إلى فقدان هيبتها القديمة كلما تقدم الوقت. وفي الفترات الأولى من عصر الإقطاع كانت النساء لايزلن يتمتعن بنفوذ كبير ثم ما لبثت تبعيتهن للرجال أن تغلبت وسادت في الحياة الاجتماعية.

وقد أقيمت حول شخص الإمبراطور أجهزة حكومية مركزية على النمط الصيني فخلق مجلس دولة يضم مستشار الإمبراطورية الأكبر ومستشار الميسرة ومستشار الميمنة وثمانية من الوزراء الإختصاصيين. وكل وزير يرأس عددا من المكاتب يعمل فيها موظفون يتدرجون على ست وعشرين مرتبة متسلسلة. ومثل هذه البنية الحكومية عبء ثقيل على بلاد ذات مساحات ضئيلة ضعيفة المركزية ولا تزال قريبة نسبيا من مجتمع قبلي بدائي. وكان كثير من أجهزة هذه الآلة الإدارية المعقدة ليس لهم وجود إلا على الورق ولا يشبهون إلا شبها بعيدا أجهزة الحكومة الصينية التي استخدموها نموذجا لتنظيماتهم. وإذا لم تكن النتائج على مستوى الآمال فإننا لا نستطيع إلا أن نعجب بهذا النشاط الفذ الذي أبداه اليابانيون بأن يسلموا أنفسهم إلى بنية إدارية شبيهة ببنية الصين

واستعدادهم لأن يتمثلوا طرائق عمل سياسية على مستوى عال من التعقيد.

العاصمتان : نارا NARA وهيان HEIAN:

يشكل تطور المدن دليلا أخر على الافتتان الذي مارسته صين تانغ على اليابانيين.فاليابان البدائية لم تعرف مدنا كبيرة ولا صغيرة ولا أي شكل من أشكال البناء الدائم. ثم سعى اليابانيون لأن يشيدوا عاصمة لهم شبيهة بتشانغ-نغان عاصمة أسرة تانغ. ولا شك أن تشانغ-نغان الواقعة في الشمال الشرقي من الصين والتي كانت تضم حوالي المليون من السكان كانت أقوى تجمع سكاني في العالم كله يومذاك. كان مخططها مستطيل الشكل ذات عرض يبلغ ثمانية كيلو مترات وطول يبلغ العشرة وتحتمي وراء أسوار كثيفة. وكان قصر فخم يحتل القسم الشمالي من المدينة التي تقطعها شوارع عريضة متعامدة حسب مخطط جعل المدينة على شكل مربعات. وقد حاول اليابانيون بدءا من عام ٧١٠ بنقل مبادئ فن تنظيم المدن المعمول به في تشانغ-نغان، فابتكروا مخططا لمدينة ذات أبعاد أكثر تواضعا يبلغ عرضها خمسة كيلو مترات وطولها حوالي السبعة وأهملوا السور الذي هو من خصائص المدن الصينية ولكن بسبب من قلة السكان لم ينجز القسم الغربي من المدينة قط. ومن أجل تسهيل المواصلات فتحت شوارع عريضة وفيما بينها ارتفعت معابد بوذية مهيبة مغطات بالآجر كما نهضت قصور ضخمة وبيوت خاصة بالسكن واسعة الرحاب. بعض معابد هذه الحقبة من الزمات لا تزال قائمة وتعتبر من أقدم العمارات الخشبية المعروفة وبقيت نارا وضواحيها معرضا استثنائيا حافظا لأنماط البناء التي عرفت في عهد أسرة تانغ وبخاصة في معبد هوريوجي الشهير الذي يعود إلى القرن السابع .

في نحو من نهاية القرن الثامن قلق البلاط من الخضوع لهيمنة المؤسسات البوذية التي تطوق نارا فقرر نقل العاصمة إلى هيان. وبنيت العاصمة الجديدة في عام ٧٩٤ على بعد ما يقارب الخمسين كيلو متر من نارا. وبما أن أبعادها هي الأخرى بقيت كبيرة على الاستيعاب (٥,٥ × ٤,٥ كم) فإنها لم يكتمل بنائها قط. وكان عليها أن تحتفظ بوظيفتها عاصمة إمبراطورية للبلاد حتى عام ١٨٦٨ على المكان نفسه الذي تحتله اليوم مدينة كيوتو، ولا يزال مخطط شوارع كيوتو الهندسي حتى اليوم يذكرنا بمخطط المدن الصينية في العصر الوسيط.

فشل المركزية الإدارية:

عانى اليابانيون صعوبات كبيرة جدا في تطبيق أساليب الحكم الصيني في إدارتهم للأقاليم. وقد انتهت إلى الإخفاق كل محاولة قام بها موظفو البلاط لتحقيق المركزية بسبب عدم كفاية المواصلات وثقل الخصائص المحلية الموجودة في الإقليم ووجب الإكتفاء بواجهة النظام البيروقراطي الصيني.

وقسم الأرخبيل إلى مقاطعات وكونتيات يديرها موظفون أسبغت عليهم الألقاب الطنانة ولكن مديري المقاطعات هؤلاء رفضوا أن يتخلوا عن ملذات البلاط واعتادوا على أن يعهدوا بسلطاتهم لأتباع أشبعوا بالروح الإقليمية فغدا من المستحيل على الحكومة المركزية منذ ذلك الوقت أن تسيطر من الناحية العملية على المقاطعات.

حاولوا كذلك أن ينقلوا إلى اليابان النظام العقاري والمالي للصين الذي اشتهر بتعقيده الشديد. والمعروف أن الأرض في عهد أوائل الأباطرة من أسرة تانغ كانت (مؤممة) من الناحية النظرية وموزعة بصورة متساوية بين الفلاحين. وكل فلاح يدفع الضريبة نفسها فيقدم جزءا منها عينا والجزء الآخر إما على شكل أعمال سخرة أو خدمة عسكرية. ورغم ماضيهم الطويل في المركزية وتقاليدهم البيروقراطية الراسخة فإن الصينيين أنفسهم عجزوا عن أن يؤمنوا نجاحا مقبولا لنظامهم. ورغم أن اليابانيين أصدروا هذه المبادئ على شكل قوانين دقيقة إلا أنهم لم يتوصلوا قط إلى وضعها موضع التنفيذ الملزم في بلاد مجزأة إلى قبائل وعائلات . ولم يعرف النظام إلا قرنا واحدا من التطبيق حول العاصمة حصرا وفي بعض المقاطعات التي مورست فيها سلطة الحكومة المركزية، أما في باقي البلاد فقد بقي حبرا على ورق.

في موضوع التجنيد أيضا استلهموا نظام الصين. وبما انه كان يعتبر هناك نوعا من الضريبة المالية فقد أعطى لأسرة تانغ الأمن لحدودها التي لا تنتهي ودفع عنها غزوات الشعوب البدوية التي تناوشها في الشمال والشمال الغربي. ولكن هذه المسوغات الستراتيجية لم يكن لها أي معنى في اليابان . وجيش الفلاحين الذي أنشئ في المناطق التي تشرف عليها الحكومة لم يستخدم قط إلا في أعمال البنى التحتية (من طرقات وجسور وسدود) ، وخلق جيش المشاة ما كاد يبدأ حتى فشل تحقيقه وبقي الفارس المحارب النبيل لمدة طويلة يجسد الدفاع الياباني .

الدين والحياة الثقافية:

على المدى البعيد ترك النفوذ الصيني طابعه الأعمق في الأمور العقلية أكثر مما تركه في البنى الإدارية والسياسية. فكثير من أشكال التنظيمات المقتبسة من القارة كان مصيرها الزوال مع الوقت والقليل الذي بقي منها ما لبث أن أفرغ من مضمونه. وعلى العكس من ذلك المفاهيم الدينية والتقاليد الفنية والأنماط الأدبية القارية التي أدمجت بشكل متماد في اعماق الثقافة اليابانية السابقة، وبالتقاء هاتين الحضارتين تكون إدراك جديد. انطلاقا من انتصار البوذيين الأوائل في البلاط في النصف الثاني من القرن السادس غدت الديانة الصينية العبادة الرسمية للأوساط الحاكمة وأنشئت فوق الأملاك العامة معابد جميلة تجري فيها احتفالات مدهشة بحضور البلاط والعائلات الأرستقراطية . وقد شهدنا عددا من الأباطرة هجروا وظائفهم الرسمية ليعيشوا حياة الدير الهادئة. وككل ما أتى من القارة فإن البوذية ترسخت جذورها في العاصمة وضواحيها أكثر مما ترسخت في المقاطعات المختلفة التي حافظت فيها الشنتوية على عدد كبير من الأتباع. مع البوذية نفذت المفاهيم الفنية والتقنيات الحرفية الصينية. فالمعابد البوذية التي هي روائع معمارية حقيقية ضمت أعمالا فنية انيقة عليها بصمات روحانية عميقة. وكانت تتميز برسومها وتماثيلها البرونزية أو المصنوعة من الخزف المبرنق أو الخشب. وقد قدم جزء من هذا الإنتاج الفني من القارة بينما الباقي الذي يتمتع بالمستوى الفني نفسه هو من أصل ياباني . والعمارات البوذية المشادة في منطقة نارا من أمثال هوروايجي و شوسوان (المخزن الرسمي) إنما هي شواهد من ذلك العصر ، وهي تظهر بأية غبطة عرف اليابانيون كيف ينتقلون أفضل ما في الصين من تقاليد حرفية ويعدلون عليها ، ومنذ ذلك الوقت نجم الكمال التشكيلي في الأعمال الفنية اليابانية عن المشاركة السعيدة التي تمت بين ذوق فني واثق كل الثقة من نفسه وبين مهارة يدوية عالية المستوى.

ولكن النفوذ الصيني كان لا شك أقل توفيقا في مجال الكتابة. فاليابانية لغة ملصوق بعضها ببعض ذات بنية صوتية بسيطة تتشكل أساسا من كلمات متعددة المقاطع غنية بانقلاباتها اللفظية. فهي إذا مختلفة عن الصينية التي تعرف القليل من القلب في الألفاظ والتي ضمت في الأصل خصوصا ألفاظا وحيدة المقطع، وهي بذلك أقل استعدادا من اليابانية للتدوين الصوتي. ويفسر لنا ذلك لماذا اخترع الصينيون أسلوبا للكتابة فيه كل

كلمة تمثل برمز مميز أوIDEOGRAMME ذي أصل يعتمد على الرسم Pictographique في أغلب الأحيان. وإذا نظرنا إلى عدد الإشارات التي يضمها هذا الأسلوب في الكتابة لوجدنا أن كل رمز IDEGRAMME يمكن أن يبلغ حدا قليلا أو كثيرا من التعقيد. وهكذا نجد أن (الواحد) يعبر عنه بمجرد شرطة أفقية بسيطة بينما ونحن نعرف أن المشكلة الدائمة التي يعاني منها الطالب الصيني هي أن يتذكر بضعة آلاف من الإشارات التي لابد منها ليتمكن من حمل لقب المتعلم. ومن أجل حل مشكلة التدوين في لغتهم لجأ اليابانيون إلى الكتابة الصينية رغم عدم ملاءمتها لهم على الإطلاق. وهكذا نرى أن التاريخ لم يشهد حتمية جغرافية كالحتمية التي فرضت على اليابان، فلو أن اليابان جاورت بلدا يملك كتابة صوتية شبيهة بأبجديتنا فلا شك أنها ستجد حلا لمشكلة لغتها بدون صعوبات، ولكن الحظ قرر لها غير ذلك ووجب على أجيال بكاملها من الفتية اليابانيين - على غرار ما حدث للصينيين - أن يرغموا على بذل مجهود مضجر في حصر الذاكرة لتعلم العناصر الضرورية للكتابة.

إن الهيبة التي أحاطت بكل ما هو قادم من الصين صرفت اليابانيين عن السعي وراء حلول أصيلة لمشكلة تدوين لغتهم. لذلك فإنهم من أجل كتابة أسماء الأعلام أو كتابة القصائد استعملوا الحروف الصينية كمعادل صوتي للمقاطع اليابانية الملائمة، أما من أجل ما تبقى فإن غياب نظام للكتابة يناسب خصائص لغتهم قد شكل عائقا ليس له دواء. وكانوا يستعملون الصينية الكلاسيكية كما استعملت اللاتينية في أوروبا في العصور الوسطى تقريبا، فالبحوث التاريخية والجغرافية والحقوقية والوثائق الرسمية من مختلف الأنواع كانت تسجل بالصينية الدارجة، أما الذين كانوا يتمتعون بثقافة أعلى فإنهم تباهوا بقدراتهم حتى على تقليد أساليب القارة وألفوا قصائد باللغة الصينية.

والنوع الأدبي الأكثر إجلالا هو التاريخ. ونحن نعرف المكانة التي احتلها التاريخ دائما في حياة الصين الثقافية ، فحكومة الأباطرة من أسرة تانغ كانت ترعى على نفقتها مدونين للتاريخ يتمتعون بمكانة إدارية مرموقة. وأراد اليابانيون المتأثرون بموهبة المؤرخين الصينيين أن يكتبوا تاريخهم القومي الخاص بهم فوصل إلينا كتابان قديمان للتاريخ كتبا على طريقة الحوليات أحدهما هو النيهونجي أو النيهونشوكي الذي تم تأليفه باللغة الصينية في عام ٧٢٠ والثاني هو كوجيكي الذي كان اكثر تواضعا وكتب بخليط من الصينية

واليابانية في حوالي عام ٧١٢ . هذان الكتابان اللذان كانا تجميعا للمعلومات التاريخية في عصرهما يعجان بالمعلومات التي تشكل إلى حد ما شهادة حقيقية على الحقبة التالية للعام ٤٠٠ الميلادي. ونجد فيهما كذلك كتابات ميثولوجية عديدة مصدرها الروايات الشفوية التي وصلت إليهم من الزمن القديم ز وهذه المصادر تلقي ضوءا ثمينا على المعتقدات والمؤسسات اليابانية قبل موجة الإختراق الصيني. ومع ذلك فإن مؤرخي ذلك العصر ورجال الدولة فيه لم يقتصروا على الحوليات المبسطة في أغلب الأحيان وتقبع في ثناياها عناصر أسطورية وتقترب كثيرا في مضمونها من قصص الإخباريين الرواة في بلاط ياماتو بل شرعوا في أن يثبتوا تاريخا أن ملوك ياماتو إنما هم أحفاد لسلالة واحدة أمسكت دائما السلطة بين يديها وألقاب النبالة فيها تساوي إلى أبعد نطاق ألقاب النبالة التي تتمتع بها الأسرة المالكة في الصين. ومن أجل تمجيد التاريخ القومي والأساطير ذات العناصر القارية أقاموا لوحات جدارية Fresque ضخمة تروي نزول حفيد الإلهة الشمس إلى الأرض وآخر حفيد لهذا الحفيد هو جيمو الذي أنشأ إمبراطورية الشمس المشرقة في عام ٦٦٠ ق.م ، وهذا التاريخ الرمزي -كما هو حال الأقاصيص من هذا النوع - يعبرعن نزوة لأنه بتوقفه عند مطلع القرن السابع إنما يحسم ١٢٦٠ عاما من الأحداث بحيث يرتبط بدورة زمنية لها علاقة بتسلسل الأحداث التاريخية في الصين.

وهكذا فإن النيهونجي والكوجيكي يحتلان مكانة أساسية في تسجيل التاريخ الياباني ويشكلان مصادر مميزة للمعلومات . إلا أن شهرتهما ترتبط كذلك بسبب آخر، فهذان الكتابان التاريخيان نبشا وأخرجا إلى النور بعد عدة عصور من الظلام على يد وطنيين حريصين على أن يعيدوا الارتباط بيابان أولية ذات سمعة أعلى من سمعة البلاد الأخرى، بل إننا نرى الحكومة اليابانية نفسها تطلب من المواطنين أن يقبلوا بهذه الأساطير على أنها حقائق تاريخية لا تنقض.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

نحو الاستقلال الثقافي

منذ نهاية القرن السادس وحتى أواسط القرن التاسع انخرطت اليابان بوعي وعزم في مدرسة الصين. ولكن هذه الحالة تعدلت انطلاقا من القرن التاسع شيئا فشيئا . بقيت قوية جاذبية ما هو قادم من الصين ولكن اليابان بدوا أقل اقتناعا بتفوق حضارة القارة. وقد عرف النفوذ الصيني أوجه في الميدان السياسي والثقافي ما بين عامي ٧١٠ و ٧٩٤ طالما بقيت العاصمة على مقربة من نارا أما بعد أن انتقل المركز السياسي إلى هيان HEIAN (أوكيوتو) في عام ٧٩٤ فقد تماسكت هيبة القارة لفترة من الزمان ولكن ما أن هلت السنوات الولى من القرن العاشر حتى ظهرت روح جديدة بقيت هي المميزة لكل عصر هيان الذي امتد من القرن التاسع إلى مطالع القرن الثاني عشر وكانت على تناقض حاد مع الميول التي سادت في عصر نارا ، ومنذ الآن لم يعد السكان يسعون لتقليد المعرفة والمهارة الصينيتين تقليدا منهجيا بقدر ما سعوا إلى تمثل ما أخذوه في الحقبة السابقة تمثلا عميقا وتكييفه بحيث يناسب ما في اليابان من واقع وميول.

ويفسر هذا التغيير في الاتجاه جزئيا بالانحطاط السياسي لأسرة تانغ الذي استمر يتمادى خلال القرن التاسع . يضاف إلى ذلك أن تطور العقلية اليابانية له نصيب لا يستهان به في تغير الأحوال. فثلاثة قرون من التمثل الواعي للقيم الصينية أبرز في العاصمة وجوارها مجتمعا متألقا تحكمه مؤسسات سياسية واجتماعية ذات نموذج صيني. وبدلا من الاقتصار على إعادة إنتاج الأنماط القارية فإن هذا المجتمع نقل الروح والمبادئ إلى ميادين جديدة من التحقيق وتخلى عن اعتبار المنتجات الصينية معطيات لا تمس وما لبث أن استيقظ اليابانيون شيئا فشيئا على حياة ثقافية مستقلة الملامح بعيدة عن المجتمع الوطني البدائي بمقدار ما هي بعيدة عن حضارة تانغ ، ولأول مرة توصل الأرخبيل إلى

نضج ثقافي حقيقي. أول دلائل هذا التحول هوقطع العلاقات الدبلوماسية مع الصين حيث تركت أخر سفارة كبيرة إلى إمبراطورية تانغ أرض اليابان في عام ٨٣٨ ولم تجدد مهمتها في العام التالي ورفضت كل المحاولات اللاحقة لإقامة اتصالات مع القارة على يد كبار موظفي البلاط الذين غدوا مقتنعين منذئذ بأن مثل هذه المجازفة لا تسوغ الأخطار الكبيرة الناجمة عن مثل هذه الرحلة البحرية الطويلة . ورغم أن بعض التجار وبعض رهبان البوذية استمروا في الذهاب والإياب بين البلدين إلا أن مجموع الأرخبيل انطوى على نفسه . وفي ظل العزلة التي اختارتها اليابان لنفسها تسارع التقدم الثقافي في طريقه المحتوم واستمر تمثل القيم الصينية في جو من الإنغلاق على الذات.

مخطط استقلال لغوي : الكانا LES KANA :

عبر التطور الثقافي عن نفسه في بادئ الأمر بتبني نظام للكتابة يلائم اللغة اليابانية ملاءمة أفضل. ونحن نذكر أن نمط من أنماط التدوين ظهر خلال القرن التاسع أو العاشر يقوم على استعمال الأحرف المبسطة كرموز صوتية مجردة عن كل معنى خاص. فكل رمز صيني يمثل مقطعا وحيدا استعمل معادلا صوتيا لمقطع ياباني مثل : كا، سي، نو، فالأمر كان يتعلق إذا برموز مقطعية SYLLABAIRE لا أبجدية . والمقاطع اليابانية كانت تنتهي -كما هو الأمر في يومنا هذا – بواحد من الأحرف الصوتية الخمسة الأساسية ,W, O,I,E,A على الطريقة الإيطالية تقريبا.

هذه الأبجدية الصوتية أو الكانا ليست مع ذلك بسيطة كما يبدو، فهي تحتوي على شكلين خطيين مختلفين عن الرموز الصينية أحدهما شكل سريع أو موجز H IRAGANA يحتفظ ببعض النمنمة الصينية والآخر أكثر سهولة في الكتابة K ATAKANA الذي لم يحتفظ من الرموز الصينية إلا ببعض الشرطات وبعض النقاط التي تحافظ على القيمة الصوتية للمجموع . وثمة مصدر آخر للصعوبة يأتي من أن اختيار الاختصارات في كل من الشكلين ترك لمدة طويلة حرا في يد أي واحد من الكتبة، فوجدت بذلك أشكال عديدة من الاختصارات للمقطع الواحد في وقت واحد. وكان لابد من انتظار قدوم القرن التاسع عشر ليصبح كل من الشكلين الخطيين الهيراكانا والكاتا كانا وحيد الرسم بالنسبة للجميع. على أنهم لا يزالون يستعملون في مراسلاتهم اليومية حتى الوقت الحاضر أشكالا مختلفة من الكانا.

أول ازدهار لأدب قومي:

رغم أن الأحرف المقطعية أقل ملاءمة في الاستعمال بدون شك من الأحرف الأبجدية فإنها حملت لليابانيين مع ذلك حلا لمشكلة الكتابة التي بقيت مدة طويلة مستعصية على الحل وسمحت بتطور أدب محلي أصيل. وكان اليابانيون حتى في أقوى موجات النفوذ الصيني قد احتفظوا بعادة كتابة قصائدهم بلغتهم الخاصة مستعملين الرموز الصينية غير المختصرة كرموز صوتية . وكانت مجموعة من المختارات الشعرية قد ظهرت في نحو عام ٧٦٠ وهي تضم ٤٥١٦ من هذه الأشعار تحت عنوان مانيوشو MANYOSHU أو (مجموعة العشرة آلاف ورقة) ، وعندما تم تبسيط نظام التدوين فإنه أعطى للشعر ازدهارا وانطلاقا جديدا . وقد تباهى رجال البلاط وسيداته بأنهم ينظمون الشعر وطبقوا في رسائلهم الغرامية قواعد علم العروض. وفي عام ٩٠٥ جمعت أفضل أشعارهم بطلب من الإمبراطور في الكوكينشو KOKINSHU أو (مجموعة الأشعار القديمة والحديثة) ، ثم ظهر حوالي عشرين من المجموعات المشابهة أثناء القرون الخمسة التالية.

معظم هذه القصائد المسماة تانكا لم تكن تضم إلا واحدا وثلاثين مقطعا مرتبة بحسب إيقاع محدد، فهي لا تستطيع في إيجازها أن أن تطمح لأكثر من وصف منظر طبيعي أو استعادة انطباع زائل أو حالة نفسية عابرة. وتشهد هذه القصائد على حساسية أدبية مرهفة قادرة على إظهار أدق التفاصيل في لحظية حساسية أو انفعالية.

وقد شجع شكل الكتابة الجديدة على تطور أنواع أدبية كثيرة التنوع. فكثرت القصص وأخبار الرحلات والدراسات خلال القرن العاشر ، وتميزت هذه الأعمال المكتوبة بلغة بالغة النقاء بجودة أدبية عالية، ومع ذلك فإن غالبية المتعلمين اليابانيين أنفوا كما فعل أضرابهم في الغرب أثناء القرون الوسطى- أن يكتبوا بلغتهم الأم التي يعتبرونها لغة عامية، فكل مؤلفات التاريخ والبحوث والوثائق الرسمية كانت تدون باللغة الصينية. وحدهن سيدات البلاط الإمبراطوري اللواتي لا يعرفن الصينية إلا معرفة سيئة جدا ، رأين أنفسهن – من أجل أن يحسن التعبير – مضطرات إلى الكتابة باللغة اليابانية. ومن هنا نصل إلى التناقض القائم في مجتمع رجاله يجهدون أنفسهم للكتابة بلغة صينية سقيمة بينما شريكاتهم من النساء الأقل ثقافة يكتبن بيابانية رفيعة واضعات بذلك حجر الأساس لأدب قومي أصيل.

كانت نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر العصر الذهبي للنثر الياباني. أما أسلوبه فقد وضعته سيدات البلاط اللواتي كن يمارسن حياة من الكسل والخمول وإن تميزت بذوق رفيع. وكان لونهن المفضل هو المذكرات الشخصية المزدانة في أغلب الأحيان بأشعار موجزة غايتها تخليد ما يمر بهن من لحظات انفعال عنيف. وهذه المذكرات تضم بعض أقاصيص الرحلات ولكنها تهتم بالدرجة الأولى بوصف بهاء ما يجري في البلاط الإمبراطوري من احتفالات والتنويه بجو الإستهتار والطيش الذي يسود الأخلاق الأرستقراطية. ومع ذلك فإن العمل الأكثر أهمية في ذلك العصر لم يكن المذكرات الخاصة بل الرواية-النهر[٢] :قصة جنجي التي يعود الفضل فيها لريشة إحدى سيدات القصر المسماة موراساكي والتي يعود تاريخها إلى مطلع القرن الحادي عشر وتروي حكاية المغامرات الغرامية والأحوال النفسية لأمير من نسج الخيال . كانت هذه الرواية عملا متفوقا ونموذجا أصيلا يحتذى من نوع أدبي جديد وبقيت واحدة من تحف الأدب العالمي التي لا يقوم فيها اعتراض . والمذكرات الشخصية والروايات هي أولى الشواهد على ثقافة يابانية قومية على أساس أن أسلوبها وتأليفها ليس لهما مثيل في الأدب الصيني، وهي شاهدة على أن اليابانيين عرفوا كيف يتخلصون من الأنماط القارية ويضعون قواعد فن أدبي يتماشى مع معاييرهم البديعية الخاصة.

ويمكن للمرء أن يتساءل لم استمر اليابانيون يتحملون هذا العدد الوافر من الرموز الصينية خلال ألف عام بعد اكتشافهم نظاما صوتيا ملائما للتدوين، وتفسير ذلك يقوم على هيبة الصين التي استمرت باقية على الدوام واحتفظ المثقفون بعادة الكتابة بالصينية . ولكن بما أن الروابط مع القارة كانت تنفصم أكثر فأكثر فإنهم أضاعوا مع الزمن ممارسة اللغة ومزجوا مع الأحرف الصينية عناصر من الكانا في الوقت الذي قام فيه مؤلفون آخرون كانوا يكتبون بالكانا باكتساب عادة توشية نصوصهم بالرموز الدينية . وقد أدى هذان الاتجاهان المتعارضان إلى نظام هجين لكتابة اللغة اليابانية الحديثة . فالأسماء وجذور الأفعال والنعوت تصور فيه بالرموز الصينية بينما الإعرابات والعناصر التي لا

---

[٢] الرواية النهر Leroman-Fleuve هي الرواية الطويلة التي تروي قصة حياة أسرة بأجيالها المتعاقبة. – المترجم –

تكتب بالرموز الصينية تكتب فيه بالكانا. على أن التعقيد المفرط لنظام الكتابة هذا ازداد تعقيداً بسبب عوامل أخرى. أولها أن الرموز الصينية المستعملة في اليابانية كانت تأتي من المقاطعات الصينية حيث توجد بصورة عامة لهجات محلية مختلفة، وهكذا أصبح بإمكان الرمز الصيني الواحد أن يلفظ في اليابانية بطرائق عديدة مختلفة لا تشابه أية واحدة منها طرائق نطق اللهجات الصينية الأصلية. ومن جهة ثانية فإن كل رمز صيني كان يدل في الوقت نفسه على كلمة صينية وعلى كل الكلمات اليابانية ذات المعنى المتشابه ولكنها تختلف عن بعضها بقواعد التصريف. وأخيراً فإن حرفاً صينياً واحداً يمكن أن يكون له عددٌ من المرادفات اليابانية.

هذا التواجد المتزامن لنظام صيني للكتابة ولتعدد في القراءات الممكنة للرمز يفسر كيف أن كل سطر في اليابانية الحديثة يضع أمام القارئ مجموعة من الأحاجي والمشاكل الشائكة أمام حل الخطوط وتفسيرها. وتعقيد نظام الكتابة اليابانية ليس له نظير في العالم وهو عائق كبير أمام التطور التقني والثقافي في البلاد.

ويمكن أن يكون الدواء الوحيد هو في التخلي عن الرموز الصينية والعودة إلى التدوين الصوتي الذي استعمل في حوالي عام ١٠٠٠، أو أن يلجؤوا إلى حل أفضل هو تبني الأبجدية اللاتينية. ويمكننا أن نتخيل صعوبة مثل هذا لإصلاح. فقد استعار اليابانيون في الواقع من الصين عشرات الآلاف من التعابير التقنية والعلمية واصطنعوا كذلك مصطلحات جديدة عن طريق تجميع عدة رموز صينية ينطقونها على الطريقة الصينية. ومن أجل أن يطفح كيل المصاعب فإن كثيراً من الكلمات اليابانية المستعارة من الصين متماثلات في الصوت بحيث أن أي قاموس عادي يمكنه أن يحصي عشرين كلمة مختلفة على الأقل مستخلصة من الصينية وتلفظ كلها كوكو koko !. وأية قائمة وافية للمصطلحات العلمية يمكن أن تضم من مثل ذلك بدون شك عشرات من الكلمات الإضافية. وهكذا فإن الكثير من المصطلحات العلمية لا يمكن أن تكون مفهومة من مجرد السماع وإنما ينبغي أن يكون الرمز الذي يمثلها ماثلاً للعيان. وإذا كان لابد في أحد الأيام من التخلي عن الرموز الصينية فربما من الواجب إجراء تعديل كامل لمجموع المفردات اليابانية التقنية والعلمية. وربما من الواجب خلق كلمات جديدة مصطنعة من الجذور اليابانية الموجودة أو استعارة من لغات الغرب. ومع ذلك فإنه ليس من شك في أن

إصلاحا لغويا من هذا النموذج سيكون خيرا على اليابان برغم الصعوبات التي لابد من أن تنهض في وجهه.

واليقضة القومية التي ظهرت في بادئ الأمر في الآداب أثرت كذلك في فن الرسم والنحت وهندسة البناء، وفي الوقت نفسه تغيرت المؤسسات السياسية والمفاهيم الاجتماعية تغيرا جذريا بحيث أضاعت كل شبه لها بالأنماط الصينية الأصلية.

تفسخ إداري وتهرب من الضرائب:

الشخصية الأساسية في الحياة الصينية السياسية هي البيروقراطي المتعلم والماهر في الوقت نفسه في معالجة أجهزة الإدارة المركزية المعقدة والضرب في آفاق المقاطعات لجباية الضريبة وتأمين حفظ النظام. وكان النظام الصيني يمتص آلاف الموظفين، وانتقاء الرجال الصالحين لإعتلاء المراكز القيادية يرتدي أهمية عمل هام من أعمال الدولة. ومسابقات اختيار الموظفين الجدد التي تجري في جامعة تشانغ - نغان تستند أساسا على المواد الأدبية، وكان آلاف المرشحين يتبوؤون أعلى المسؤوليات دون تمييز بينهم في الأصل، والطبقات المثقفة من المجتمع هي التي ترشح النخبة الإدارية المندفعة بحماس للخدمة العامة.

ولم يحتفظ اليابانيون من النظام الصيني إلا بالواجهة. فمتانة ولائهم للعائلة وللنظام الاجتماعي لم تكن تتفق مع مبدأ الانتقاء بالمسابقة. ولا شك في أنهم خلقوا جامعة مركزية تدرس فيها الآداب والفنون الصينية هدفها الإعداد لمسابقات التوظيف، ولكنهم نادرون أولئك المرشحون الذين وصلوا إلى مراكز المسؤولية دون (سند أو دعم). أما في المقاطعات فالسلطة الاسمية يختص بها أعضاء الأرستقراطية المحلية التي تسبغ عليهم وظائف إدارية هامة، أما السلطة الحقيقية فهي في الواقع بيد أمراء البلاط الذين يمسكون بأزمة القيادة الرئيسية ويتخلون عن طيب خاطر عن المراكز الثانوية للموظفين الذين وصلوا عن طريق المسابقات.

كانت الحكومة الصينية قد قاومت دائما تهرب الفلاحين من دفع الضرائب لأن هؤلاء كانوا يتوصلون إلى إعفاء أنفسهم من الضريبة عن طريق وساطة العائلات الريفية الكبيرة التي تتمتع بمراكز محترمة في البلاط. وقد تفشت هذه العادة أكثر من ذلك في اليابان حيث لم يستطع أي تقليد بيروقراطي من حماية مصالح الدولة. فالأرستقراطية المحلية

تحت غطاء من مسؤولياتها الإدارية كانت تتفق مع أمراء البلاط على اقتسام أسلاب الممتلكات الإمبراطورية، ولم يطبق قط نظام إعادة توزيع أراضي الدولة في المناطق البعيدة، وفي خلال القرن الثامن والتاسع تراجع بسرعة في المنطقة الوسطى. وتملك وجهاء محليون عن طريق دعاوى غير شرعية في اغلب الأحيان أراضي معفاة من الضرائب بينما أرستقراطيو البلاط يقتطفون لأنفسهم أملاكا واسعة مقابل خدماتهم أو عن طريق الدسائس والمؤامرات.

وهكذا فإنه في اللحظة ذاتها التي كانت فيها النبالة المحلية الصغيرة تسعى للتخلص من هيمنة موظفي المالية كانت العائلات الأرستقراطية في البلاط والأديرة الكبرى تحصل على ممتلكات حرة عليهم أن يضعوا فيها وكلاء أعمال وقيمين. وتلاقت مصالح هؤلاء وأولئك عندما عهد أمراء البلاط والرؤساء الدينيون إلى النبالة المحلية بإدارة ممتلكاتهم فظهر بذلك نظام لحيازة الاقطاعات ذو درجتين : فالفلاحون يدفعون مقابل زراعة الأراض نصيبا وافيا من محصولهم للأرستقراطيين المحليين بينما يدفع هؤلاء بدورهم قسما مما استلموه إلى أمراء الإقطاع إلى ممثلي المؤسسات البوذية في مقابل الحماية التي يمنحونها لهم.

ما بين القرن الثامن والعاشر تضاعفت الممتلكات الحرة على حساب الأملاك الإمبراطورية التي انتهى بها الأمر إلى الإختفاء التام. ومنذ ذلك الوقت نقصت عمليا إلى درجة العدم المدخولات المالية التي كانت تشكل قاعدة النظام الإداري على الطريقة الصينية وانعدمت انعداما يكاد يكون تاما الخدمات الإدارية التي لم تعد تربطها صلة بالسلطة المركزية والتي هي منذ الأصل ضعيفة الجذور. ولم يمض طويل وقت حتى لم يعد يبقى إلا ألقاب طنانة ولكنها فارغة مثل ألقاب الحكام أو نواب الحكام الريفيين، وأضاعت الإدارة المركزية نفسها الأساسي من سلطاتها، وبما أنها غدت محرومة من وسائل العمل وانتزع منها جزء من حياتها القديمة وأصبحت لا تملك إلا ملاكا محدودا فإن هذه الإدارة تضاءلت حتى غدت مجرد واجهة. واستمر كبراء البلاط يتباهون بالألقاب المهيبة ويبدون متغطرسين في حقهم في التصدر وفي مسائل المراسم وقواعد التصرف ، ولكن النظام المعقد ذا الوزارات الثمان الاختصاصية أصبح غير ذي موضوع وهجر واستعيض عنه بتركيب حكومي بسيط.

هذه التغيرات المختلفة أدت إلى اختفاء أي شكل من أشكال المركزية وغدت كل أملاك خاصة تم تحررها من تدخل جباة المالية وموظفي الدولة وحدة سياسية واقتصادية مستقلة. والاتصال الوحيد بالعالم الخارجي هو دفع الضريبة للعائلات الأميرة في البلاط وللمؤسسات البوذية، وهكذا تسلمت شخصيات قوية مدنية أو دينية السلطات الملكية القديمة للحكومة الإمبراطورية. وغدت هذه الوحدات دولا حقيقية داخل الدولة وصارت تمارس لحسابها الخاص الوظائف التي كانت مسندة فيما مضى للإمبراطور.

أما العائلة الإمبراطورية فرغم أنها حافظت على هيبة عظيمة بسبب ما لها من دور سابق وما بقي لها من ولاية دينية فإن تمييزها عن بقية عائلات الأمراء كان يقل أكثر فأكثر. فهي تمارس سلطة اسمية على حكومة من الدمى المتحركة ولم تعد تسيطر إلا على ممتلكاتها الخاصة ووجب عليها من أجل أن تؤمن حياتها أن تعتمد على الموارد التي تقدمها لها هذه الممتلكات أكثر من اعتمادها على ما يقدم لها نظام الضرائب الحكومية. بل إن الأمر وصل بها إلى إضاعة السيطرة على شؤونها الخاصة يوم نجح الفوجيوارا من خديعة البلاط خديعة كاملة بسبب ما حيك من دسائس ومؤامرت.

ارتقاء الفوجيوارا:

إن مختلف فروع فوجيوارا هي من نسل سيد البلاط الكبير الذي حرض في علم ٦٤٥م على انقلاب قام به من يحبون الصين وثقافة الصين. وكان الفوجيوارا قد أقاموا سيطرتهم شيئا فشيئا على ممتلكات واسعة موزعة على مجموع أنحاء البلاد وصارت إيراداتهم منها أعلى من واردات أي عائلة أرستقراطية أخرى بما في ذلك العائلة الإمبراطورية نفسها. وقد توصلوا عن طريق سياسة مصاهرة ماهرة أن ينفذوا إلى صفوف العائلة الإمبراطورية التي انتهى بهم الأمر إلى أن يغتصبوا منها السلطة. وطريقتهم المفضلة هي أن يزوجوا بناتهم إلى الأباطرة الشباب الذين أرهقتهم مهمتهم المزدوجة حكاما ورؤساء دينيين، فما لبثوا أن اقتنعوا بسهولة – ما أن يبلغ أحد أبنائهم السن الذي يؤهله لرئاسة مراسم البلاط – أن يتنازلوا عن العرش وعند ذلك يؤول العرش إلى الإمبراطورة الوارثة التي هي من الفوجيوارا والتي يستطيع أبوها بصفته جدا للإمبراطور الصغير يستطيع أن يشد خيطان الحكومة كما يشاء.

هذا التكتيك سمح للفوجيوارا أن يمارسوا على العائلة الإمبراطورية هيمنة مطلقة منذ

منتصف القرن التاسع، وانطلاقا من ذلك الوقت جرت العادة أن يعين أوصياء من الفوجيوارا على الأباطرة القاصرين، وعندما يبلغ العاهل سن الرشد يتخذ الوصي لنفسه لقب (وصي الرشد) أو KAMPAKU . وخلال القرنين التاسع والعاشر كانت أعمال الوصي والكامباكو تسند بالوراثة إلى أفراد من عائلة الفوجيوارا كما تسند إليهم أيضا مناصب المستشار ومعظم المراكز الحكومية الكبيرة الأخرى. وقد أصبحت هيمنة عائلة الفوجيوارا منذ القرن العاشر مطلقة لدرجة أن ثلثي عصر هيان HEIAN الأخيرين كان أطلق عليهما في العادة اسم حقبة الفوجيوارا.

ولم يكتفوا بأن يبعدوا الأباطرة سياسيا بل نصبوا أنفسهم سادة الذوق والأناقة في البلاط الإمبراطوري. وإنه لشيء له مغزاه أن الصورة المسيطرة على عصر هيان لم تكن امبراطورا ولا أميرا بل فوجيوارا ميشيناغا الذي سيطر على حياة البلاط بين عامي ٩٩٥ - ١٠٢٧ أي في الحقبة التي كتبت فيها السيدة موراساكي رواية جنجي.

في نهاية القرن الحادي عشر توصل إمبراطور نشيط أن يمسك بين يديه بأمر السيطرة على البلاط. وجاء بعده في مناسبات عديدة أباطرة تمكنوا - بعد انسحابهم من السلطة-أن يعودوا فيؤكدوا السلطة الإمبراطورية في وجه الفوجيوارا وإن غدت هذه السلطة شيئا فشيئا سلطة شكلية. ولكن رغم ردود الفعل المتفرقة هذه التي قام بها أباطرة منفردون، فإن الفوجيوارا نجحوا في المحافظة على هيمنتهم على البلاط أثناء ألف عام. واحتفظت فروع مختلفة منهم تحت أسماء مختلفة باحتكار السلطة حتى جاء الانقلاب السياسي الكبير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وينبغي على المرء أن يكون في اليابان ليفهم كيف أن سيطرة طويلة إلى هذا الحد تتمتع بها الأسرة ذاتها لم تؤد إلى اغتصاب العرش. فالسلطة الأدبية للإمبراطور الذي هو في نفسه رئيس عائلة مالكة والزعيم الديني للبلاد كانت تقف سدا مانعا أمام إمكانية حدوث مجرد انقلاب. ففضل الفوجيوارا أن يبقى الإمبراطور ألعوبة ينتزعون منها كل سلطاته. وتلك في الواقع إحدى ثوابت التاريخ الياباني التي لا يمكن أن تغيب عن ملاحظة المراقب الفطن : الرجال ذو الألقاب في السلطة يصبحون غالبا في اليابان ألعوبة بيد زمرة من الناس تعمل وراء الكواليس.[٣]

[٣] هذا الوضع يذكرنا بوضع الخلفاء العباسيين المتأخرين. - المترجم -

اليابان الإقطاعية

بقي الفوجيوارا في مقدمة المسرح خلال القرنين العاشر والحادي عشر. وقد تزامن حكمهم مع عصر نتاج ادبي وفني لامع بينما كان غيرهم وراء الكواليس يهيئون لأعمال جديدة في المسرحية. والواقع أنه في اللحظة ذاتها التي كان فيها أرستقراطيوا العاصمة يضعون أسس حضارة أصيلة فإن الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد بدأت بالإفلات منهم. فبينما هم يكرسون كل نشاطهم للفنون والشعر والطيش ولمراسم البلاط كان أسياد المقاطعات يكتسبون الخبرة في ممارسة الأعمال ويسوسون ممتلكاتهم ويتعلمون كيف يتخلصون من توجيهات العاصمة. وبينما أمراء البلاط المخنثون في كيوتو يرعون الآداب والفنون التي ستغدو فخر الأجيال المقبلة فإن أبناء عمهم الأفظاظ في اليابان الريفية يسعون لوضع الأسس لبناء مجتمع جديد.

إن حقبة الفوجيوارا التي عرفت في عهدها انحطاط المؤسسات ذات الإيحاء الصيني وضعف السلطة المركزية تركت لنا صورة عصر من الإنحطاط السياسي. ومع ذلك فإن التفكك السريع للسلطة الإمبراطورية وجد ما يقابله في النجاحات التي أحرزتها النبالة الريفية التي بعد أن بقيت لمدة طويلة في معزل عن حركة الأفكار القادمة من القارة تمكنت في النهاية من تسلم المسؤوليات السياسية. لقد جرى كل شيء كما لو أن نفاذ القيم والممارسات الصينية قد تم في زمنين مختلفين، فالعاصمة كانت الهدف الأول ولم يأت دور الريف إلا انطلاقا من القرن العاشر أو الحادي عشر، ووجدت البنى الاجتماعية نفسها متأثرة بما تم بشكل غير مباشر ونالها التغيير.

الحروب الإقطاعية : تايرا ضد ميناموتو:

ستكون الشخصية الرئيسية في هذا المجتمع الجديد هي المحارب صاحب الحصان كما هو الأمر في التنظيم القبلي في الصين القديمة. ووظيفته في الأصل تقوم على تأمين الدفاع عن قبيلته، أما منذ الآن فهو مسؤول عن ممتلكات حرة واضحة المعالم ويستخدم مواهبه الفروسية في مطاردة المغيرين. كان ماهرا في استعمال القوس والسيف ويرتدي عدة سلاح كاملة مصنوعة من شرطان معدنية تمسكها سيور جلدية ذات ألوان صارخة فهو بذلك يذكرنا بالفارس الأوروبي خلال العصر الوسيط.

والإقطاعيون اليابانيون يدينون بالولاء لعائلات البلاط الكبرى ولأديرة المنطقة الوسطى الذين يمتلكون الأراضي. وعلاقة التبعية هذه الناجمة عن الحاجة إلى الحماية من الجباة الإمبراطوريين لم تكن تقدم أية مساعدة ضد هجمات الأعداء المحليين. فمن أجل مجابهة هؤلاء ينبغي تأمين المؤازرة من الفرسان الأصدقاء، ومن الطبيعي أن تقوم بين المحاربين عصب عسكرية للحماية المتبادلة. وبما أن عصب الفرسان هذه تقوم على أساس من المصالح المشتركة وروابط الزواج وعلاقات الصداقة أو على هيبة فارس له قيمة خاصة فقد كثر عددها وبخاصة في القسم الشرقي من الأرخبيل. فهناك أكثر من أي مكان آخر ظهر دفاع مشترك فارضا نفسه بسبب العدد الكبير من الممتلكات الواقعة في الكانتو حول العاصمة وبخاصة من أجل الوقوف في وجه الغزوات المستمرة التي يقوم بها الأينو القادمون من الشمال.

طوال القرنين العاشر والحادي عشر يرى المرء عصبا من الفرسان الريفيين يقاتل بعضها بعضا أثناء الغزوات والمجابهات التي لا تنقطع. وغالبا ما يقدم لنا التاريخ التقليدي هذه المنازعات على أنها ثورات ضد سلطة الإمبراطور. ويستند هذا التحليل على واقع أن الحكومة المركزية كانت تساند بوجه عام أحد طرفي النزاع. والحقيقة أن فرسان المقاطعات قلما تجذبهم المناصب السياسية في بلاط كيوتو بل كانوا يفضلون ألا يكون لهم أي ارتباط بالحكومة المركزية طالما أن هذه لم تأت لتتدخل فيما لا يعنيها من إدارة ممتلكاتهم أو علاقتهم مع الفلاحين أو في المنازعات التي تتصادم فيها عدة عائلات في المقاطعة الواحدة.

وكان كبار سادة البلاط يستقدمون إلى العاصمة من وقت لآخر محاربين ريفيين. وبما

انهم لا يستطيعون الإعتماد على مواهبهم العسكرية الخاصة فقد كانوا يستدعونهم إما للدفاع عن مصالحهم أو التخلص من خصومهم في البلاط أو لحمايتهم من غارات الأديرة البوذية الموجودة في المنطقة الوسطى، فقد كانت هذه الأخيرة تحاول فرض إرادتها على بلاط رعديد عن طريق نشر جنودها وذخائرها المقدسة. وفي أوقات أخرى كان الفرسان يستعدون للفصل في المنازعات على وراثة العرش الإمبراطوري أو المنازعات الداخلية في عائلة الفوجيوارا سواء عن طريق العمل أو طريق الإخافة والردع. وفي حوالي منتصف القرن الثاني عشر أدت هذه المنازعات على وراثة العرش إلى مواجهات جديدة بين عائلتي ذلك العصر الرئيسيتين اللتين تستند كل منهما على دعم إحدى العصبتين المتنافستين في البلاط وهما عائلة ميناموتو المستقرة في الكانتو وعائلة تايرا التي كانت ممتلكاتها تمتد على طول محيط البحر الداخلي. وهاتان العائلتان تدعيان انهما تنتسبان إلى فروع من العائلة الإمبراطورية أجبرها جور الزمان وانخفاض مداخيلها المالية على الإنزواء في الريف حيث اختلطت بالأستقراطية المحلية وأمنت لها أصولها الأمبراطورية هيمنة سهلة على هذه الأرستقراطية المذكورة.

وقد تغلبت التايرا على الميناموتو بعد حربين قصيرتين في عام ١١٥٦ وفي شتاء ١١٥٩-١١٦٠. وفهم الرئيس العسكري المنتصر تايرا كيوموري أنه يتصرف بأقوى قوة مسلحة في البلاد وأنه يضع الإمبراطورية تحت رحمته. وأمام ذهول أفراد الحاشية قدم ليقيم مع رجاله المخلصين في كيوتو ليجعل البلاط تحت وصايته واتخذ عندئذ لقب المستشار الأكبر وتبنى سياسة المصاهرة المألوفة عند الفوجيوارا فزوج ابنته من الإمبراطور ليكون له حفيد على العرش.

باستقرار كيومو زي ورجال ثقته في كيوتو تحولوا إلى حاشية وما لبثوا أن رأوا أتباعهم يفلتون منهم شيئا فشيئا، فهؤلاء الآخرون الذين بقوا في ممتلكاتهم الريفية صار احتمالهم يقل أكثر فأكثر لسلطة الأسياد الذين جعلتهم حياتهم في البلاط مجهولين منهم. وفي الوقت ذاته أنشأ وكلاء الأعمال في الممتلكات الواقعة في شرقي الأرخبيل عائلة جديدة استقطبها ميناموتو يوريتومو. وكان هذا الأخير من نسل عائلة ميناموتو فتحدى سلطة التايرا. وفي خلال حرب حامية الوطيس دامت بين عامي ١١٨٠ - ١١٨٥ تمكن من طرد التايرا من العاصمة ودفعهم إلى البحر الداخلي ليسحقهم في النهاية في معركة

بحرية شهيرة، واغتيل رؤساء التايرا الرئيسيون أو انتحروا وهلك الإمبراطور حفيد كيوموري مع أقربائه.

سلطة جديدة : شوغونية كاماكورا:

أفاد ميناموتو يوريتومو من أخطاء التايرا فأدار ظهره لبلاط كيوتو واستقر في كاماكورا التي هي مدينة ساحلية صغيرة في الكانتو تقع بالقرب من ممتلكات عائلته. واتباعا لطريقة يابانية أصيلة ترك للأباطرة والفوجيوارا مظاهر السلطة. أما الرجال الذين أحسنوا خدمته فإنه لم يعهد لهم بأية وظائف حكومية بل أوكل إليهم إدارة الممتلكات التي صادرها من التايرا. وفي عام ١١٩٢ اتخذ لنفسه لقب شوغون SHOGUN أي القائد الأعظم. وبذلك ترك عن طيب خاطر بقاء سلطة وهمية بيد الإمبراطور والحكومة المدنية بينما يستطيع هو أن يتصرف على هواه بالقوات المسلحة تاركا قيام انطباع بأنه إنما تلقى من الإمبراطور مجرد تفويض بالسلطة العسكرية. والحقيقة أن كاماكورا غدت العاصمة السياسية الحقيقية وضمت بين جوانبها أول حكومة عسكرية في البلاد، كان اليابانيون يطلقون عليها أحد الاصطلاحين التاليين : الشوغونا أو الباكوفو.

ولم يكن لشوغونيةكاماكورا أية صفة من صفات حكومة قومية. فهي لم تكن تهدف إلا لتجنيد بعض عصابات من الفرسان طالما أعلنوا ولاءهم الشخصي لعائلة ميناموتو. وبما أنها مجرد حكومة عائلية فإنها كتلت في تجميع رخو عائلات مختلفة تربطها تضامنات قديمة إما بسبب من صداقة أو بسبب من روابط الدم.

ثلاثة أجهزة حكومية جديدة تشكلت تحت سلطة الشوغون المباشرة : هيأة أركان حرب عامة مكلفة بالمصالح العسكرية لأفراد العائلة ومكتب للشؤون الإدارية ومحكمة عليا للقضاء. وهذه الأخيرة تطبق القانون اعتمادا على مجموعة من العادات التي ظهرت على التوالي أثناء القرنين السابقين. أما الإدارة الريفية فقد ارتدت إلى أبسط تعبير لها إذ هي بيد الفرسان أنفسهم الذين كانوا – باعتبارهم (حكاما أميريين) أو جيتو JITO-يديرون ممتلكاتهم بحرية بينما (الحماة العسكريون) أو الشوغو SHOGO يسهرون في كل مقاطعة على تنظيم الدفاع.

واستقر النظام بغرابة على يد ميناموتو الذي وجب عليه في البداية أن يهتم فقط بقضايا أفراد العائلة الخاصة ومن بعدها تمكن من سياسة كل طبقات المجتمع وأصبحت الأمة

كلها تحت رقابته لسبب واحد هو أن مديري الممتلكات كانوا خاضعين له. وهؤلاء في الواقع يحتلون مركزا أساسيا في المجتمع لأن سطوتهم كانت تمارس في الوقت نفسه على أقنان ممتلكاتهم وعلى أرستقراطية البلاد التي يسيطرون على مداخيلها. وغدا نظام كاماكورا – تحت واجهة أنه تنظيم خاص – أكثر الأنظمة التي عرفتها الحكومات اليابانية مركزية قبل ذلك التاريخ. ولم يتأخر اليابانيون عن أن يفهموا أن كاماكورا هي المركز العصبي للسلطة واعتادوا بالطبع على تقديم ملتمساتهم إلى الباكوفو بدلا من البلاط الإمبراطوري.

في عام ١٢٢١ لم يقبل أحد الأباطرة بأن يطرد من عرشه وتجرأ على الثورة على سلطة كاماكورا الفعلية فقام انصار ميناموتو وتغلبوا فورا على سفهه ووقاحته، ويعتبر هذا الحادث معبرا أحسن تعبير عن حالة العجز التي سقطت فيها الحكومة الإمبراطورية.

أما الإمبراطور الذي استمر على جباية مداخيل ممتلكاته الشخصية فقد كان في الواقع مجردا من كل سلطة ولكنه كان يترك أثرا – في هذا الوضع السياسي الجديد – بأنه استمرار للماضي، ومع ذلك فإن مبدأ الوراثة كان يحفظ له كل هيبته إذ بقي الأباطرة مصدرا لا نزاع فيه لكل شرعية سياسية ولم يدعي شوغونات كاماكورا أية سلطة إلا السلطة العسكرية التي يتصنعون الحصول عليها من الإمبراطور. وطالما بقيت المؤسسة الإمبراطورية مصدرا أعلى للشرعية وبقيت سلطة دينية عليا فإنها ستستمر واجهة مزوقة للنظام قبل أن تعود إليها كامل سلطاتها في منتصف القرن التاسع عشر.

كانت حكومة كاماكورا تعتمد بكاملها على شخصية الشوغون الذي يمثل من الناحية النظرية على الأقل مبدأ التماسك الوحيد للنظام طالما حصل على الولاء الشخصي الذي أقسم عليه بين يديه أفراد عائلته. ورغم أن دور الشوغون سينحط بعد قليل إلا أن النظام بقي حيا كاشفا عن قدرته المدهشة على التكيف. كان يوريتوما أول الشوغونات ذا طبع غيور فتخلص من أخيه الأصغر الذي يعود إليه الفضل الأول في هزيمة التايرا وأعد نفسه لإزاحة بقية أفراد عائلته. وبعد موته في عام ١١٩٩ أدت الخصومات بين سلالته – التي كانت توريها عائلة زوجته آل هوجو الذين هم من التايرا – إلى القضاء على ورثته. وفي عام ١٢١٩ قضت حادثة اغتيال على سلالة ميناموتو فاستولى الهوجو عند ذلك على السلطة مكتفين –حسب تقليد ياباني أصيل – بلقب (وصي) وساسوا البلاد عن طريق

شوغونات دمى كانوا ينتقون من الفوجيوارا في بادئ الأمر ثم بعد ذلك من العائلة الإمبراطورية.

وبعد كثير من التقلبات بدت الحياة السياسية اليابانية في القرن الثالث عشر لعبة عجيبة من شخصيات صوريين ليس لهم دور عملي : فالإمبراطور كان يجد نفسه تابعا لإمبراطور سابق مستقيل وتابعا للفوجيوارا الذين يشرفون خفية على حكومة ألعوبة يحركها من الخارج شوغون شوغون لم يكن هو نفسه إلا إلعوبة بين يدي الوصي من الهوجو .. ! فسير الأعمال كان يبدو مرتبطا بسلسلة من الإزدواجيات بحيث أن أية واحدة منها لم تكن تمتلك سلطة حقيقية. والمراقب النافذ البصر يمكنه أن يشبه السياسة اليابانية بلعبة الستائر أو بلعبة يدمج فيها عدد لا يحصى من الشخصيات في مسرح العرائس.

مجتمع إقطاعي وأدب فروسية:

إن الانتصارات المتتالية التي حققها التابرا والميناموتو دشنت حكم كبار الإقطاعيين الذي سيستمر ثمانية قرون. وفي خلال هذه الحقبة الطويلة عرفت المؤسسات السياسية والبنى الاجتماعية والأنظمة الهامة التطور نفسه الذي عرفته أوروبا الغربية. ففي اليابان كما في أوروبا ولد نظام الإقطاع من تضافر ثلاثة عناصر هي المبادئ القديمة للمركزية الإمبراطورية والتقاليد القديمة البدائية لتنظيم نصف قبلي وشبكات الولاءات الشخصية. ففي اوروبا كان المكونان الرئيسيان لهذا المزيج هما المركزية الرومانية والتنظيم القبلي الجرماني. أما في اليابان فكان أولا المؤسسات المستعارة من صين أسرة تانغ والتنظيم الاجتماعي البدائي المبني على اليوجي uji . والتاريخ المقارن يظهر أن لقاء هذين العنصرين لم يوجد في أي مكان آخر من العالم.

وتتميز التجربة الإقطاعية اليابانية مع ذلك عن تجربة البلاد الأوروبية في نقطتين، أولاهما أن المؤسسات الإقطاعية يبدو أنها تطورت في اليابان بأبطأ مما تطورت في الغرب ولا شك أن ذلك كان نتيجة لسياسة الحجز التي وضعت الأرخبيل مدة طويلة في منأى عن الضغوط الخارجية.

ومن جهة أخرى فإن نظام كاماكورا لم يكن إقطاعيا محضا لأنه سمح ببقاء المؤسسة الإمبراطورية وعهد لأسياد البلاط بالامتلاك الاسمي للممتلكات الريفية، ولم يحدث إلا في نهاية القرن الخامس عشر أن اقتربت المؤسسات السياسية ونظام الأراضي في اليابان

بشكل حاسم من النظام الإقطاعي كما هو موجود في أوروبا منذ القرن الثاني عشر. فالإقطاع الياباني بمعنى الكلمة الدقيق كانت مدته قصيرة في اليابان كما هو شأنها في أوروبا ولكن اليابان وجب عليها أن تحتفظ ببنية شبه إقطاعية حتى منتصف القرن التاسع عشر بعد أن تخلت عن ذلك بمدة طويلة المجتمعات الأكثر تطورا في أوروبا الغربية.

والاختلاف الثاني يقوم على وضعية الأفراد. فالإقطاع الأوروبي تحت نفوذ القانون الروماني كان يفضل العلاقات التعاقدية بين أفراد مرتبطين بواجبات متبادلة والتزامات شخصية بينما لم يكن شيء من ذلك في الإقطاع الياباني الذي يؤكد بخاصة على أفضلية القيم الأخلاقية. وكان الصينيون قد أكدوا أن فكرة الأخلاق ينبغي أن تتغلب على القانون وبخاصة في مادة السياسة. ففي نظرهم أن الحكم الصالح هو مسألة ضمير شخصي والاستقامة الأخلاقية بدت لهم أفضل ضمانة من التطبيق الدقيق والمنهجي للقانون. يضاف إلى ذلك أن الحقوق المكتسبة بالتقادم في اليابان والتي يفرضها الوضع الفردي فهمت على أنها واجب أخلاقي، لا إلتزام قضائي وتفرض منذئذ على أنها مطلقات. ولكن منذ اللحظة التي انتصبت فيها السلطة والاستقامة على أنهما قيم سامية فإن أفكار فصل السلطات وأفكار الحقوق التي لا يمكن التصرف بها وأفكار المجالس التمثيلية التي ظهرت في الغرب عند انحطاط الإقطاع كان حظها ضئيلا في أن تجد لها صدى في اليابان.

وبفضل دوامها نفسه كان لابد للحقبة الإقطاعية من أن تترك في اليابان بصمتها الدائمة حتى يومنا هذا. وتبدي نفوذها في التقاليد العسكرية المتينة التي سنراها تزدهر مرة اخرى في نهاية القرن التاسع عشر والثلاثينات من هذا القرن. فقبل الحرب العالمية الثانية كانت غالبية اليابانيين تعترف للعسكريين بكمال ونزاهة أعلى مما لدى المدنيين وتفضل أن ترى الضباط يرتقون إلى السلطة السياسية. والنظام الأبوي الذي مازال حتى اليوم يؤثر في العلاقات الاجتماعية يبدو كأنما هو أثر موروث من عصر الإقطاع.

في القرن الثاني عشر ترافق توطيد الأرستقراطية الريفية بتحول ثقافي بمقدار ما هو سياسي. فقد كان الأدب والفن في القرنين السابقين تعبيرا عن حياة سياسية محددة تحديدا ضيقا بالبلاط. وابتداء من القرن الثاني عشر عرفت الحركة الثقافية دون أن تتخلى عن الانتهال من منتجات هذا العصر اللامع تجديدا عميقا مرتبطا بصعود الطبقة المحاربة، فالفارس الإقطاعي يمتلك مصطلحاته الخاصة عن القيم والمواقف. فالتماس المتع الناعمة

لدى رجال الحاشية في كيوتو كان يقابلها مثالية في حياة المحارب قائمة على الإنضباط الشخصي وتمجيد الفضائل الإسبرطية والتقشف الجسدي والعقلي. وهو يكرس لسيفه عبادة حقيقية استمر عليها ضباط الحرب العالمية الثانية لدرجة انهم كانوا يتقلدون حتى في غابات آسيا الجنوبية الشرقية سيوفا طويلة وصلت إليهم من أسلافهم. والولاء الشخصي والروابط العائلية المقدسة هي بالنسبة للإقطاعي الياباني أمور لا يمكن خرقها. وقد أعار المزاج القومي الياباني لهذه المثالية الفروسية اثنتين من فضائله الرئيسية: احتقار الألم الجسدي والموت، والإخلاص الثابت للإرتباطات المكتوبة. وقد عكس الأدب هذه العقلية الجديدة، فاتجه الذوق الأدبي منذئذ نحو القصص الحربيةالمزدانة بالأعمال البطولية مما يتعارض مع المذكرات الشخصية وروايات سيدات البلاط. هذه القصص الفروسية مثل HEIKI MONOGATARI أو (تاريخ بيت تايرا) كان موضوعها بوجه عام يدور حول الخصومة بين التايرا والميناموتو. كما ساهم الذوق الملحمي في انتشار فن الرسم على اللفافات بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر. وهذه اللفافات المرسومة كانت تسجل بحس حركي ملحوظ ودقة مدهشة في الملاحظة معارك العصر الكبرى وحياة القديسين البوذيين أو تاريخ الأديرة الكبيرة. ونجد فيها كذالك صورا كاريكاتورية شعرية عن حيوانات ينسبونها بوجه عام للراهب البوذي توباسوجو. وتمثل أجمل هذه اللفائف المرسومة (حريق قصر سانجو) الذي حدث أثناء حملة الشتاء ١١٥٩ - ١١٦٠ وهي محفوظة اليوم في متحف الفنون الجميلة في بوسطن. وقد تميز القرن الثالث عشر أخيرا بنهضة لامعة للنحت البوذي الذي يعادل في نوعيته أفضل ما انتجه القرنان السابع والثامن.

يبننة البوذية : الفرق الدينية:

عرفت الكنيسة البوذية في ذلك العصر تبدلا سيعطيها الوجه الذي ستحافظ عليه حتى أيامنا هذه. فقد ظهرت اتجاهات جديدة في قلب البوذية كلما كانت الثقافة والمعرفة تنتشران خارج دائرة البلاط الضيقة. فالأرستقراطية الريفية وسكان المدن والفلاحون أكدوا أنفسهم قوى اجتماعية جديدة وغلبوا مفاهيمهم الدينية. يضاف إلى ذلك أن هذه البوذية الجديدة كانت مرتبطة ارتباطا حميما بإعادة المبادلات التجارية مع القارة حيث أن الكثير من الأديرة جهزت قوافل إلى الصين وكانت العائدات الناجمة من هذه الرحلات

تستخدم في إشادة أبنية جديدة. وهكذا أمكن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بناء العديد من المعابد من بينها الدايبوستو DAIBUSTU أو (بوذا الكبير) في كاماكورا الذي يعود تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الثالث عشر والذي يعتبر أثقل تمثال من البرونز موجود في العالم.

والبوذية في الأصل فلسفة عقلانية إلى أبعد الحدود تجتذب احتفالاتها البازخة الملونة الطبقة العالية من المجتمع بوجه خاص. وانطلاقا من عصر تانغ اشتد الاهتمام برؤية للعالم محببة أكثر من ذي قبل جعلت البوذية سهلة القبول من الشعب. وكانت البوذية كما ظهرت في الهند تصر على فساد الإنسان وعبثية الحياة وكل أمل في رفعة الأخلاق يؤجل إلى العالم الآخر. فعندما يتخلص الفرد من الحياة فإنه يسعى لأن يطفئ فيه كل رغبة لكي ينقذ نفسه من دائرة التقمصات المتتالية التي ليس لها نهاية. وبحسب الحياة التي كان قد عاشها في الحياة الدنيا يستطيع أن يأمل في أن يتقمص في كائنات أعلى أو أقل تطورا. والإنسان الذي توصل إلى التخلص من الرغبة وتجرد من العالم المادي يصل إلى النيرفانا NIRVANA التي هي حالة التفوق على الذات وفيها يرى الكائن ذاته مندمجا في الكون.

هذه الرؤية المتطيرة للعالم لم تكن تلائم شعوب آسيا الجنوبية الشرقية المختلفة التي كانت مقتنعة بوجه عام بكمال المؤسسات الإنسانية سواء في مجال العائلة أو المجالين الاجتماعي والسياسي. ولم يأخذ الصينيون من البوذية إلا إحتفالاتها الرفيعة الملونة والأعمال الأدبية النافذة والإبداعات الفنية الدقيقة ومبدأ الدعوة الكونية وصفاء الحياة الديرية بينما تركوا فلسفتها الأصلية. ولكن البوذية بدلا من قيمها الأساسية التي أصابها التبديل لم تتأخر عن اكتساب جماهير الشعب من الصينيين واليابانيين على السواء.

والمشهد الأكثر إدهاشا في هذا التجديد هو التغيير الذي لحق في مفهوم النيرفانا نفسها. فقد أصبحت بالنسبة للناس البسطاء جنة يجد فيها الصالحون سعادة دائمة بينما كانت جهنم لا تختلف عما وصفها به دانت، تستخدم منفى للخاطئين الهالكين. وأخذ دعاة شعبيون شهدوا أن ضلال عصرهم لابد من أن يودي بكل مجهود للتطهير وكل سعي (للإشراق الداخلي) يبشرون بسلام مبني على تدخل عدد لا يحصى من الآلهة وأنصاف الآلهة من البانثيون البوذي. ومنذ ذلك الوقت اصبح السلام الشخصي يكمن في الإيمان وفي الابتهال البوذي وكف عن أن يبحث عنه في التقشف الميتافيزيكي أو في اتباع سلوك مثالي.

وقد توضحت هذه الاتجاهات في القرنين العاشر والحادي عشر بظهور مذاهب جديدة. وقبل هذا التاريخ كان النشاط الأساسي للفرق البوذية يقوم على مناقشات متعمقة لاهوتية وميتافيزيكية. والشيعتان الرئيسيتان اللتان ولدتا في حقبة إنشاء كيوتو كان يروق لهما ممارسة مدرسية شكلية بالية. أولآهما تطلق على نفسها اسم شينغون SHINGON أي شيعة الكلمة الحق، بينما تطلق الثانية على نفسها اسم تنداي TENDAI الذي أخذته عن اسم المكان البوذي العالي الموجود على جبل تيان تاي في الصين وتتخذ مقرا لها في جبل هياي HIAI الذي يشرف على كيوتو. وكلتا الشيعتين الشينغون والتنداي تتميزان بالميل إلى التجسدات السحرية والاحتفالات الفخمة وتمثيل اللاهوت البوذي في أشكال مصورة. وإذا بدا أرستقراطيو البلاط ميالين إلى شعائر هاتين الشيعتين فإن الطبقات الشعبية والريفية على العكس من ذلك قليلة الاهتمام.

كانت التنداي بفلسفتها الكونية الشاملة التي تدرج الإيمان الشعبي في السلامة عن طريق المعتقد أصلا لكل الفرق الجديدة. وأولى هذه الفرق تأسست عام ١١٧٥ على يد الراهب هونين واتخذت اسم فرقة الأرض الطاهرة أو جودوشو JODOSHU التي يمكن ترجمتها ترجمة تقريبية (بفرقة الفردوس). ومثل كثير من حركات الإصلاح الديني ما لبثت هذه الفرقة أن توسعت توسعا انفجاريا كبيرا. وفي عام ١٢٢٤ أنشأ شيزان أحد تلاميذ هونين الفرقة الحقيقية للأرض الطاهرة (شينشو SHINSHU) التي ما لبثت شعبيتها أن كسفت شعبية كل منافساتها، وبما انها دأبت على إرسال بعثات نشيطة إلى الخارج كان لابد أن تبقى حتى يومنا هذا أقوى كنيسة بوذية في اليابان. هاتان الفرقتان هما أول تعبير وطني عن شعور الطبقات الشعبية الديني، وقد اكتسبتا قيادة العقول الأكثر فظاظة بفضل دعاتهما الشعبيين الذين كانوا يتكلمون بلغة بسيطة ويبشرون بسلام مفهوم من الجميع.

ثم ما لبث شيزان أن أبدى معارضته للنظم الديرية القديمة المتحيزة للأرستقراطية المثقفة، فمنع إشادة اديرة جديدة وبشر (بالمساواة بين الجميع في أحضان البوذية). وبما أنه كان مهتما بالتقرب من رجال الدين الشعبيين ومن الحياة اليومية فإنه سمح للكهنة بالزواج وما لبثت هذه العادة أن شملت شيئا فشيئا كل رجال الدين في اليابان. ثم أخذ أحد خلفاء شيزان على عاتقه عملا صعبا هو ترجمة النصوص البوذية المكتوبة بالصينية التقليدية إلى اللغة اليابانية كما أنشأ فرق نقاش لم تلبث أن ازدهرت وشكلت جمعيات علمانية.

هذه الرابطات من المؤمنين غدت بالنسبة للطبقات الشعبية في عصر الإقطاع وسيلة ممتازة للتشكل الثقافي. وقد تحول بعضها إلى فرق ضغط حقيقية، وهكذا لم تتردد الجمعيات العلمانية المنبثقة عن (الفرقة الحقيقية للأرض الطاهرة) في عام ١٤٨٨ من ذبح أسياد مقاطعتين على الساحل الغربي حيث كانت تتمنى أن تتولى الإدارة بنفسها. وفي القرن السادس عشر كان معبد الفرقة الكبير الحصين المبني في مدينة أوزاكا التجارية قادراً على تحمل الحصار الذي فرضه عليه خلال عشرة اعوام أعلى إقطاعيي اليابان.

في عام ١٢٥٣ ظهرت فرقة شعبية ثالثة اسمها نيشيرين NICHIREN على اسم الراهب الذي أنشأها. وهي تمتاز بتعصبها الديني الذي ورثه مريدوها عن مؤسسها المتحمس كما تمتاز بلجوئها المنهجي إلى الدعاة المتنقلين. وبما أن نيشيرين كان ينبذ فكر البوذية المسالم المسامح في العادة فقد بدا خصماً مرهوب الجانب. كان ذا طابع متعصب مشاكس فاتهم كل الحركات الأخرى بأنها تقود الناس إلى الهلاك الأبدي. وبما أن كنيسته كنيسة نضال حقيقي فإنها خاضت حرباً صليبية أكثر من مرة مع خصومها. وكان أفضل من يجسد الغليان الإقطاعي فأبدى وطنية متشددة كرد فعل على مسالمة البوذية الرسمية. وبما أنه يعتبر بلاده الأرض التي باركتها الآلهة وأنها مركز الكون فقد اراد أن يجعل من اليابان وطن البوذية الصادقة الوحيدة. وإنه لشيء معبر أن أكثر الحركات الدينية حدة وانتشاراً في اليابان الحالية هي السوكا غاكاي SOKA GAKKAI التي تنتسب انتساباً كاملاً لتقاليد اللاهوت النيشيريني.

ولا يمكن للمرء إلا أن يكون مندهشاً من المشابهات العديدة التي قربت بوذية العصور الوسطى اليابانية من المسيحية الأوروبية منذ مطالع العصر الحديث. وربما امتلكت البوذية اليابانية من القرابة والانتساب للمسيحية أكثر من انتسابها للبوذية الأصلية. وبعد أن تخلت شيئاً فشيئاً عن فكرة الخلاص الشخصي الذي يكتسبه المرء بعد جهود مريرة في حيوات عديدة فإنها توصلت إلى الخلود الفردي في جنة يمكن الحصول عليها عن طريق الإيمان وبنعمة من الله. والمصلحون الدينيون في يابان الإقطاع لهم كثير من السمات المشتركة مع أضرابهم الأوروبيين الذين ظهروا في القرن السادس عشر. ومن جملة المشابهات وضوحاً ترجمة الكتابات إلى اللغة العامية وإنشاء الرابطات العلمانية وزواج الكهنة والتعصب المكافح والوطنية الكامنة.

وبينما كانت الطبقات الشعبية تجد وسائل جديدة للتعبير الروحاني فإن الفرسان سيبحثون عن جواب لتطلعاتهم الفلسفية في شيعة أخرى هي الزين ZEN . هذا الفرع الجديد من البوذية الذي يعني حرفيا (التأمل) دخل إلى الأرخبيل في نهاية القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر على يد رهبان يابانيين عادوا من رحلات دراستهم من الصين. وقد استمدت الزين عناصرها من تقليد هندي صيني مزدوج فهي تبدو كردة فعل من التاوية الصوفية على البوذية المنحرفة.

والزين هي قبل كل شيء فلسفة لاعقلانية ولا مدرسية وأشياعها يسعون لأن يكونوا في حالة من الإنسجام والتناغم مع الكون من أجل أن يصلوا إلى إدراك مباشر لوحدة العالم. وهم يفضلون بدلا عن الحكمة المغروفة من الكتب أو من المحاكمة المنطقية تأملا ناجما عن تأديب مطلق للجسد وتركيز عقلي مستمر. وفي خلال عملية التعليم يطرح المعلم على المريدين سؤالا بسيطا ولكنه فظ فيسألهم مثلا: (من أية طبيعة هي الضجة الناجمة عن يد تصفق وحدها؟) .

وعندئذ على التلميذ أن يتأمل في هذه المشكلة خلال العديد من الأيام، وكل إجابة تحاول أن تصف طبيعة الصوت أو تشرح الأسباب لغياب الصوت كان المعلم يرفضها بشكل فظ. فالتأمل الذي يباشره التلميذ انطلاقا من هذه المشكلة يجب أن ينطلق من إشراق داخلي للتلميذ الذي يكتشف فجأة الطبيعة الحقيقية لبوذا ولوحدة العالم.

إن رفض كل مدرسية، وترويض العقل، والتقشف الجسدي المفروضة كلها على أتباع زين كانت تجبرهم على ممارسة حياة قريبة من الطبيعة، وهذه الطبيعة لم تكن إلا لتفتن الفرسان المشبعين بالمثالية الأسبرطية. فالزين حملت لطبقة المحاربين فلسفة ونظاما للحياة، وفي مقابل ذلك فإن قبول الأسياد بها أكد هيبة التيار الجديد ومنحه المزيد من النفوذ. وحملت الزين إلى الفرسان زيادة في الجلد وزيادة في قوة مناقبهم المعروفة عنهم في يابان الإقطاع. ولا شك في أن عقلية الطاعة وعدم الإحساس الظاهري بالمحن اللذين بقيا وقفا على العديد من اليابانيين إنما استمدا أصلهما من تقنيات زين في إطلاق العقل.

❋ ❋ ❋

الوحدة القومية الواعدة

مع مضي السنين سينال نظام كاماكورا تغييرات عميقة فطالما تمكن الفرسان من تشكيل زمرة صغيرة متجانسة تشدها شبكة من الروابط الشخصية أمكن للنظام أن يحتفظ بسيمائه الأصلية. ولكن ذكرى الولاءات المعقودة خلال الحملات العسكرية ما لبثت أن تلاشت بعد بضعة أجيال وانتهى بها الأمر أن هجرت ذاكرة من بقي على قيد الحياة. وبما أن أحفاد فرسان كانتو الذين سيطروا على البلاد منذ عام ١١٨٥ غدوا معزولين داخل ممتلكاتهم وموزعين فوق كل مساحة الأرخبيل فإنهم لم يعودوا يملكون الشعور بضرورة تشكيل عصبة متماسكة وتخلوا عن واجب التبعية الشخصية لسلطات كاماكورا. يضاف إلى ذلك أن تزايد عدد أعضاء العصبة سيكون من شأنه الإسراع بتفككها. ففي كل جيل كانت العائلة تغتني بعناصر جديدة دون أن يتمكن عدد سادة الإقطاعات من أن يتزايد على الوتيرة نفسها فوجب على الفرسان إذن أن يقسموا بين أولادهم واردات إقطاعهم. ونضبت مواردهم بسرعة. وفي نهاية القرن الثالث عشر عانى الكثيرون منهم من صعوبات كبيرة في أن يحافظوا على مركزهم وأن يتحملوا نفقات تجهيز كامل من مطية وأسلحة ودروع.

تهديد خارجي : غزوات المغول:

على الرغم من عناصر الهشاشة تلك فإن نظام كاماكورا استمر قرنا ونصف قرن أيضا. وفي خلال هذه السنوات قاوم حتى أخطر تهديد لغزو أجنبي عرفته اليابان حتى ذلك الوقت، وهو محاولات الغزو المغولي التي حدثت ما بين عامي ١٢٤٧ - ١٢٨١ . وكان المغول خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر - وهم شعب بدوي من سهوب الصين الشمالية - قد غزوا آسياالوسطى وروسيا الجنوبية وقسما كبيرا من الشرق الأدنى

بينما بلغت جيوشهم سيليزيا وهنغاريا حتى بحر الأدرتيك. وفي الشرق من إمبراطوريتهم الواسعة أخضعوا كوريا إخضاعا تاما في عام ١٢٥٩ وسحقوا آخر مقاومة للصين في عام ١٢٧٦ وبقيت اليابان البلد الشرقي الوحيد خارج نطاق وصايتهم. وأراد الإمبراطور قوبلاي خان أن يدفع بحدود ممتلكاته إلى أبعد من ذلك فأرسل إلى اليابان بمبعوثين يطالبون بتسليم الأرخبيل. وكان أمراء البلاط الذين هزهم الرعب مستعدين للخضوع لولا أن محاربي كاماكورا قابلوهم برفض حازم، ومن أجل أن يظهروا حزمهم بشكل أوضح قطعوا رؤوس بعض من أوفدهم قوبلاي خان.

وبما أن هذه الإهانة لم يكن بالإمكان أن تبقى بدون عقاب فإن جيشا مغوليا قويا أبحر عام ١٢٧٤ على سفن كورية بغية إخضاع اليابان. وقد استولى على بعض الجزر الصغيرة وقام بإنزال في خليج هاكاتا بالقرب من مدينة فوكو أو كا الحالية في الشمال من جزيرة كيوشيو. ولكن قبل أن يحدث أي اشتباك حاسم تدخل طقس الشتاء ليجبر المغول على الارتداد نحو القارة. وبما أن عودتهم كانت متوقعة فإن حكومة كاماكورا حشدت كل فرسان اليابان الغربية ليشيدوا حول خليج هاكاتا سورا غايته صد خيالة المغول ذوي السمعة المشؤومة في حالة إنزال جديدة.

وعاد المغول في عام ١٢٨١ تحملهم أرمادا قوية مؤلفة من سفن صينية وكورية فنزل في خليج هاكاتا مائة وخمسون ألفا من الرجال يشكلون اكبر حملة اشتركت قبل ذلك في عملية بحرية. وكان المغول معتادين على إحراز النصر بحملات من الخيالة على مساحات واسعة ونعموا بفضل مدفعيتهم بتفوق تقني واضح. وأمام مثل هذا الحشد من القوات لم يتمكن اليابانيون أن يضعوا إلا قبضة من الفرسان المتمرسين بالمعارك الإفرادية. ولكن المغول ضاقوا مع ذلك ذرعا أثناء تقدمهم بالسور وبمناوشات المراكب اليابانية الصغيرة التي كانت تناور بسرعة فائقة في أقنية الخليج. وقبل أن يتمكنوا من نشر كامل قواتهم هب إعصار دمر أسطولهم وأحال الحملة إلى فشل وإخفاق كاملين. وحيا اليابانيون هذا الاعصار على أنه تجل من العناية الإلهية جاء ليحرر (الأرخبيل) من الغازي الغريب. وساهمت هذه الحالة التي احتلت مكانة مميزة في نتاج المؤرخين اليابانيين مساهمة واسعة في إقناع اليابانيين بميزة وطنهم المقدس والمنيع على الأعداء.

تهديد داخلي : ثورة غو – ديغو:

خرجت الطبقة العسكرية غير راضية من التجربة وذات مزاج مهتاج. فأثناء الأشهر والسنوات التي انقضت عليهم خارج ممتلكاتهم لتنظيم الدفاع عن البلاد افتقر الكثير من الأسياد وشكوا حظهم من أن النصر لم يترك لهم أية غنيمة يقتسمونها فيما بينهم ونسوا تماما ولاءهم المثالي القديم الذي كان مزعزعا على كل حال من قبل. ومع ذلك فإن نظام كاماكورا تأكد من قوته بما فيه الكفاية ليبقى نصف قرن آخر من الزمان.

ومن المثير للفضول أن الذي وجه الضربة النهائية لهذا النظام هو إمبراطور عرف بعد وفاته باسم غو–ديغو أو ديغو الثاني. وكان هذا الإمبراطور قد تغذى بأفكار خاطئة من الناحية التاريخية فحلم أن يجدد قوة الإمبراطورية بأن أثار على العاصمة وعلى الممتلكات الديرية جيشا من الفرسان المتذمرين. وفي عام ١٣٣١ حرض على ثورة ضد كاماكورا كان بإمكانها أن تبقى بدون نتيجة لولا أن مجموع النظام أصابه الإنهاك بالعديد من قوى التفكك. وقد وقف عسكريو الغرب إلى جانب القضية الإمبراطورية كما أن القائد الذي عين لسحق التمرد – أشيكاغا تاكاوجي – انضم إلى المتمردين في عام ١٣٣٣ . وثارت قوة ثانية في منطقة الكانتو ولكن القائد الذي كلف بالقضاء عليها لم يكلف نفسه مشقة المسير إلى كاماكورا وقام بمذبحة في عائلة هوجو حاملا بذلك حلا مأساويا لقرن ونصف من المركزية السياسية.

أما غو–ديغو الذي ظن بسذاجة أنه استعاد الصلاحيات التي كان الإمبراطور يعتز بها قبل خمسة أو ستة قرون فقد وجب عليه أن يتراجع عن هذه الأوهام. وأما أشيكاغا تاكاوجي الذي كان أكثر واقعية وأحسن اطلاعا على حقيقة العلاقة بين القوى السياسية فإنه تخلى عن الإمبراطور وطرده من كيوتو عام ١٣٣٦ ليضع على العرش واحدا من فرع جانبي من فروع العائلة الإمبراطورية ووجب على غو–ديغو أن يلجأ مع أنصاره إلى الحصون القائمة في الجبال القريبة من نارا حيث أقام بلاطا مناوئا في مدينة يوشينو ومنها سيتابع معركته ضد عائلة أشيكاغا تاكاوجي خلال ما يقرب من الستين عاما. وفي عام ١٣٩٢ رضي أحفاده أخيرا بوضع حد لمقاومتهم وأن يعودوا إلى كيوتو مقابل وعد بأنهم سيتناوبون العرش مع عائلة أشيكاغا ولكن هؤلاء كانوا خبراء في فن الخيانة فلم يتمسكوا بمثل هذا الوعد ولم يصل أي فرد من عائلة غو–ديغو إلى العرش ولم تلبث

سلالتهم أن طواها النسيان.

وهكذا فشل غو-ديغو فشلا تاما في محاولته لترميم السلطة الإمبراطورية. أما أشيكاغا تاكاوجي فلم يكن اوفر منه حظا في النجاح من أجل فرض سلطة كاماكورا على مجموع البلاد. وفي عام ١٣٣٨ حمل لقب شوغون SHOGUN الذي سيحافظ عليه أحفاده حتى عام ١٥٧٣. ومع ذلك فإن شوغونية أشيكاغا لم تملك قط تلك السلطة التي تمتعت بها كاماكورا. وعندما تمكن الشوغون الثالث أشيكاغا يوشيميتسو من أن يتفق مع أحفاد غو-ديغو على استسلامهم عام ١٣٩٢ عرفت البلاد فترة قصيرة من السلام العام، ولكن سلطة الأشيكاغا ما لبثت بعد ذلك بقليل أن تفككت، ومنذ عام ١٤٦٧ تفشت حروب أهلية بشكل وبائي في جميع انحاء البلاد. وفي خلال النصف الثاني من شوغونيتهم - وهو ما يدعوه المؤرخون بعصر موروماشي نسبة إلى حي في كيوتو يقيم فيه الشوغون - أضاع الأشيكاغا (كما فعل قبلهم الأباطرة والفوجيوارا) كل سلطة فعالة على البلاد ولم يعودوا يحتفظون إلا بنفوذ رمزي مبهم الحدود.

تنضيد اجتماعي جديد : الدايميو:

القرنان الرابع عشر والخامس عشر هما حقبة غموض سياسي وتفكك مستمر للسلطة المركزية، وقد نجمت هذه الفوضى عن زيادة عدد الفرسان التي جعلت من المستحيل المحافظة على روابط الولاء الشخصي. فتعزيز الوحدة القومية يتطلب ظهور بنى سياسية جديدة وهو أمر سيكون بطيئا بالضرورة حيث كانت أولى مراحله خلق وحدات إقطاعية مستقلة عن عصبة كاماكورا الأصيلة، وهكذا أصبحنا نرى بعض (الحماة العسكريين) SHUGO ، وأرستقراطيين ريفيين مرتبطين بأتباع محليين أصبحوا سادة أقوياء في حكم مقاطعاتهم. وقد أظهرت الحروب في السنوات الأخيرة من نظام كاماكورا أن سطوته على باقي الطبقة المحاربة كانت أقوى من سطوة الهوجو والشوغون.

لم ينقطع نفوذ هؤلاء الأسياد المحليين عن تقوية نفسه خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولم يكونوا في الأصل يحصلون على سلطتهم إلا بموافقة إجماعية أو بتعيين من نظرائهم فكان وضعهم وضع (متقدم بين أقراب). ثم ما لبثوا شيئا فشيئا أن غدوا حكاما محليين حقيقيين يتمتعون بالسيطرة على مناطق بكاملها ويتطلبون من الفرسان في ممتلكاتهم تبعية كاملة. وفي القرن السادس عشر اتخذوا اسم دايميو DAIMYO الذين

سيلعبون تحت ظله دورا من المكانة الأولى حتى نهاية عصر الإقطاع. وكان لصعودهم السياسي نتيجة معاكسة هي الإنحسار الاجتماعي للفرسان المستقلين. والواقع أن معظم الممتلكات القديمة تجمعت في مناطق يشرف عليها الدايميو وغدت وظيفة (القيم على الأعمال) لقبا فارغا قبل أن تختفي بشكل نهائي. وفي الوقت نفسه نطور الفن العسكري وصاروا يلجؤون أكثر فأكثر إلى المشاة للخدمة في مناورات المعارك بحيث بدا أن الكثيرين من الفرسان لم يعد لهم مسوغ للوجود. وبما أنهم أضاعوا في الوقت نفسه صفتهم القتالية ووظيفتهم الاجتماعية فإنهم بدوا قوة في كامل انحسارها.

بعض منهم نجح في أن يصبح من الدايميو ولكن معظمهم هان امرهم حتى صاروا يعرضون خدماتهم على الدايميو وأن يمارسوا تحت رايتهم وظائف عسكرية وإدارية ثانوية. وكانوا يعيشون من وراء استثمار بعض الراضي التي خصصها لهم الدايميو من ممتلكاته الخاصة أو أنهم اكتفوا في غالب الأحيان بأجور محددة يقبضونها من الخزينة الأميرية. وهكذا فإن حالتهم كانت تقترب من طبقة الفلاحين في الوقت الذي كان فيه هؤلاء قد وكلوا بأمر الدفاع عن البلاد وصاروا يشكلون كتائب مشاة حسنة التدريب. وقد اتخذت (الفرقة الحقيقية للأرض الطاهرة) من ذلك حجة لتفرض سيادة الإقطاعيين. وكان الفلاحون في وقت الحرب يتحولون إلى جنود ويستطيع الأكثر كفاءة منهم أن يأملوا في ارتقاء درجات الطبقة الأرستقراطية بينما الكثيرون من الفرسان ينقلبون إلى فلاحين بعد أن يخوضوا معركة فاشلة.وهكذا وجدت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قابلية انتقال اجتماعي بين الطبقات الشعبية والأرستقراطية المتوسطة.

وكانت العائلة الأمبراطورية وأمراء البلاط في كيوتو أول من تحمل صدمة هذه التحولات. فالمداخيل التي يحصلون عليها من ممتلكاتهم الريفية تضاءلت باستمرار وانتهى بها الأمر أن تلاشت تماما في نهاية القرن الخامس عشر. وفي القرن التالي أصبحت العائلة الإمبراطورية والفوجيوارا ومختلف عائلات البلاط تعاني من حياة ضعف وبؤس. ومن أجل الاستمرار في البقاء وجب عليها أن تترأس شركات تجارية أو نقابات حرفية في كيوتو لأنها أجبرت على ممارسة النشاطات النادرة التي بإمكانها أن تتعاطاها دون أن ينحط شأنها ومقامها. فرأينا إمبراطورا آل به الأمر إلى ممارسة أعمال النسخ واضطر أن ينسخ بيده قصائد أو بضعة أمثال طلبها منه بعض الزبائن مقابل تعويض

متواضع. وندهش أكثر من ذلك من أن العائلة المالكة أثناء القرن السادس عشر تخلت لشدة ضيق ذات اليد عن القيام بمراسم نقل السلطة لعجزها عن دفع نفقات جنازة الإمبراطور المتوفى وتتويج الإمبراطور الجديد. ولولا الاحترام الذي يكنه اليابانيون لمبدأ المحافظة على السلالة المالكة فإن العائلة الإمبراطورية وأمراء الدم ما كان بإمكانهم النجاة من هذه الشدائد المالية.

الأشيكاغا : حكام ضعفاء ولكن أنصار للأدب مجربون:

إن التبدلات السياسية والاجتماعية التي دفعت شوغونة الأشيكاغا رافقتها اضطرابات مستمرة. فقد عرف الأرخبيل غليانا كبيرا ومعارك لا تنقطع ربما كان رهانها امتلاك ممتلكات جديدة أو الاعتراف بتفوق محلي. هذه الحالة من الإحتراب الدوري يذكرنا بطريقة غريبة بأحوال أوروبا في عصر الإقطاع. فالعائلات الكبرى هي التي تقرر الحرب في اليابان كما في أوروبا. وقد أعطى الخواء السياسي وحالة البلاط الإمبراطوري المخزية صورة سيئة للأجيال القادمة عن هذين القرنين ونصف القرن من التاريخ الياباني. إلا أن هذه الرؤية المتشائمة لا تحفظ إلا المظاهر وتشوه الحقيقة. فالغموض السياسي لم يكن إلا ظاهرة عارضة لتطور عميق في المؤسسات والبنى الاجتماعية. فهو لا ينفي قيام تقدم كبير في المجالين الاقتصادي والثقافي.

نتيجة لهذه الصعوبات المالية كف البلاط الإمبراطوري في كيوتو عن أن يكون بؤرة الحياة الثقافية في البلاد لأن بلاط الشوغون نزع منه وظيفته كحام للفنون والآداب، والاسم الذي تركه الأشيكاغا في التاريخ يدين لرعايتهم للفنون والآداب أكثر مما يدين لدورهم السياسي. فقد لفوا حولهم أفضل الكتاب والفنانين في عصرهم فأنعشوا بلاطا غطت شهرته وازدهاره الثقافيين كثيرا جدا ما كان يعانيه من عجز سياسي. وكما يحدث في كل عصور الاضطراب فإن الأديرة الكبرى غدت مأوى للحياة الفكرية ومراكز النشاط الفني. ومن بين أكابر الفنانين والمثقفين المرهفين لهذه الحقبة كانت أعداد كبيرة من الرهبان البوذيين. وكان معلمو فرقة زين بوجه خاص يسيطرون على الحياة الثقافية، مستفيدين من المساندة الرسمية للسلطات ومحتفظين مع الصين بعلاقات نشيطة أعطتهم باكورة تيارات القارة الثقافية الحديثة. وقد أخصبت فرقة الزين في ظل الأشيكاغا كل الحياة الفكرية وأنجزت توفيقا خصبا بين التقاليد الوطنية والمؤثرات القارية.

لقد لعب الرهبان البوذيون دورا هاما في ظهور أول نوع من الدراما اليابانية هو النو NO أو الدراما الغنائية. وغاية النو هي تعلم المشاهد عناصر المذهب البوذي. وبما أنها خرجت من الرقصات الدينية القديمة لليابان البدائية فإنها أدخلت عنصرا إيقاعيا في الإلقاءات الشعرية بحيث يقوم تبادل بين الكورس (جوقة المرتلين) وبين الممثلين. هذا الشكل من المسرح الياباني بقي وحيدا من الأنواع الدرامية الأكثر قيمة وبذل أنصاره جهدهم وحماستهم في أن يصونوا الرمزية المجردة التي تشكل منه الجوهر.

وقد ساهم رهبان زين - رغم رفضهم التقاليد المدرسية - في العودة إلى الاستعمال الأدبي للصينية الكلاسيكية. كذلك أدخلوا إلى اليابان المفاهيم الجديدة لفن البناء في القارة. ولكن مساهمتم الأكثر كمالا في حقبة الأشيكاغا هي في ميدان الرسم. لقد كانوا يمارسون حياة قريبة من الطبيعة فبدت حماستهم لرسم المناظر الأحادية اللون التي بلغت أوجها في الصين خلال حكم أسرة سونغ بين عامي ٩٦٠ - ١٢٧٩ . واعمال الرسامين اليابانيين التقشفيين من أمثال سيسشو SESSHU(١٤٢٠ - ١٥٠٦) تضاهي أعمال المعلمين الصينيين سواء من حيث نوعية الصنعة أو عمق الإلهام.

لقد أدخل رهبان الزين إلى الأرخبيل ثلاثة أنماط من التعبير الفني ستندمج بسرعة مع الإرث القومي بحيث تصبح مقومات (الذوق الياباني). أو لها تنسيق الزهور الذي كانت وظيفته الطقسية الأصلية ترتيب طاقات الزهر المقدمة قربانا بحسب أهميتها عند أقدم التماثيل البوذية، ثم غدت بعد ذلك ممارسة دنيوية يجب أن تتقنها كل فتاة ماهرة. وثانيها فني أيضا من أصل صيني هو فن الحدائق. وبما أن رسامو الطبيعة في عصر الأشيكاغا في معزل عن فكر الغرب الذي يتصور طبيعة هندسية ومنظمة فإنهم سعوا إلى أن يقدموا لنا على رقعة محدودة المساحة كل ما في الطبيعة من غزارة وتنوع بجبالها وغاباتها وسهولها العارمة. فطورا يجتهدون في أن يخلقوا الوهم من الحقيقة، وطورا يكتفون بمشابهة رمزية مع الطبيعة كما هو الأمر في (حديقة الحجارة) لريوناجي في كيوتو حيث لا نجد إلا الصخور والرمل. وفي هذا المجال جعلت منجزات المعلمين في شوغونة الأشيكاغا وخلفائهم من القرن السابع عشر جعلت هذه المنجزات من كيوتو قبلة رسامي الطبيعة ومهندسيها المعماريين. وفي هذا العصر أيضا ظهرت حفلة الشاي التي هي طقس مليء ببساطة كهنوتية محببة، بضع قطع من خزف رقيق قديم، بضع حركات بطوؤها يرفع

من أناقتها، تهيئة ورشف متمزمز يمليهما طقس باطني، صفاء كامل للذهن، ذلك ما كان يكفي للتعبير عن حب الجمال وعبادة التجريد والبحث عن الهدوء العقلي الذي يشكل جوهر الزين نفسه.

هذه الأشكال الثلاثة للفن إنما استلهمت من المفاهيم الفنية المجاورة. ونجد فيها الرفض نفسه لطبيعة أعيد تشكيلها بشكل مصطنع على يد الإنسان، والاحترام نفسه للبساطة، والارتباط نفسه القاصر على ما هو جوهري. فبضعة أغصان من الزهور في تشكيلة تنسيقية، وإناء بسيط، وحركات مقاسة في احتفال الشاي، وقسوة متقشفة في نمنمة بستان، واقتصاد في الملامح في رسم يهدف إلى الإيحاء أكثر مما يهدف إلى الوصف، وارتعاش منظر طبيعي يذكر فيما بين سطوره بكل قوى الكون، تلك هي عناصر فن تنعكس فيه مثالية المحارب والأخلاق (الزينية) لتقشف داخلي وتطهير ذاتي. ومن المثير للفضول أن هذا الفن الذي تم تبنيه على أساس من البساطة والاعتدال وعلى مستوى ضعيف من التطور الاقتصادي ليابان العصر الوسيط قد اكتسب في الوقت الحاضر قبولا حارا واسعا في مجتمعاتنا الاستهلاكية التي هي أكثر تعقيدا بما لا يقاس وأكثر اختلافا وتنوعا.

إزالة الحواجز وتقدم في الاقتصاد:

إن إعادة العلاقات المنتظمة مع القارة كانت أساسا لنهضة ليس لها سابقة في الاقتصاد الياباني فاختفاء القصور الريفية القديمة المتمادي سارع في الازدهار الاقتصادي. إن اليابان التي عاشت عدة قرون على الاقتصاد الريفي المغلق بدأت تنفتح على المبادلات وتبادل المنتجات. ولأول مرة بدا ممكنا قيام نوع من التخصص المحلي والإقليمي علما بأن العوائق الأساسية بقيت قائمة إلى حد بعيد. فالمكوس والقيود من كل نوع على تنقل الأرزاق والأشخاص وجدت في كل مكان. ومن أجل تخطيها اعتاد التجار والحرفيون على التكتل في نقابات مهنية فيتمتعون في ذلك بقوة جماعية قادرة على الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والتفاوض مع السلطات الإقطاعية على قيمة الرسوم ومدى امتداد الامتيازات النقابية.

هذه الظروف الجديدة شجعت على ازدهار تجاري وصناعي كان من نتائجه ظهور معامل للورق ومشروعات للصناعات المعدنية ومصانع الغزل ومختلف النشاطات الاقتصادية انتشرت في نقاط مختلفة من الأرخبيل وغدت بعض الأسواق المحلية مراكز

تجارية ذات أهمية متوسطة بينما بقيت كيوتو أكبر مدينة في البلاد وغدت مدينة حديثة ذات أصول تجارية وصناعية حصرا وتوسعت على السواحل الشرقية من البر الداخلي. أما أوزاكا المستقبل فهي التي حافظت على وضعها مدينة حرة حتى نهاية القرن السادس عشر، وبما أنها لم تكن ترتبط بأية ممتلكات إقطاعية فقد حكمتها طبقة من التجار ومن وجهاء معبد (الفرقة الحقيقية للأرض الطاهرة) الحصين.

إن التجارة الخارجية هي التي تقدم لنا المقياس لنمو الاقتصاد الياباني خلال عصر الإقطاع. والعلاقات التجارية المعقودة مع الصين بمناسبة أول سفارة رسمية أرسلت من قبل المير شوتوكو لم تؤت ثمارها كلها في السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر. وفي القرن السادس عشر أصبحت التجارة الخارجية عنصرا أساسيا في حياة البلاد الاقتصادية. وكانت الواردات اليابانية تتألف في الدرجة الأولى يومئذ من المنتجات المدارية القادمة من الهند وآسيا الجنوبية الشرقية ومن كثير من المواد المصنوعة في الصين كالمنسوجات الحريرية والخزف والكتب والمخطوطات والرسوم والنقود النحاسية. ومنذ القرن الثالث عشر اعتمد القسم الأعظم من المبادلات التجارية على نقود عينية أصبحت تحل شيئا فشيئا محل الأرز والقماش كوسيلة للتبادل. وبعد الفشل الذي أصاب في القرن الثامن محاولة هدفت إلى الدفع بعملة وطنية مقلدة عن القطع الصينية تخلت اليابان عن صك نقودها الخاصة. وبسبب من فقدان سلطة مركزية كافية القوة استقدمت اليابان من القارة كل ما تحتاجه من نقود ضرورية لحاجات اقتصادها.

في مطلع عصر الإقطاع كانت الصادرات اليابانية تعتمد أساسا على المواد الأولية كالكبريت وخشب البناء واللؤلؤ والذهب والزئبق والأصداف. وفي القرن الخامس عشر والسادس عشر تغيرت قائمة المنتجات المصدرة وغدت المواد المصنوعة تشكل الكمية الكبرى كالسيوف والمراوح والستائر المزينةالتي تتجه إلى الصين والبلاد الأخرى. هذه الستائر والمراوح التي اخترعت بدون شك في وقت واحد على يد اليابانيين والكوريين يبدو انها كانت مطلوبة جدا في الصين، أما السيوف المنحنية فهي مصنوعة من فولاذ مصفح ذي نوعية أعلى من السيوف الدمشقية أو سيوف طليطلة على ما لهذه السيوف المذكورة من شهرة واسعة، وكانت اليابان تصدرها بالآلاف إلى كل الجنوب الشرقي من آسيا. وكان الكوريون في البداية هم الذين يحتكرون المبادلات التجارية البحرية بين

الأرخبيل والقارةقبل أن يحل اليابانيون محلهم شيئا فشيئا، وفي القرن الحادي عشر أنا
خطوطا منتظمة مع كوريا، وفي القرن الثاني عشر غامروا حتى الصين، وفي ا
الرابع عشر والخامس عشر أصبحوا سادة الملاحة والتجارة البحرية في كل بحر الص
الشرقي. وقد ساهمت أوساط اجتماعية عديدة في هذه التجارة المتمرة اولها الر
البوذيون الذين لم يترددوا في أن يكونوا أصحاب سفن أو مجهزيها كي يتمكنوا من
أديرة جديدة كما اندفع سادة إقطاعيون في المغامرات البعيدة مقلدين في ذلك الأش
أنفسهم الذين لم يعودوا يملكون سوى هذه الوسيلة ليحافظوا على سلطتهم المزع
وكان عليهم أن يتظاهروا بالتعلق بالمفاهيم الصينية على شكل تجارة دولية أي أن
في أن يروا في الصادرات اليابانية ضريبة شعب بربري يقدمها لإمبراطورية ال
العظمى وان يعترفوا في المنتجات المستوردة بأنها تعبير عن دماثة هذه الإمبراط
العظمى نفسها تجاههم. ومن أجل أن ينسجموا مع هذا الوهم لم يتردد شوغونات الأ
- على الرغم من التقاليد الإمبراطورية - في أن يكتفوا من أباطرة أسرة مينغ الد
بإعطائهم لقب (ملك اليابان) ، وبهذا الثمن وحده نجحوا في تفويض تجارتهم و
يعقدوا علاقات تجارية رسمية ومنتظمة مع القارة.

وعلى الرغم من الحصة التي شغلها الشوغونات والأديرة في التجارة الكبر
احتكار البحار آل مع الأيام إلى فئة اجتماعية مميزة مؤلفة من فرسان قدماء وتجـ
غرب الأرخبيل. ةكما كان الأمر في أوروبا فإن البحارة اليابانيين كانوا تجارا لا يحـ
عن التحول إلى قراصنة عندما تسمح لهم الفرصة بذلك. فلم تكن تربكهم كتب الا
المقدمة من الأشيكاغا أو الشهادات التجارية المقدمة من بلاط الصين. فمنذ القرن
عشر ازدادت أعمال القراصنة في البحر الكوري. وفي القرن الرابع عشر تشجع هـ
(الفرسان القراصنة) بنجاحاتهم حتى غدوا يشكلون تهديدا دائما على مملكة كوريا
ميدان نشاطهم في اتجاه سواحل الصين. وبعد أن ابتزوا في أوقات متعاقبة
الصين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر فإنهم ساهموا بعملهم هذا مـ
واسعة في الإنحلال النهائي لإمبراطورية المينغ في عام ١٦٤٤.

ومع ذلك فإن أولئك الذين جرت العادة على تسميتهم (بالقراصنة اليابانيين) في ا
السادس عشر لم يكونوا دائما قراصنة بل ولا يابانيين. إذ انضم إليهم كثير من الصـ

لفرض الفدية على مدن الصين الساحلية الكبرى. والعديد من هؤلاء القراصنة من مواليد أوكيناوا وجزر ريوكيو، وهم يتكلمون لهجة قريبة من اليابانية وينتمون في القرن السابع عشر في الوقت نفسه إلى الصين وإلى الممتلكات الكبرى التابعة لآل شيمازو في مقاطعة ساتسوما الواقعة في جنوبي كيوشيو. وعندما دار (التجار المغامرون) القادمون من اوروبا في القرن السادس عشر حول شبه جزيرة ماليزيا ونفذوا إلى بحار آسيا الشرقية صادفوا من اليابانيين أكثر مما صادفوا من الصينيين. ففي خلال ذلك القرن استقر اليابانيون بالمئات في مدن ومستعمرات آسيا الجنوبية الشرقية كلها تجارا وفرسان صناعة أو مرتزقة في خدمة الإسبانيين أو البرتغاليين الذين أثر فيهم جلدهم وخبرتهم في فنون القتال أعظم تأثير. وكانت مدينة استعمارية نموذجية مثل مانيلا تضم جالية يابانية مزدهرة. وامتد النفوذ الياباني حتى إلى العاصمة سيام حيث قام مغامرون يابانيون يسعرون في مطلع القرن السابع عشر ثورة حملت إلى السلطة رجالا انتقوهم بحسب مصالحهم.

خلال (السنوات المظلمة) من الفوضى السياسية طور اليابانيون مهارتهم الحرفية بحيث أصبحت تضاهي أحسن ما تنتجه الصناعةالصينية أو تطغى عليه في بعض الأحيان. وعلى الرغم من دوام البنى الإقطاعية فإنهم نجحوا في أن يخصوا أنفسهم بنظام تجاري وطيد الأركان. وبفضل نشاط (فرسانهم التجار) وحيويتهم الفائضة أصبحوا سادة بحار آسيا الشرقية غير المنازعين. وفي القرن الثاني عشر عندما قام المجتمع الإقطاعي أوهمت اليابان الناس بأنها بلد متخلف وأن ضعف اقتصادها محكوم عليه بأن يبقيها على هامش العالم المتمدن. ولكن ما أن انقضت أربعة قرون حتى تساءل الناس ما إذا كان هذا البلد هو البلد القديم نفسه. ومن المفارقات أن اليابانيين خرجوا كبارا من فترة الفوضى الإقطاعية الطويلة وتمكنوا منذئذ من أن يصبحوا أندادا للتجار الأوروبيين بل وللتجار الصينيين أيضا.

❋ ❋ ❋


- ٥٨ -

الفصل السادس

الوحدة القومية الراسخة

في مطلع القرن السادس عشر نجحت اليابان نجاحا مجليا في تطوير اقتصادها تطويرا واسعا دون أن تملك اية بنية سياسية قومية. ولكن من الحق أن نقول إن ممتلكات الدايميو الجديدة كانت تشكل أحجار ترقب في إقامة وحدة البلاد.فإذا كان كل ممتلك يشكل شخصية سياسية مستقلة ألا يكفي ذلك لأن تتحد كل هذه الممتلكات أو أن تتكتل تحت وصاية واحدة لنرى انبثاق أمة في المفهوم الحديث للكلمة؟.

كانت ممتلكات الدايميو في الواقع ذات مساحات شديدة الإختلاف. سمتها الوحيدة المشتركة أنها مجموعات متماسكة متجانسة سياسيا ومستقلة دائما في علاقاتها مع الإمبراطور أو الشوغون. ومع ذلك فإن بعض الإقطاعات كانت تابعة لإقطاع آخر. والدايميو يتصرف داخل مملكته الصغيرة كسلطان أبوي مطلق، فهو محاط بأركان حرب من العسكريين ومن الموظفين يشكلون بلاطا في القصر الإقطاعي وتدفع لهم رواتبهم إما على شكل أجور أو على شكل هبة من الأراضي قابلة للانتقال إلى ذريتهم من بعد. والطابع المزدوج لثقافة حربية ولعصر مضطرب حرض الكثير من الدايميو ليجعلوا من منطقة أملاكهم قوة عسكرية حقيقية. وقد توصل كبار الإقطاعيين الذين كانت ممتلكاتهم تغطي أحيانا عدة مقاطعات أن يتمتعوا بقوة دفاعية مهيبة. وكانت طبقة الفلاحين في أوقات الحرب تقدم وسائل الغذاء كما تقدم جمهور الجند في الجيوش بينما تتقلد الأرستقراطية إدارة الممتلكات وملاكات الجند وتكون وظيفة التجار أن يؤمنوا الاتصالات.

مؤسسو الدولة اليابانية:

من الطبيعي أن تسعى الاقطاعات الكبرى لابتلاع الممتلكات ذات المساحات الأكثر

تواضعا أو أن تضعها تحت وصايتها. وانطلاقا من النصف الثاني من القرن السادس عشر بدأ استعمال الأسلحة النارية المستوردة من اوروبا في ميادين القتال. وقد أدى استعمالها المتمادي مع الوقت إلى الإسراع في تقدم التكتل كما أدى حتى قبل نهاية القرن إلى انبثاق سلطة وحيدة على كل الأرخبيل. والشخصية الأولى الكبيرة التي اهتمت بتوحيد البلاد دايميو بسيط اسمه أود انوبوناغا تمتد سلطته على ثلاث مقاطعات مجاورة لمدينة ناغويا الحديثة الواقعة إلى الشرق من كيوتو. وفي عام ١٥٦٨ استولى على كيوتو وما بقي من بلاطها : بلاط الإمبراطور وبلاط الشوغون. ثم مد سلطته إلى اليابان الوسطى كاسرا عند جبل هياي سلطة التنادي ومدمرا الأديرة الرئيسية المجاورة للعاصمة، وبعد حصار عشر سنوات استولى على المعبد الكبير المحصن (للفرقة الحقيقية للأرض الطاهرة) في أوزاكا، ولكن اغتياله في عام ١٥٨٢ على يد أحد أتباعه وضع حدا مبكرا لحكمه في السيطرة على كامل الأرخبيل. وما أن اختفى نوبوناغا حتى آل الإشراف على اليابان الوسطى لأفضل قادته هيدي يوشي وهو رجل وضيع النسب يدين بصعوده لجدارته وحدها وكفاءاته. وقد أجبر اتباع نوبوناغا فورا على الاعتراف بسلطته ورمم معبد أوزاكا الحصين ليجعل منه ملاذا لحكومته العسكرية وتظاهر بتبعيته للبلاط الإمبراطوري متخذا لنفسه لقب (الوصي على الرشد) القديم KAMPAKU الذي كان يحمله الفوجيوارا وبانيا له قصرا في أرياض كيوتو. وفي عام ١٥٨٧ استسلمت له ممتلكات شيمازو سانسوما في جنوبي كيوشيو فأمن له ذلك السيطرة على كل اليابان الغربية. وبعد ثلاث سنوات وقعت اليابان الشرقية والشمالية بدورها تحت سيطرته بفضل خضوع (الدايمية) الرئيسية في منطقة الكانتو فتحققت بذلك وحدة البلاد السياسية لمصلحته. وبعد أكثر من قرن من الحروب الأهلية التي لا تنقطع عرف الأرخبيل أخيرا عصرا من السلام.

ومع توقف المعارك وجد هيدي يوشي نفسه في رأس وفرة من العسكريين بدا من الصعب إعادتهم إلى حالتهم المدنية. ومن أجل إيجاد قنوات لحميتهم العسكرية وتهدئة عقدة الفاتح العالمي التي بدا أنه هو نفسه كان يتقاسمها مع الكثيرين من القادة المنتصرين في التاريخ فقد قرر هيدي يوشي فتح الصين. وفي عام ١٥٩٢ عندما رفض الكوريون أن يسمحوا له بالمرور نحو القارة غزا بلادهم بقوة مؤلفة من ١٦٠ ألفا من الرجال الذين

اجتاحوا القسم الأكبر من شبه الجزيرة فبددوا بذلك جهودهم وردوا في النهاية على اعقابهم على يد الجيوش الصينية التي قدمت لنجدة تابعتها كوريا التي تدور في فلكها. وأصبح على الجيوش اليابانية أن تنكفئ إلى كوريا الجنوبية حيث توصلت إلى الصمود بضع سنوات. ومع ذلك فإن الحالة لم تكف عن التفسخ واضطربت المواصلات مع الأرخبيل على يد (المراكب السلاحف) الكورية التي غدت مدرعات حقيقية في نهاية المطاف. وجرت محاولة حملة جديدة على كوريا في عام ١٥٩٧ ولكن وفاة هيدي يوشي في العام التالي هيأت لليابانيين حجة جيدة لوضع حد لعملية محفوفة بالمخاطر وأعادوا قواتهم إلى الأرخبيل. وهكذا منيت أول محاولة يابانية لغزو القارة بفشل ذريع.

أما الفراغ السياسي الذي خلقته وفاة هيدي يوشي فقد ملأه توكوغاوايي ياسو تابعه الرئيسي الذي كان نائبه حتى ذلك الوقت في شرقي الأرخبيل ويتخذ مركز قيادته في قرية إيدو الصغيرة التي ستصبح طوكيو فيما بعد. وفي عام ١٦٠٠ ألحق يي ياسو هزيمة حاسمة بتحالف من الخصوم. وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً تخلص من آخر سلالة هيدي يوشي واستولى على المعبد الكبير الحصين في أوزاكا باللجوء إلى الحيلة حيناً وعرض قواته المسلحة أحياناً أخرى. وبما أن تجارب أسلافه التعيسة كانت تراود أفكاره دائماً فقد لجأ إلى إقامة نظام سياسي قادر على البقاء وسيتقاسم خلفاؤه من بعده حلم الاستقرار هذا ويتوصلون إلى تجسيده. والواقع أن عائلة التوكوغاوا هي التي أرست قواعد نظام سياسي جديد خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. وقد كرس هذا النظام هدوءاً داخلياً وخارجياً ليس لدوامه مثيل في أية بلاد أخرى. ولكن هذا السلام وهذا الاستقرار دفعا ثمناً لهما لسوء الحظ تطويقاً قاسياً للحياة الاجتماعية وخنقاً لا رحمة فيه لكل أشكال المبادرة ولكل تطور مجدد وأقاما اساسهما على عزلة الأرخبيل الكاملة وتجميد المؤسسات والأوضاع التي كانت قائمة في القرن السادس عشر المنصرم. ورغم أن النظام الذي أنشأه آل توكوغاوا كان ينتسب إلى معايير مطلع القرن السابع عشر فإنه يتميز بنزوعه إلى المحافظة المتطرفة وبدا منذ أوائل عهده محملاً بالمفارقات التي لن تنفك عن البروز كلما تقدم بها الوقت.

دولة مركزية حول إيدو:

رفض يي ياسو كما فعل من قبله يوريتومو أن يجعل من كيوتو مركز البلاد

السياسي. وفي عام ١٦٠٢ اتخذ لنفسه لقب الشوغون الذي كان يحمله آل ميناموتو وآل أشيكاغا وأقام عاصمته بالقرب من قصره في إيدو إلى الشرق من الأرخبيل. وقد حول خلفاؤه المدينة إلى حصن قوي فأحاطوها بخنادق واسعة تفصلها آطام عالية وأسوار سميكة موضوعة على شكل دوائر متحدة المركز ذات قطر إجمالي يبلغ أكثر من ثلاثة كيلو مترات. واليوم يحتل الزنار الداخلي القصر الإمبراطوري الجميل الذي ينتصب في قلب طوكيو. ولشدة اهتمامهم بالاستقرار قام التوكوغاوا بتجميد البنية السياسية التي كانت موجودة في نهاية القرن السادس عشر فحافظوا على معظم تقسيمات الأراضي الموجودة وبخاصة الدايمات أو الهان HAN التي اكتفوا بأن يفرضوا عليها نظاما شديدا من الرقابة العسكرية. وقد اختلفت الممتلكات من حيث المساحة وخضعت لتقلب في عددها. بعضها اختفى وأخرى تشكلت. وفي نحو من أواخر عهد التوكوغاوا أمكن أن نعد منها حوالي ٢٦٥ تنتج من الأرز محصولا يتراوح بين عشرة آلاف كوكو KOKO لأصغرها وبين المليون لأكبرها مساحة. ومن مجموع الإنتاج القومي العام للأرز البالغ ٢٦ مليون كوكو كان الشوغونات يقتطعون لأنفسهم حوالي سبعة ملايين كوكو ويشرفون إضافة إلى ذلك إشرافا مباشرا على المدن الرئيسية والمرافئ والاستثمارات المعدنية في الأرخبيل. وفي داخل البلاد كان يوجد شق أساسي يفصل عائلة الشوكوغاوا عن بقية العائلات الإقطاعية. وكان النظام يعتمد في الواقع على الشوغون و(دايميو الداخل) الذين يشملون الدايميو من أقرباء التوكوغاوا أو (SHAMPAN DAIMYO) والدايموا الوارثين أو (FUDAI DAJMYO) الذين حاربوا إلى جانب يي ياسو حتى قبل انتصاره عام ١٦٠٠ . وهذان الصنفان كانا يغذيان ما يحتاجه الجيش والإدارة من ملاكات. وأخيرا يأتي (دايميو الخارج) أو (TOZAMA DAIMYO) الذين لم يقدموا ولاءهم إلى يي ياسو إلا بعد معركة عام ١٦٠٠ العظمى. وكل هؤلاء الدايميو يمتلكون بصورة عامة أجهزة من العسكريين الموظفين يدفعون لهم اجرا تحدده الأعراف. والأقوى من بينهم امتلكوا إضافة إلى ذلك أتباع وراثيون يعهدون إليهم بإدارة قسم من ممتلكاتهم. أما أفراد حاشية الشوغون فيندرجون في صنفين : (حملة الأعلام) أو HATAMOTO الذين يتمتعون بالعائدات الأعلى، و (ظرفاء بيت الشوغون) أو الغوكينين GOKENIN .

ولم تكن إعادة توزيع الممتلكات الخاصة للشيغون والدايميو عبر الأرخبيل تعود إلى

المصادفة المحضة فوسط البلاد كله من سهل الكانتو في الشرق حتـــى دائـرة العاصمـــة القديمة في الغرب كانت تخص آل توكوغاوا، وهذه المنطقة التي تشكل المنطقـــة الحيويـــة في اليابان تضم أفضل السهول والقسم الأكبر من السكان المدنيين والأساسي مـــن النشـــاط الاقتصادي. ومن أجل دواعي أمنية كان الدايميو الثلاثة الكبـــار مـــن عائلـــة التوكوغـــاوا المكلفون بتعيين الشوغون في حالة انقراض الفرع الأصلي يقيمون في ثلاثة مواقع رئيسـية في المنطقة الوسطى هي ميتو إلى الشرق من إيـــدو وناغويـــا قـــرب مركـــز الخطـــورة لممتلكات التوكوغاوا و واكاياما إلى الجنوب من أوزاكا باتجـــاه الغـــرب. أمـــا (دايميـــو الخارج) الذين كانوا يغذون أحيانا الأحقاد القديمة تجاه التوكوغـــاوا فـــهم مطوقـــون فـــي الأطراف الغربية الشمالية من الأرخبيل والشمال والغرب من هونشـــو كمـــا فـــي جـــزر شيكوك وكيوشيو حيث يقوم (دايميو الداخل) بمهمة مراقبة نشاطاتهم.

ورغم أن التوكوغاوا كرروا تأكيدهم لاستقلال الديميو النظري فإنـــهم اســـتمروا فـــي مراقبتهم مراقبة كافية لإحباط كل محاولة للتمرد الفردي أو الجماعي. وبقيت كتلة الجنـــود اليابانيين موزعة بين مختلف الدايميات ولكن العسكريين الفعالين وأعمال التحصينات لكـــل قطاع بقيت خاضعة لوصاية إيدو الدائمة الملموسة. بل أن الزيجـــات نفســـها والعلاقـــات التعاقدية بين مختلف عائلات الدايميو كانت موضع مراقبة حريصـــة حـــذرة. والدايميـــو معفيون من الضرائب ولكن التوكوغاوا من أجل منعهم من تكديس الثروات الضخمة كـــانوا يستدعونهم دوريا إلى إيدو لإنجاز أعمال من البنى التحتية أو القيام بمهام مختلفـــة تتعلـــق بالمصلحة العامة. ومن جهة أخرى فإن حكومة إيدو أنشأت نظامـــا خاصـــا للموظفيـــن - المتسوك METSUKE في الوقت نفسه مكتب مراقبة مكلف بالوشاية بخدام الدولة الســـيئين أو بالتجسس على الرجال أو الجماعات المشبوهين من النظام. وهكذا فقد تميزت حكومـــة التوكوغاوا بميزة لا يشتهيها أحد بأنها بين أوائل الحكومات التي امتلكت جـــهازا بوليســـيا سريا مهما وفعالا لن يلبث أن يرتقي إلى مصاف جهاز الدولة الرئيسي.

ومن أجل الإشراف على نشاط الدايميو بصورة أفضل أنشأ آل توكوغاوا نظـــام إقامـــة إجبارية حقيقي في بلاط الشوغون وعرف هذا التدبير باسم (سانكين كوتـــاي) أو (نظـــام الإقامة المتناوبة) القائم على إجبار الدايميو على قضاء عام من كل عامين فـــي إيـــدو وأن يتركوا نساءهم وأولادهم فيها بشكل دائم. وكانت تمارس رقابة متيقظة عند منافذ الطـــرق

المختلفة الذاهبة من العاصمة للإنذار بأية محاولة لهروب الزوجات الأسيرات، ويتم في المقابل التأكد من أن أي سلاح ناري لا يدخل المدينة. والواقع أن فرار الرهائن ودخول الأسلحة النارية في الخفاء تعتبر إرهاصات لثورة محتملة التوقع. وكانت السانكين كوتاي تجبر الدايميو على امتلاك مسكن دائم في إيدو بل أكثر من مسكن واحد في بعض الأحيان مما يسبب لهم عبئا ماليا ثقيلا يؤمن في المقابل للعاصمة رخاء في اقتصادها. والذهاب والإياب السنويان اللذان يقوم بهما الدايميو محروسين بحاشيتهم يشكلان مصدرا آخر كبيرا للنفقات. وكان انتقال تلك المواكب المدهشة مشهدا دارجا في الحياة اليومية وبخاصة على الطريق التي تربط كيوتو بإيدو والتي يسمونها توكايدو.

من أجل الإحتفاظ بالسلطة لم يكن على التوكوغاوا أن يراقبوا الدايميو فقط بل وأن يصونوا كذلك تلاحم عائلتهم الخاصة وأن يتأكدوا من أن طيش أحد أنسالهم لن يؤثر على بقاء النظام. ومع احترامهم لوهم السمو الإمبراطوري الموغل في القدم ومع اكتفائهم بلقب الشوغون (أي القائد الأكبر) لجيش الإمبراطور فإنهم راقبوا بلاط كيوتو بكل انتباه. ومع ذلك فهم يعترفون نظريا بأن الإمبراطور هو مطلق الصلاحية الأعلى لشرعية الدولة ويقدمون بين يديه قائمة كريمة من الألقاب المدنية. وبما أن يي ياسو يذكر أن أحفاد نوبوناغا وهيدي يوشي قد أبعدوا سريعا عن السلطة فإنه اتخذ حيطته عام ١٦٠٥ في أن ينقل أثناء حياته لقب الشوغون إلى أكثر أبنائه موهبة وأقلهم موضع اعتراض، وهكذا لم يؤد موته الذي حدث في عام١٦١٦ إلى أي اضطراب سياسي. وقد أرسى يي ياسو وخلفاؤه قواعد إدارة مركزية قادرة على سياسة البلاد خلافا للشوغونات الذين كثيرا ما انتقلوا إلى مجرد دمى.

ووضعت الإدارة المركزية تحت سلطة مجلسين : مجلس للشيوخ أو (روجو) يرتبط عند الاقتضاء (بشيخ كبير) أو (تيرو) ومجلس للكهول JEUNES ANCIENS أو (واكا دوشي يوري) . والمجلسان مكونان من الدايميو الوارثين ويشرفان على بيروقراطية كبيرة مجندة من (حاملي العلم) و (ظرفاء بيت الشوغون). وثمة حكام مدنيون (بوغيو) يتنقلون اثنين اثنين للإشراف على القضايا المالية وتفتيش المعابد والأماكن المقدسة والمدن الرئيسية في البلاد. يضاف إلى ذلك وفرة من الموظفين المكلفين بمهمات مختلفة مثال ذلك ملاكات محاكم القضاء وأفراد الفرق المختارة من بين رجال حاشية

الشوغون أو وكلاء الأعمال في الممتلكات.

هذا التنظيم الإداري يتميز بصفة مزدوجة بيروقراطية وجماعية. وعلى الرغم من المضمون الاجتماعي الإقطاعي النموذجي فإن شروط اختيار الموظفين تحكمت بها إجراءات بيروقراطية. وإذا كانت الحالة الوراثية تحد من اختيار المناصب التي يستطيع أن يصبو إليها أي شخص فإن الموهبة الفردية تبقى -في داخل هذه الحدود - مفتاح النجاحات وبخاصة من أجل الوصول إلى الوظائف العليا. ونحن نذكر أن اليابان عندما تبنت مبادئ البيروقراطية الصينية بين القرنين السابع والثامن لم تكن تمتلك بعد طبقة من الموظفين. وبعد عشرة قرون تشكلت بيروقراطية حقيقية وراء الواجهة الإقطاعية رابطة بين مظاهر القوة والضعف الملازمة لمثل هذا النمط من النظام الإداري. أما السمة الثانية المميزة فهي جماعية القرارات، ففي كل المجالات تصدرت المسؤولية الجماعية على السلطة الفردية، والمتصرفون بالوظائف الرسمية لم يلعبوا إلا دورا شكليا بينما ارتبطت السلطة الحقيقية بمجالس وموظفين يعملون زوجين زوجين. وهكذا تأكد الذوق الياباني في حياد القرارات وتقاسم السلطة منذ تلك الحقبة في الممارسات اليومية للإدارة.

وقد مال تنظيم الدايميات إلى تقليد التنظيم الحكومي في إيدو ولكن على نطاق أضيق، فقد كان الدايميو محرومين من كل سلطة خاصة ويعهدون بإدارة ممتلكاتهم لبيروقراطية مصغرة، والقواعد التي سنوها منسوخة عن القواعد الشوغونية وبدت عواصمهم نسخا من إيدو. وإذا استثنينا كيوتو وبعض المدن المرافئ فإن معظم مراكز المدينة كانت تتشكل انطلاقا من مساكن كبار الدايميو وتدور حولها، ولم تكن هذه المساكن التي لا تزال تزين مناظر اليابان تمتلك سمات مشتركة مع قصور الإقطاع المشيدة في أوروبا، فهي محاطة بأبنية من الخشب قليلة المقاومة في غالب الأحيان وتحصينات مؤلفة من خنادق عريضة وأسوار سميكة مدعمة بأكوام من التراب. وبما أنها انشئت في معظمها في نهاية القرن السادس عشر فإنها مصممة لمقاومة هجمات المدافع.

هرم اجتماعي ذو أربعة طوابق:

إن التعديلات التي حملها إلى الإدارة ال توكوغاوا كانت تشكل بدون شك تقدما لامراء فيه، ولكن الاستقرار السياسي المكتسب بفضل هذه التبدلات كان ثمنه ركودا في المجتمع يمكن أن يقارن بتقهقر بطيء. ونحن نذكر أن نوبوناغا بسحقه القوة العسكرية (للفرقة

الحقيقية للأرض الطاهرة) وبإخضاعه لمدينة أوزاكا التجارية قد وجه ضربة قاسية لتقدم الطبقات الوسطى والطبقات الشعبية. ولكن هيدي يوشي جندي المشاة الوضيع الأصل والمحروم من الألقاب الموروثة إنما رمز بنجاحه إلى إنهيار الحواجز القديمة للمجتمع الإقطاعي، ومع ذلك فإنه هو أيضا من وجه الضربة الثانية لتطلعات جماهير الريفيين السياسية. ولكي يمتص الملاكات المكتظة لطبقة العسكريين الذين جعلتهم وحدة البلاد عديمي الفائدة أنشأ شقا شديدا بين الفلاحين والأرستقراطية العسكرية، فعلى الفلاحين أن يعيدوا سيوفهم وأسلحتهم إلى ممثلي الحكومة وأن يتخلوا عن دورهم (كفلاحين جنود).

وعندما ارتفع التوكوكاوا إلى مراتب السلطة أخذوا بسياسة هيدي يوشي ومنهجوها، كما أنهم اعتنقوا النظريات الاجتماعية للكونفوشيوسية التي ظهرت في الصين قبل ذلك بألف عام فخلقوا سلما اجتماعيا ذا أربع درجات يأتي في قمته المحاربون الإداريون يتبعهم الفلاحون ثم الحرفيون وأخيرا التجار. وقد أنتجت الطبقة الأولى ذات التركيب الاصطناعي الواضح الخطوط الكبرى للتنظيم العسكري منذ مطالع عصر الإقطاع، وأعضاء هذه الأرستقراطية الجديدة الذين أطلق عليهم الغربيون اسم الساموراي بينما سماهم اليابانيون بوشي لم يكن لهم الحق في الاختلاط ببقية طبقات المجتمع ويحملون إشارة مميزة هي سيفان طويل وقصير. ويأتي التجار في أسفل السلم الاجتماعي رغم نفوذهم في الحياة الاقتصادية والثقافية للبلاد. ومذهب كونفوشيوس والقيم الزراعية لأخلاق الإقطاع متفقة على تنظيمهم بين غير المنتجين. ورغم أن نظام الطبقات هذا بدا رجعيا في يابان القرن السابع عشر فإن التوكوغاوا والطبقة المميزة تمسكوا به بعناد خلال قرنين ونصف القرن وسيبقون مخلصين لنظرية الطبقات الأربع المتسلسلة فارضين انفصالا قاطعا بين الساموراي وبقية الطبقات المكونة للمجتمع.

ولم يقتصر التوكوغاوا على الاغتراف من النظريات الاجتماعية الكونفوشيوسية القديمة بل إنهم شجعوا بطريقة منهجية دراسة الفلسفة الكونفوشيوسية على أمل أن يجدوا فيها عنصرا يحمل الاستقرار إلى الحياة الفكرية في البلاد. فالكونفوشيوسية تعلم السيد والخادم أن يتمسكا كل واحد بمركزه الاجتماعي وتبدو انها تقدم فلسفة رسمية مثالية قادرة على تغذية ولاء مكين تجاه النظام. وبما أنها قامت خلال ألف عام من انحطاط الدولة البيروقراطية الصينية ألم تكن هذه الديانة صالحة لدعم شكل النظام الذي بدأ الأرخبيل بتجربته؟.

منذ عام ١٦٠٨ عين يي ياسو في البلاط فيلسوفا كونفوشيوسيا في وظيفة عالم رسـمي ذي شهادة عالية. وانطلاقا من هذه البداية المتواضعة تفتحت أكمام مدرسة كونفوشيوسية مزدهرة في إيدو يدرس فيها المذهب الذي انتشر في الصين في القرن الثاني عشر على يد شوهسي الذي سماه اليابانيون شوشي. ثم ظهر العديد من التيارات التي طرحت عن نفسها الاقتباس عن مذهب كونفوشيوس. وفي خلال كل عصر التوكوغاوا ساهمت هذه الحركة الفكرية التي تدور حول مذهب كونفوشيوس في تكوين عدة أجيال من البحاثة والمفكرين بين الساموراي. وعندما صعد هؤلاء الرجال إلى مسؤوليات السلطة تكشفوا عن إداريين ناجحين وسيساهم الكثيرون منهم بإشعاع تعليمهم في إنقاذ حياة اليابان الفكرية التي كانت تهددها بالاختناق أعمال القمع التي يفرزها النظام السياسي والاجتماعي.

وتحملت الطبقات الشعبية بدورها نتائج العودة إلى الاهتمام بالكونفوشيوسية فانضمت إلى قيم الأخلاق الصينية من نزاهة وميل إلى الخدمة العامة ومحبة للمعرفة في جميع أشكالها. وبقيت البوذية الديانة المسيطرة وبقيت تستفيد من مكانتها الرئاسية الرسمية إلا أن الكونفوشيوسية أخذت تنزع إلى الحلول محلها كقوة فكرية أساسية وأخلاقية في البلاد. وقد توطدت ورسخت أقدامها في الوقت نفسه الذي بدت فيه على البوذية علامات اللهاث وأضاعت حيويتها التي تمتعت بها في عصر الأشيكاغا. ومن تلاقي المفاهيم الكونفوشيوسية مع القيم الحربية التقليدية ولد القانون غير المكتوب للساموراي الذي تطلق عليه اللغة الجامعية مصطلحا رومانسيا هو (بوشيدو) أو (طريق الجندي).

اضطهادات دينية وسياسة انعزالية:

حاولت حكومة إيدو أن تؤمن استقرارها السياسي الداخلي بتدابير شديدة تتعلق بالعلاقات الدولية وهي تدابير ارتدت أهمية جديدة مع وصول الأوروبيين إلى البحار الآسيوية. وأوائل الغربيين الذين وصلوا إلى اليابان هم البحارة البرتغاليين الذين نزلوا عام ١٥٤٣ في جزيرة مجاورة لرأس كيوشيو الجنوبي. وقد عرفت العلاقات التجارية بين البرتغاليين وسادة كيوشيو الغربية الإقطاعيين انطلاقة سريعة إذ أبدى اليابانيون فورا اهتمامهم بأسلحة الأوروبيين النارية التي ما لبث استعمالها أن انتشر سريعا في أرجاء الأرخبيل قالبا المعطيات التقليدية للفن العسكري.

ولكن الاتصالات مع البرتغاليين غيرت من طبيعتها بوصول القديس فرانسوا كزافيه

وهو مبشر جزويتي شهير أدخل المسيحية أثناء إقامته في اليابان بين عامي ١٥٤٩ - ١٥٥١ . وعرفت بعثته الأنجيلية نجاحا عظيما حتى أن الفرق الدينية البوذية ما لبثت أن أعلنت رأيها بأن المسيحية تشكل خصما خطرا لها وأن من المهم محاربتها بأقسى ضراوة ممكنة. ومع ذلك فإن كثيرا من سادة كيوشيو كانوا يحمون المبشرين لأنهم لاحظوا أن البرتغاليين أرسوا مراكبهم في المرافئ التي أبدت ترحيبا حارا بالفئات الدينية. وقد اعتنق أحد صغار الدايميو الديانة المسيحية وتوصل بمساندة من البرتغاليين لأن يجعل من مرفأ ناغازاكي المتواضع المخصص لصيد الأسماك أعظم مكان للمبادلات الاقتصادية في الأرخبيل. وعلى أثره اعتنق المسيحية عدد من السادة الثانويين. وفي عام ١٥٧٨ اعتنق أحد كبار الدايميو في جزيرة كيوشيو بدوره الديانة الجديدة. وتزايد عدد المقتنعين في كل اليابان الغربية وبخاصة في كيوشيو وكيوتو بين مختلف الطبقات الاجتماعية. وفي حوالي عام ١٥٨٠ قدر عدد المسيحيين في اليابان بمائة وخمسين ألفا وتضاعف هذا الرقم في مطالع القرن السابع عشر وكان يمثل في عصره شريحة من مجموع السكان أعلى مما تحمله اليوم زمرة المسيحيين الموجودين في اليابان.

هيدي يوشي وخلفاؤه من آل توكوغاوا لم يكونوا يغذون أي عداء من حيث المبدأ تجاه الديانة المسيحية وإن اشتبهوا في أنها تشكل تهديدا سياسيا مستترا على النظام الذي أنشؤوه. ألم يكن المسيحيون يطيعون سيداً أوروبياً شيخاً هو البابا؟. ألا يحتمل أنهم يهددون وحدة اليابان التي ارسيت قواعدها منذ عهد قريب؟. ولم يكن هيدي يوشي والتوكوغاوا الأوائل من جهة اخرى يجهلون نجاحات التوسع الاستعماري الأوروبي في آسيا الجنوبية الشرقية، وهم يعلمون أن المبشرين المسيحيين غالباً ما فتحوا الطريق أمام النفوذ العسكري والفتح. ومع أنهم يتمنون المحافظة على العلاقات التجارية المفيدة مع الأوروبيين إلا أن السلطات اليابانية توصلت شيئاً فشيئاً إلى القناعة بوجوب إبعاد المسيحية من أجل تحقيق الاستقرار السياسي والأمن في البلاد.

وفي عام ١٥٨٧، وبينما هيدي يوشي يكمل إخضاع اليابان الغربية أصدر مرسوم إبعاد لكل المبشرين المسيحيين. ومع ذلك فإنه خلال الأعوام العشرة التالية لم يظهر أي اهتمام بتطبيق هذا التدبير. ثم أزعجه نزاع قام بين الجزويت البرتغاليين والفرنسيسكان الإسبانيين - وكان هؤلاء قد افتتحوا بعثة تبشيرية في اليابان عام ١٥٩٣ - فأعدم تسعة

من الكهنة وسبعة عشر من رعاياه الذين اعتنقوا المسيحية منذ وقت وجيز. أما يي ياسو فقد تراجع فترة عن سياسة الشده هذه. وعلى أمل تحريض التجار الإسبان على العودة إلى المتاجرة مباشرة في منطقة إيدو فقد حمى مواطنيهم المبشرين. ولكن وصول التجار البروتستانت الإنكليز والهولنديين ذلك الوقت - وهم قليلو الاهتمام بالتبشير الديني - أقنع يي ياسو أنه ليس محتما عليه احتمال المسيحية من أجل الدخول في علاقات تجارية مع البلاد الأوروبية. وفي عام ١٦٠٩ أنشأ الهولنديون مركزا تجاريا لهم في جزيرة هيرادو في الشمال الغربي من سواحل كيوشيو وفعل الإنكليز مثلهم عام ١٦١٣ فعاد يي ياسو عندئذ إلى سياسة الاضطهاد التي دشنها هيدي يوشي وأنجز إعدامات جديدة في رجال الدين والمقتنعين. وفي السنوات التي تلت ذلك استؤصل جميع المبشرين أو أجبروا على ترك اليابان ووجب على آلاف المسيحيين أن يرتدوا عن دينهم أو يذوقوا العذاب. ومن أجل كشف المؤمنين بالمسيح أمر المواطنون بأن يزدروا الصلبان وكل رمز ديني من الطبقة نفسها وكل من يرفض ذلك جزاؤه الموت، ولم يتوقف الإضطهاد إلا عندما لم يعد هناك ضحايا على أثر الثورة المأساوية التي فجرها الفلاحون الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية قديما في منطقة ناغازاكي.

ففي خلال السنوات التي انقضت بين عامي ١٦٣٧ - ١٦٣٨ تمكن سبعة وثلاثون ألفا معزولون في حصن مهدم قديم أن يصمدوا خلال ثلاثة أشهر من الحصار الذي فرضته عليهم القوات الحكومية المدعومة بمدفعية السفن الهولندية، وبعد سقوط الحصن ذبح المتمردون حتى آخر رجل فيهم، وهذه الكارثة الختامية تمثل استئصال المسيحية اليابانية التي كفت منذئذ عن أن تحسب بين القوى الدينية النظامية في البلاد.

أما خلفاء يي ياسو الذين ازدادت شكوكهم شيئا فشيئا تجاه الأجانب والذين صمموا تصميما قاطعا على المحافظة على الوضع السياسي القائم فقد سعوا في عزل اليابان عن العالم الخارجي. وكان الإنكليز قد تخلوا عن مركزهم التجاري في هيرادو لأنهم اعتبروه غير ذي مردود كاف. وطرد الإسبان من البلاد عام ١٦٢٤. وأتهم البرتغاليون بدورهم في التواطؤ مع الثورة المسيحية وعوقبوا بالطرد عام ١٦٣٨. وعندما أرسلوا بعد ذلك بعامين سفارة مكلفة بإعادة العلاقات التجارية مع الأرخبيل أكد اليابانيون رفضهم بإعدام المبعوثين.

ولم يكن المبشرون والتجار وحدهم من تحمل تصرفات التوكوغاوا القاسية بل إن التجار اليابانيين أنفسهم كانوا يثيرون مخاوف حكومة إيدو، فهذه الحكومة خشيت من أن تؤدي مشروعات اليابانيين التجارية البحرية إلى إيقاظ الديانة المسيحية أو جلب أفكار خطرة على النظام. وفي عام ١٦٣٦ منعت الحكومة كل اليابانيين من السفر إلى الخارج وعارضت في عودة رعايا اليابان المقيمين في القارة إلى الأرخبيل. بعد عامين صدر قرار آخر يمنع بناء مراكب التجارة البعيدة ولم تعد البحرية التجارية اليابانية منذئذ تشمل إلا مراكب مساحلة ذات حجوم متواضعة. وقد حملت هذه التدابير ضربة قاسية إلى توسع التجارة البحرية واضطر آلاف اليابانيين المقيمين في الخارج والذين غدوا منقطعين انقطاعا كاملا عن وطنهم الأم وفقدوا هويتهم إلى الإندماج بسكان عواصم آسيا الجنوبية الشرقية الكبرى.

وعلى الرغم من بقاء التوكوغاوا مخلصين لسياسة العزلة الشديدة هذه فإنهم اتخذوا احتياطا عاقلا في ألا يقطعوا كل احتكاك مع الخارج وأبقوا ناغازاكي نافذتهم المفتوحة على العالم حيث بإمكان التجار الصينيين - بعد مراقبتهم مراقبة شديدة - أن يرسوا فيها وأن يبادلوا منتجاتهم. أما التجار الهولنديون فوجب عليهم أن ينقلوا المركز التجاري الذي كان لهم في هيرادو إلى جزيرة صغيرة في مرفأ ناغازاكي حيث وجب عليهم أن يتعايشوا مع حياة الحصر GHETTO.

عقليات مجمدة على القديم:

إن التدابير التي اتخذها آل توكوغاوا بغية تأمين دوام نظامهم كانت ثقيلة النتائج. فقد خنقت كل قوى التغيير الاقتصادي والاجتماعي وأمسكت بالبلاد في عزلة تولد عنها التخلف العلمي الصناعي. وتوقف السكان عن التزايد بعد عام ١٧٠٠ واستقروا على حوالي ثلاثين مليونا خلال المائة وخمسين عاما الأخيرة من عهد التوكوغاوا.

ومن العدل أن نعترف بأن التوكوغاوا توصلوا تماما إلى غايتهم في الاستقرار السياسي. فمن أواسط القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تقم أية ثورة ولا أي اضطراب ولا أي حادث بتهديد سلطانهم. ولكن يمكننا أن نستثني من ذلك بعض انفجارات غضب للرجال أو للطبيعة، هددت تهدد دوريا السلامة العامة. من ذلك حريق كبير في إيدو، هزة أرضية شديدة التخريب، آخر ثوران هام لبركان فوجي ياما عام

١٧٠٧، انتفاضات دورية لسكان المدن الذين آل أمرهم إلى الشقاء - أهمها انتفاضة أوزاكا عام ١٨٣٧ - أو ثورات دورية لفلاحين أثقلتهم الضرائب أو أسخطتهم ابتزازات الموظفين. ومع ذلك فإن هذه الثورات لم تؤد قط إلى ثورة عامة تضع في حسبانها النظام السياسي والاجتماعي للبلاد.

ويمكننا أن نقدم لأنفسنا فكرة سليمة عن الاحتياطات التي اتخذت للمحافظة على الهدوء السياسي بالاعتماد على واقعة الرونانات (RONIN) السبعة والأربعين التي حدثت بين عامي ١٧٠١ - ١٧٠٣ . وتلك هي الحادثة السياسية الوحيدة خلال هذين القرنين التي أثرت في الحساسية العامة لدرجة أنها أصبحت موضوعا لا ينفر للإلهام الأدبي المأسلوي. وتروي القصة حكاية دايميو استل سيفه على أثر إهانة كبرى تلقاها من موظف كبير في بلاط الشوغون وجرح به الرجل الذي ثلم شرفه. وبما أن استعمال السيف ممنوع في حرم قصر إيدو فإن السلطات حكمت على الديميو السيء الحظ بأن ينتحر وصادرت أملاكه ففقد أتباعه من الساموراي نتيجة لذلك كل الامتيازات المنوطة بهم، وأصبحوا (رونان) أي ساموراي مسقطي الرتبة ولا ينتمون لأي سيد. سبعة وأربعون منهم نذروا على أنفسهم أن ينتقموا لسيدهم. وبما أنهم يعرفون أن الحكومة لا تعدم الوسيلة لمراقبة حركاتهم فإنهم سعوا في بادئ الأمر لإطفاء ظنونها واستمروا عامين ينتظرون بصبر ساعة الانتقام. أما زعيمهم فقد أظهر لكل العيون أنه يعيش حياة تهتك وهوان لإبعاد الشكوك التي لا تزال تدور حوله. وأخيرا في ليلة مثلجة تجمع الرونانات السبعة والأربعون في إيدو وتسللوا عبر شق إلى منزل عدوهم وانتقموا لسيدهم بأن اجتزوا رأس الرجل الذي أهانه كما اجتزوا رؤوس عدد من الساموراي من أتباعه. لقد استغفلوا سلطات إيدو وجعل لهم ولاؤهم المخلص تجاه سيدهم شهرة سريعة كأبطال وطنيين. وبعد كثير من المداولات قررت الحكومة أن تسمح لهم بالتكفير عن جريمتهم بطريقة مشرفة هي الانتحار على طريقة سيبوكو SEPPUKU ، وهذا النوع من الانتحار الذي نسميه هاراكيري يقوم على بقر البطن، ولا نزال نرى حتى اليوم في إحدى المقابر الهادئة في طوكيو لحودا بسيطة يستريح فيها الرونانات السبعة والأربعون جنبا إلى جنب.

قرنان من السلام الداخلي المفروض بكل همة يقظة رزحا على تصرفات المواطنين وأصبح يابانيو القرن السادس عشر المغامرون الجريئون رعايا مطيعين ينتظرون بكل

خضوع وتواضع من رؤسائهم المتسلسلين أوامرهم كي ينفذوها باستسلام كامل. فقد تعلموا أن يحترموا بكل دقة قواعد سلوك ثابتة، وفي حال غياب توجيهات خاصة كان يكفيهم أن يراقبوا التصرف الشائع المقبول ليعرفوا كيف ينظمون سلوكهم. وترسم لنا هذه الطاعة الجماعية صورة شعب منطو على نفسه تقوم مثاليته مقام الإجماع. وفي مطلع القرن التاسع عشر كانت المتناقضات قليلة الظهور، فقواعد الأدب يراعيها الجميع واللجوء إلى العنف أمر استثنائي الحدوث، وقليل من البلاد من نستطيع أن تفاخر بتمتعها بمثل هذا السلام الاجتماعي ونادرة هي الشعوب التي عرفت خلال تاريخها حالة مشابهة من الخضوع لأوامر صادرة من الأعلى وتقاليد لا تدرك أصولها الظنون. وعندما كان على اليابانيين أن يواجهوا بالمصادفة حالة مستحدثة لم يروا مثيلا لها من قبل فإنهم يظهرون قدرة على التكيف أقل من القدرة التي تبديها شعوب أخرى. على أننا يجب أن نحترس من أن نستنتج من ذلك أن الأحداث الخارجية لم تكن تؤثر فيهم فقد حدث لهم أن لجؤوا إلى العنف في حالات بدا فيها أن السلوك اللطيف الذي عرفوا به غير قابل للتطبيق. وربما كان بالإمكان أن نجد هنا واحدا من تفسيرات التناقض بين الخضوع الخانع الذي عرف به المواطنون اليابانيون وبين التطرفات الممزوجة أحيانا بالقسوة التي أسلموا أنفسهم إليها تجاه الأجانب في النصف الأول من القرن العشرين.

وبالإجمال فإن الحقبة الطويلة من السلام في عهد التوكوغاوا كانت خيرا في كثير من النواحي ولكن التوكوغاوا بقطعهم حركة التقدم الاجتماعي والاقتصادي الطبيعية بلوروا نظاما سياسيا واجتماعيا عفى عليه الزمان وخلدوا بطريقة مصطنعة بنى وعقليات إقطاعية ما كان لها أن تبقى في مجتمع متحرر من العوائق ومفتوح على العالم الخارجي. وقد حافظوا بدون أي تغيير على نظام سياسي اجتماعي كان بدا منذ مطلع القرن السابع عشر نظاما محافظا بين المحافظة. وكان لابد من انتظار منتصف القرن التاسع عشر حتى توضع هذه البلاد المعاقة بعتاقة ملاكاتها الفكرية وبناها الاجتماعية وجها لوجه أمام الأوروبيين الذين حققوا خلال القرنين السابقين قفزة مدهشة إلى الأمام في حقل التجربة الإنسانية.

❋ ❋ ❋

غروب الإقطاع

في مسعاهم للاستقرار والانعزال لم يتوصل التوكوغاوا إلى إبطال تأثيرات قوى التغيير إبطالا تاما ولا إقاف تيار التطور الطبيعي للتاريخ. ومن المؤكد أن تجميد المؤسسات السياسية في بلد من البلاد هو أسهل من إيقاف الآليات التي تتحكم في حياته الاقتصادية والاجتماعية. فمنذ القرن السادس عشر أمكن للمجتمع والاقتصاد اليابانيين أن يتخلصا جزئيا من طوق الاقطاع لأن حكومة إيدو صاحبة السلطة نفسها لم تتمكن من إعادة كل القيود الماضية.

تشكيل سوق قومي:

إن عمل الوحدة والسلام الداخلي الذي حققه التوكوغاوا دق ناقوس الحزن على نظام الإقطاع. فتحقيق الوحدة القومية بإلغاء ألف عائق وعائق تشل المبادلات في عهد الأشيكاغا شجع على ازدهار التجارة، وعلى الرغم من تجزئة اليابان إلى دايميات فإنها أصبحت مجالا اقتصاديا كامل التوحيد. وفي القرن التاسع عشر أصبح السوق القومي نقطة انطلاق لانتشار التحديث الذي ارتبط بعودة انفتاح البلاد.

وقد مهدت المركزية السياسية حول إيدو لوحدة البلاد الاقتصادية ولعب نظام السانكان كوتاي[٤] بوجه خاص دورا حاسما لأنه يلزم الدايميو على ممارسة حياة مزدوجة وعلى أن يتحملوا كل عام مصاريف باهظة من أجل التنقل بين ممتلكاتهم وبين العاصمة. ولمواجهة هذه الأعباء المالية وجب عليهم أن ينموا إنتاجهم من الأرز ومن الحبوب الزراعية

---

[٤] هو النظام الذي يلزم الدايميو الإقطاعيين على توزيع إقامتهم بشكل دوري بين البلاط وبين إقطاعاتهم. – المترجم –

المختلفة والمصنوعات الجيدة. ومن جهة أخرى فإن الوصاية الممارسة من قبل الشوغون على المنطقة الوسطى – التي كانت البؤرة النشيطة الوحيدة في البلاد – وعلى المدن الرئيسية كانت العامل الثاني للتقدم الاقتصادي. ورغم العوائق التي أعاقت تنقل المنتجات والرقابة التي تفرضها الاحتكارات الملكية العديدة فإن تجار المدن الكبرى الأقوياء بحماية الشوغون لهم بدؤوا بممارسة نشاطهم على مستوى الأرخبيل كله، وتمكنوا – باعتبارهم معفيين من المكوس والقيود التي عرفها العصر المنصرم – أن يستغنوا عن دعم التنظيمات النقابية القديمة الحامية. وكان معظم هذه النقابات قد أصبح مهملا بينما المشروعات المستقلة والشركات التجارية أو الصناعية القائمة على مبدأ المبادرة الحرة تنموا وتتكاثر في جو اقتصاد مغاير إلى أعمق الحدود.

ومع ذلك فإن التوكوغاوا والدايميو ومجموع الطبقة الأرستقراطية تمسكوا كلهم وبعناد بفكرة أن الزراعة تشكل المورد الوحيد لثروة البلاد. واستمروا يقيسون مداخيلهم على أساس الكوكو KOKO من الأرز في الوقت الذي وجدت فيه المدن طبقة نشيطة من التجار أرست قواعد اقتصاد تبادلات لا يتفق إلا قليلا مع بنى مجتمع إقطاعي. وقد عرفت العاصمة الإمبراطورية القديمة كيوتو حيوية جديدة وغدت مركز إنتاج لصناعة بحرية ذات نوعية عالية استمرت بعدها حتى هذه الأيام. أما أوزاكا فبفضل موقعها الستراتيجي في أقصى الشرق من البحر الداخلي ارتقت إلى مرتبة المرفأ التجاري الأول لليابان الغربية حيث بنى فيها كثير من الدايميو بيوتا تجارية يصرفون فيها إنتاجهم الزراعي أو يسلمون أنفسهم فيها إلى نشاطات اقتصادية كثيرة التنوع. وتجاوزت إيدو في أهميتها كلا من كيوتو وأوزاكا الأقدم منها، وفي القرن الثامن عشر بلغ عدد سكانها مليونا من الأنفس بفضل إجبار النبلاء على التمسك بالسانكان كوتاي، وجعل منها هذا التمركز البشري أول تجمع سكاني في العالم وهو رقم قياسي لا تزال تحافظ عليه حتى اليوم بعد أن غدا اسمها طوكيو. وبفضل هذه الظروف الجديدة تطور نظام نقدي حقيقي في مجموع الأرخبيل وصارت الزراعة تمد التجارة بنسب متزايدة من إنتاجها في السوق القومية وغدت الثقة في جميع أشكالها واسعة الإنتشار في المبادلات ذات الأهمية، وكانت بورصتان تجاريتان إحداهما في أوزاكا والثانية في إيدو تنشران التبدلات اليومية لأسعار الأرز. والتجار الذين يحتلون في السلم الاجتماي ذي الجذور الأرستقراطية المكانة الأدنى أمنوا لأنفسهم دورا

مسيطرا في الحياة الاقتصادية. فمنذ نهاية القرن السابع عشر نجد في كل المدن الكبرى طبقة من التجار والمقرضين الفطنين المحنكين الذين اكتسب بعضهم ثروات ضخمة من أمثال آل ميتسوي الذين وجدوا أنفسهم في النصف الأول من القرن العشرين على رأس أقوى تكتل اقتصادي في العالم. وفي ظل هذا الاقتصاد النقدي المزدهر كان الدايميو والساموراي كثيرا ما يعانون من صعوبات مالية خطيرة حتى أن الكثيرين منهم وجدوا أنفسهم مدينين للأغنياء من تجار المدن. ثم ما لبثت الحدود الفاصلة بين الأرستقراطية وطبقة التجار أن بدأت تمحى عن طريق لعبة المصاهرات المعقدة ولعبة خطوط السير الشخصية من النكوص أو الصعود الاجتماعي. ومع ذلك فإن معظم التجار كانوا مدركين كل الإدراك تبعيتهم للسلطات الإقطاعية فحافظوا تجاههم على موقف من الحيطة والحذر والحصانة. ولكن في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بدأت طبقة جديدة من الملتزمين والمقاولين أكثر عدوانية تنبثق من مناطق الريف، وكان ظهورها إيذانا باستيقاظ الأرياف اليابانية.

يقظة الأرياف وعدم استقرارها:

كثير من الدلائل تشير إلى كفاف أساسي في شروط الحياة الفلاحية اليابانية انطلاقا من القرن الثامن عشر : مجاعات متناوبة، ثورات كثيرة، مالتوسية ديموغرافية° بين الريفيين بدأ من عام ١٧٠٠ . وعلى الرغم من هذه الظواهر المرضية التي تشهد على حياة شقاء خطير فإن اليابان الريفية سجلت خلال كل هذا الحقبة نجاحات منتظمة بدت في زيادة الدخول وفي تخصص في الزراعات وتعديلات في التقنيات الزراعية وتكامل في النشاطات الريفية وفي التداولات الاقتصادية القومية. ولم يعد الفسخ بين طبقة المحاربين وطبقة الفلاحين الذي أقامه هيدي يوشي وآل توكوغاوا ينطوي على مشاهد سلبية فحسب، وإذا بقيت الطبقة الأرستقراطية في بعض الإقطاعات تمارس كل السلطات فإن الفلاحين في كثير من المناطق كانوا أحرارا في تنظيم حياتهم القروية على هواهم ما أن يظهروا أنهم مسالمون وأنهم يدفعون الضرائب. وفي كثير من الأحيان كانت الأرض تقسم إلى قطع عائلية صغيرة يختص بها الفلاحون أنفسهم من الناحية العملية إن لم يكن من الناحية

° أي زيادة في السكان لا يستوعبه إنتاج الأرض - المترجم -

القانونية. وأصبحت زراعة المواد الغذائية تميل إلى أن تكون متناوبة مع زراعة تماشي السوق. ومن أجل إنجاز الأعمال الكبيرة لم يعودوا يترددون في استئجار يد عاملة مأجورة. وهذه كلها إشارات كاشفة عما كان يعانيه النظام الاقتصادي ذو الطابع الإقطاعي من ضعف وسقام.

كذلك ساهمت الأرياف اليابانية في حقبة التوكوغاوا في التقدم الثقافي والفكري. فبينما كان محاربوا القرن السادس عشر بوجه عام أناسا غير متعلمين فإن الساموراي الخاضعين لتربيتهم الكونفوشيوسية ولمتطلبات إدارة ذات نموذج بيروقراطي كانوا غالبا ذوي عقول متثقفة هم أحيانا من المفكرين. هذا التطور الذي أملته متطلبات اقتصاد أكثر تعقيدا أثر أيضا في طبقة التجار وفي النخبة من الريفيين. وفي كثير من الإقطاعات غدونا نرى ظهور مؤسسات تعليمية مخصصة للساموراي بينما يجب على سكان المدن والفلاحين أن يقنعوا بأكاديميات صغيرة خاصة عرفت باسم (مدارس الأديرة) ، ويقدرون أنه في نهاية حقبة التوكوغاوا كان حوالي ٤٥% من الرجال يعرفون القراءة والكتابة مقابل ١٥% فقط من النساء، ومثل هذه النسب المئوية يفترض بسهولة إنها مساوية لنسب البلاد الأوروبية في الحقبة نفسها بينما هي تتجاوز تجاوزا كبيرا نسب البلاد الآسيوية الأخرى.

فن باروكي من إيحاء شعبي:

إن نفوذ طبقة التجار في الحياة الاجتماعية في عصر التوكوغاوا ربما بدا بطريقة أكثر وضوحا في الميدان الثقافي أكثر من ظهوره في الميدان الاقتصادي الخالص. فالفنون والآداب من هذه الحقبة تعكس اهتمامات برجوازية المدن أكثر مما تعكس اهتمامات الأرستقراطية الإقطاعية. وقد غدت المدن في ظل التوكوغاوا مراكز الحضارة وغدت مجال التسلية مسرحا لحياة اجتماعية مكثفة فيها التاجر المتعب والساموراي المتهاوي يقفان جنبا إلى جنب بعد أن سمحت لهما المدينة بأن يتحررا من الواجبات المنزلية والإرغامات الاجتماعية الثقيلة وأن يتمتعا بحرية بمجتمع النساء وفي هذه الظروف رسمت خطوط صورة الجيشا GEISHA ، تلك الصحبة الناعمة التي عرفت كيف تتعامل في الموهبة نفسها مع الغناء والرقص والمحادثة الممتعة.

إن كل المنتجات الفنية والأعمال الأدبية من هذه الحقبة مرتبطة ارتباطا وثيقا بانتعاش

أماكن التسلية تلك. ففنانو عصر التوكوغاوا كانوا يحبون أن يلتهموا كل أنواع الجمال التي تزداد شوارع حارات اللذة، فسايكاكو SAIKAKU روائي القرن السابع عشر الياباني الكبير وضع في هذه الأوساط الفاسدة الأخلاق حبكات قصصه الإباحية. ومع تقدم الطباعة عرفت مؤلفات سايكاكو والكتاب الشعبيين الذين ظهروا في تلك الحقبة خطوة عظيمة في الأوساط المدنية.

كذلك كان المسرح يعكس أذواق طبقة التجار. ففي القرن السابع عشر تطورت عروض مسارح العرائس فولد منها شكل فني درامي جديد عرف باسم الكابوكي، ولايزال مسرح العرائس والكابوكي موجودين ولهما مريدون مموّلون. ويتميز الكابوكي بوجه خاص بواقعية سير الأحداث والإخراج، وهو يستعمل المشاهد الأصيلة بنجاح ومنتجاته من نواحي عديدة أفضل من منتجات الغرب. والكابوكي يتعارض معارضة شديدة مع إيقاع النو NO[٦] البطيء الخالي من المفجآت الذي كان سائداً في عصر الأشيكاغا لأنه يقدم للمشاهد لحظات من القلق والترقب ويكثر استعماله في الفصول العنيفة الميلودرامية.

أكبر كاتب مسرحي من عصر التوكوغاوا هو شيكاماتسو (١٦٥٣ - ١٧٢٤) الذي استمد موضوعاته من التاريخ القومي ومن حياة البسطاء من سكان المدن الذين استعار منهم بشكل خاص موضوع الانتحار المردوج لعشاق محاربين.

وشكل الشعر الأكبر شعبية يومذاك هو الهايكو HAIKU الذي كان تأليفه المعتن به يتفق بصورة رائعة مع حساسية سكان المدن مع أنه في الواقع أكثر قرابة لزين ZEN منه إلى العقلية البرجوازية. ومع أنه مشتق من (القصائد القصيرة) التي ظهرت في العصر الكلاسيكي فإن الهايكو له كذلك إيقاع أكثر اختصارا لأنه يضم سبعة عشر مقطعا بدلا من واحد وثلاثين. وقد غدا تحت ريشة معلم كالكاهن الشاعر باشو الذي عاش في القرن السابع عشر إبداعا ذا قدرة كبيرة على الإيحاء. فجملة أو جملتان منه تكفيان للإمساك بلعبة الفروق الدقيقة والانفعالات الهاربة التي يستطيع أن يثيرها مشهد بسيط. وقد استعمل الهايكو في اختصاره مادة لفظية أكثر إيجازا أيضا من (القصيدة القصيرة) التي عرفها العصر المنصرم، ودأب الآلاف من ناظمي الشعر على تهذيب هذا النوع الجديد الذي

[٦] النو NO هي الدراما الغنائية التي لعب الرهبان البوذيون دورا هاما في ظهورها وغايتها أن تعلم المشاهد عناصر المذهب البوذي - المترجم -

انتهوا به إلى أن أصبح نوعا من الصنعة في الأسلوب فيه شيء من الحذلقة في أغلب الأحيان.

في عهد هيدي يوشي والتوكوغاوا الأوائل تحررت مفاهيم الجمال شيئا فشيئا من نفوذ زين الذي وضع علامته على كل الأعمال من عصر الأشيكاغا. فبعد المناظر الطبيعية المليئة بالصفاء التي شكلت الموضوع المفضل لرسامي العصر السابق ساد ذوق من الرفاهية والبذخ في الرسم أكثر انسجاما مع عصر من العظمة السياسية والأمجاد العسكرية. فشيدت قصور فاخرة وزينت بزينات بذلت فيها جهود كبيرة. والأعمال الأكثر ميزة من هذا العصر كانت ستائر رائعة ومأطورات تزيينية عولجت فيها مشاهد ذات ألوان زاهية تبرز فوق خلفية مذهبة. هذا الجمال الذي يعتمد على الغزارة وجد أيضا تعبيره في فن الحدائق الذي تخلى عن النمنمة وفي فن للبناء مال طواعية إلى التكلف. أما المدافن الحمر الزاهيات التي تعود إلى أوائل التوكوغاوا والتي يمكن زيارتها دائما في موقع نيكو NIKKO الخطر الغابي إلى الشمال من إيدو فهي بوجه خاص ممثلة لفن الباروك الياباني. فنحن هنا على النقيض من الروحانية العميقة التي تشع من تماثيل الكهنة التي استمر فن النحت الياباني يقدمها بدون انقطاع حتى نهاية القرن السادس عشر، إذ اكتسب النحت منذ الآن وظيفة أساسية تزيينية وأصبحت رسالته زخرفة المعابد والقصور بزخارفه العديدة.

ومنذ السنوات الأولى من شوغونية التوكوغاوا تميزت المنتجات الفنية بإيحاء أكثر شعبية مما كانت عليه في ظل الأشيكاغا، والبرهان على ذلك يقدمه الميل إلى التماثيل الصغيرة والزينات الرخيصة وانتقاء الموضوعات التزيينية المستمدة غالبا من حياة الشعب البسيط في المدن. وإذا استمر بعض كبار الفنانين في إنتاج أعمال مخصصة للطبقة الأرستقراطية فإن معظمهم ربط نفسه بإرضاء الأذواق البورجوازية الجديدة. كذلك انتشرت إعادة إنتاج الصورة الفنية الواحدة عن طريق نقشها على الخشب فيصبح بالإمكان طباعتها على نسخ عديدة عن طريق أداة الطبع الخشبية هذه ذات الألوان العديدة وبأسعار مناسبة. والموضوعات التي أعيد إنتاجها أكثر من غيرها كانت لممثلين شهيرين وغانيات شهيرات ونساء أنيقات، وكن يمثلن أحيانا بإيحاء فيه شيء من الجنس الخفيف. ثم انتشر بعد ذلك ذوق إعادة إنتاج المناظر الطبيعية والمواقع، ومثل هذه اللوحات هي الجدود

البعيدون لبطاقات البريد المصورة في عصرنا الحاضر. هذه التقنيات هي بالتأكيد واحدة من اوائل الظواهر المعروفة في العالم لفن شعبي حقيقي، وقد بلغت أوجها في مطلع القرن التاسع عشر بالصورة الطبيعية التي رسمها إثنان من كبار الأساتذة هما هوكوساي وهيروشيج. والدامغة التي أوصلاها إلى درجة من الكمال لم تبلغها من قبل ستغدو في الغرب أكثر الدامغات شهرة في الأنماط الفنية اليابانية.

في ظل التوكوغاوا اعتمد التقدم في إنتاج الأعمال البالغة الإتقان على كمال التقنيات الحرفية. فقد تبنى صانعوا الزخرفات والبورسيلين طرائق الخزافين الكوريين الذين أخذوا أسرى في جيوش هيدي يوشي ووهبوا الأرخبيل خزفا قوميا من نوعية ممتازة من الناحيتين التقنية والفنية. أما صناعة النسيج التي تقدمت تقدما سريعا فقد قدمت انواعا من البروكار الحريري الفاخر بينما عرف إنتاج البرنيق التزييني تقدما لم يسبق لهخ مثيل. في هذه المجالات المختلفة أثبت اليابانيون ذوقا جماليا أكيدا بحيث أن الإنتاج على نطاق واسع لم يفسد قط. وغدا تنظيم الاقتصاد الياباني موسوما حتى اليوم بهذا الإنتاج الضخم ذي النوعية العالية والذوق الجمالي المعصوم عن الأخطاء.

انجذاب جديد نحو أوروبا:

مع ولادة الاقتصاد التجاري وصعود برجوازية المدن لم ينقطع العطش إلى المعارف والميل إلى التأمل الفكري عن تاكيد نفسيهما. وقد ترجم هذا الفضول في بادئ الأمر بالعودة إلى الاهتمام بأوروبا والأشياء الأوروبية. وبدت المسيحية واخطار الاقتحام الأجنبي بعيدة جدا حتى أن يوشيمون وهو الشوغون الحازم الوحيد في كل القرن الثامن عشر رأى في حوالي عام ١٧٢٠ أن بالإمكان رفع الحظر الفروض على استيراد الكتب الأوروبية باستثناء الكتب الدينية بطبيعة الحال. وعند ذلك قامت قبضة من الرجال كانت شهيتهم للفكر تعدل من ضعف عددهم بتكريس نفسها لدراسة العلوم الأوروبية وعقدت اتصالات مع التجار الهولنديين في ناغازاكي لتعلم لغتهم. وفي نهاية بضعة عقود من السنين ألف هؤلاء المريدون الجدد (للدراسات الهولندية) قاموسا هولنديا - يابانيا وترجمو إلى اليابانية بحثا في علم التشريح. وفي حوالي منتصف القرن التاسع عشر غدا العديدون من اليابانيين خبراء في الاختصاصات الغربية المتنوعة كصناعة السلاح والسباكة وصناعات السفن البحرية وعلم الخرائط والفلك والطب. ورغم قلتهم فإنهم شكلوا

فريقا من التقنيين ذا قيمة كبرى وقادرا على إعطاء دفعة جديدة لتطور العلوم.

على أن يقظة الوعي القومي هي التي مهدت بوجه خاص لتحديث البلاد. ونحن نرى في هذه الناحية أن الشعور الوطني ظهر في اليابان أبكر من ظهوره في بقية البلدان الآسيوية وأكثر حدة. وقد انتشر وتقوى خلال تطور امتد على عدة قرون. ويعود أول تعبير عنه إلى القرن السادس عشر أي إلى الحقبة العظيمة التي تم فيها الاقتباس من الصين والتي وعي فيها اليابانيون كلهم تخلفهم أمام حضارة القارة الصينية الواسعة.

ونحن نذكر على كل حال أن كوريا والبلاد الأخرى من جنوب شرقي آسيا التي كانت أحوالها حيال الصين شبيهة بحال اليابان ستكون أكثر بطئا في اكتشاف هويتها القومية. وسبب هذا التأخر يعود بدون شك إلى جوارها الجغرافي وتبنيها المبكر للممارسات السياسية والاجتماعية الصينية وتبعيتها العسكرية الدورية لجارتها القوية. وهذه العناصر كلها شكلت عقليات خضعت للتبعية الثقافية والارتباط السياسي. وعلى العكس من ذلك كان اليابانيون، فهم مفصولون عن القارة بالبحر ولم يهزموا قط أمام الجيوش الصينية، وفي أثناء كل عصر الإقطاع عرفوا كيف يحافظون على استقلال مؤسساتهم. يضاف إلى ذلك أن تجانسهم العرقي وحاجز اللغة الذي لا يخترق (وهو القائم أيضا بالنسبة للكوريين) أفشلا كل المحاولات للابتلاع الثقافي. والمرء يدرك من خلال هذه الشروط أن اليابانيين لم يسعوا قط سعيا حقيقيا إلى أن يحملوا هوية الصين، وهم لم يسلموا أنفسهم إلى أوضاع مشابهة إلا من أجل أن يؤكدوا أصالتهم أكثر وأن يدافعوا عن قيمهم الخاصة. وربما كانت اليقظة المبكرة للشعور القومي في البلاد الأوروبية الشمالية تنبثق هي أيضا من إرادة التعويض عن الشعور بالدونية التي كانت يحسونها تجاه الأراضي العتيقة في حضارتها والواقعة في حوض البحر المتوسط. كذلك تنير لنا دراسة انتشار الفكر القومي الياباني بعض جوانب الظاهرة القومية إذا نظرنا إليها في مجموعها.

قومية تغذيها أعمال المؤرخين:

ظهرت التصرفات القومية الأولى في عهد الكاماكورا. فقد زين نيشيرين ورؤساء دينيون آخرون مواعظهم بإرشادات وطنية مؤثرة. وتشهد الكتابات السياسية التي تعود إلى مطلع عهد الأشيكاغا على ميول مماثلة. وكان احد البحاثة قد ألف تاريخا لليابان كله تقريظ لغو-ديغو، والقصة تشيد بفضائل نظام سياسي يرتبط بسلالة إمبراطورية ذات

أصل إلهي وتمثل الأرخبيل على أنه أرض مباركة من الآلهة.

وقد ساهم كهنة الديانة الشنتوية عن طريق نفوذهم الفكري بيقظة الشعور القومي. وكانت الشنتوية SHINTO قد انبثقت منذ فترة قصيرة بعد كسوف دام عدة قرون كانت آلهتها خلالها غدت مجرد تجسدات محلية لبوذا العالمي. وفي أثناء عصر الإقطاع نجحت في أن تتحرر من سيطرة البوذية وتجد لنفسها مرة أخرى زخما مذهبيا جديدا بعد أن قام اتحاد وثيق بين المفاهيم المستعارة من البوذية الصينية وبين عبادات الشنتو الطبيعية البدائية. وقد تشجع الكهنة الشنتويون بهذا التجديد وما لبثوا أن وطدوا تفوق ديانتهم على البوذية التي اعتبروها ديانة أجنبية، والأكثر تساهلا بينهم قبلوا بأن يعتبروا الآلهة البوذية تجليات ثانوية للآلهة اليابانية.

وقد جعل القرنان من العزلة اللذان فرضتهما عائلة توكوغاوا على الإسراع في نمو الوعي القومي. فطرد الأوروبيين وتحريم المسيحية في مطلع القرن السابع عشر تعهد لمدة طويلة بتنمية حركة كراهية شديدة للأجانب. وفي الوقت نفسه فإن الرعاية الرسمية التي أولاها التوكوغاوا للكونفوشيوسية قوت الشعور القومي بتحريضها لعودة الاهتمام بالدراسات التاريخية. ومال مؤرخون نحو الأساطير والخرافات التي كانت سائدة في اليابان البدائية والمسجلة في حوليات KOJIKI ونيهون شوكي NIHON SHOKI القديمة. وفي ميتو أنشأ أحد أعضاء الفرع الكبير من عائلة التوكوغاوا مدرسة تاريخية هامة شرعت بإعادة تحرير تاريخ تذكاري لليابان كان مكتوبا بالصينية الكلاسيكية، وقد بدأت هذه المدرسة أعمالها في القرن السابع عشر ولم تنته منها إلا في مطلع القرن العشرين. وقد أدت إعادة اكتشاف مصادر التاريخ الياباني إلى إرهاف الإحساس بالفكرة القومية للمرة الأولى بين جمهور المثقفين. وكتب علامةتحريرمن نهاية القرن الثامن عشر اسمه موتوأوري نوريناغا شرحا للكوجيكي غدا وثيقة لكل القوميين. واجتهد نوريناغا أن يكشف عبر أحداث الماضي فضائل اليابان الخالدة، وكما هو شأن معظم المؤرخين في عصره كان ينقب في التاريخ عن تأكيد لتفوق اليابان الذي لم يقدر حق قدره على الصين.

أما النصف الأول من القرن التاسع عشر فقد تميز بظهور شيع شنتوية جديدة مؤلفة على نطاق واسع من اوساط شعبية وأنشئ معظمها من النساء. هذه الشيع مزجت بعبادات الشنتوية الأصلية ممارسات عديدة مستعارة من البوذية وأعلنت أن الأولوية المطلقة هي

للإيمان. ومعظم هذه الشيع مصطبغ بالصبغة القومية إلى حد كبير. ويبرهن نجاحها الذي يشهد له ما أثارته بين الناس من هدايات كثيرة إليها وإيمان بها على أن البوذية لم تعد قادرة على تلبية التطلعات الروحانية للطبقات الشعبية. بعضها مازال حيا حتى اليوم وينتمي إليه بضعة ملايين من المريدين.

إن بحوث المؤرخين وعلماء الشنتوية في أصول التاريخ الياباني تلقي الضوء على المكانة الهامة التي احتلها الإمبراطور فيما مضى من الزمان. وبينما القوميون يحبذون استمرار السلالة الإمبراطورية من غير انقطاع ويعتبرونه واحدا من أفضل سمات الفخار للأرخبيل فإن التوكوغاوا اهتموا من جديد بالإمبراطور الذي أعادوا النظر قليلا في صلاحياته الملكية. وتنبه الرأي فجأة إلى أن الإمبراطور موجود وأنه يقيم في طوكيو وأنه نظريا على الأقل هو الرئيس الأعلى للبلاد. حقا إنه بقي مجردا من كل سلطة سياسية ولكن سلالته خرجت لأول مرة من الظلام وغدا رمزا قوميا مهما وبدأت بعض العقول تتساءل لماذا يوجد الشوغون؟. وفي نهاية القرن الثامن عشر تجرأ مثقف من كيوتو فأعلن تفوق الإمبراطور على الشوغون فجلب عليه هذا الطيش عقاب الشوغون كما جلبه على كل أمراء البلاطالمقربين من العائلة الإمبراطورية.

وفي خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر استمرت سلطة التوكوغاوا تمارس دون عوائق ملموسة. ولكن وراء واجهة غير متحركة في الظاهر كانت قوى قوية من عدم الرضا تعمل في أعماق الأمة نفسها. ووراء الطوق المزدوج الحامي لنظام سياسي يزيد من تصلبه تشبث بالقديم وفلسفة اجتماعية رجعية بكل تصميم قامت نخبة من النموذج البيروقراطي تؤمن لنفسها السيطرة الفعالة على جماع الهيئة الاجتماعية. وكانت القضية الإمبريالية تتقدم مهددة بالخطر سلطة الأرستقراطية الإقطاعية في البلاد. فقد أدى النمو الاقتصادي السريع إلى تطور في المبادلات قابل لأن يدخل البلاد في ازدهار وتقدم شاملين. إذ انتشر التعليم وأصبحت العقول تتقبل عن طواعية الأفكار الجديدة أكثر من ذي قبل. وعلى الرغم من انقسام البلاد المستمر وكثرة الاقطاعات فقد كان يوجد وعي قومي على وشك الولادة وهو ينبئ بقيام دولة حديثة.

وهكذا بلغت اليابان نهاية عصر من النضج تهيأت خلاله لاستيعاب أفضل التقنيات والأنظمة الغربية. ويبقى السؤال المطروح هو معرفة لماذا اليابان هي الدولة الوحيدة غير

الغربية التي دخلت منذ القرن التاسع عشر في طريق التطور. والجواب على هذا السؤال هو الذي يقدم لنا حسابا عن النجاحات أو الأفشال التي صادفتها البلاد التي دخلت معركة التحديث في وقت لاحق. ويبقى الانعطاف الذي عرفت اليابان كيف تحققه في القرن التاسع عشر غير مفهوم إذا قرر المرء أن يتجاهل عصر التوكوغاوا الذي كان نفسه مرتبطا ارتباطا وثيقا بالتجربة الإقطاعية السابقة. ومن الأمور ذات المغزى أن نشاهد أن أوروبا الغربية لم تحقق تبدلها في مجالات التقنية والمؤسسات والأديولوجيا إلا يوم تخلصت من تجربة إقطاعية مماثلة. وما بين تطور اليابان وتطور أوروبا يوجد توازن ليس عرضيا كله بدون شك. فهاتان هما المنطقتان الوحيدتان في العالم اللتان عرفتا مجتمعا إقطاعيا حقيقيا وهما اللتان سبقتنا إلى الدخول في دائرة التنمية الاقتصادية. ويدعونا وجود مثل هذا التلازم إلى التفكير بأن تجربة إقطاعية ربما تشكل أفضل تمهيد لتطور قوى التحديث في أي بلد من البلدان.

❋ ❋ ❋

في مدرسة الغرب

في حوالي منتصف القرن التاسع عشر كابدت اليابان بلبلات عميقة. فنظامها السياسي الذي بدا في القرن السابع عشر منطويا على مفارقة تاريخية أصبح يحمل الآن أثقال قرنين من التمسك بالقديم. واليقظة القومية ونهضة الاقتصاد التجاري تستدعيان ظهور نظام سياسي جديد. ولكن التوكوغاوا طوروا عادات الاستقرار بحيث أن الآلة السياسية والإدارية القديمة تابعت حركتها بدون تغيير، فلابد من تدخل قوة خارجية كقوة الأوروبيين والأمريكيين من أجل إنهاكها.

في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر اجتاح الروس المساحات السيبيرية الواسعة حتى وصلوا إلى المحيط الهادي وحاولوا أن يقيموا اتصالات مع اليابانيين. وفي الفترة نفسها تقريبا سعى الإنكليز الذين حلوا محل البرتغاليين في تجارة آسيا الشرقية البحرية للولوج إلى الأرخبيل. ورغب الأمريكيون خاصة أكثر من الآخرين أن يفتحوا لأنفسهم مدخلا إلى مرافئ اليابان، وكانت مراكبهم لصيد الحيتان تمخر عباب المحيط الهادي الشمالي وتأتي للصيد في مياه اليابان الإقليمية. أما سفنهم الشراعية البعيدة المدى التي تقصد الصين فكانت تتلاقى بالقرب من سواحل الأرخبيل في كل مرة تتخذ فيها لنفسها طريق الباسيفيك الدائري الكبير. ولابد أنهم تمنوا أن تتمكن مراكبهم من الحصول على محطة في مرافئ اليابان لإعادة تموينها. ولما ظهرت الملاحة التجارية سارعت بتحريض أصحاب السفن ومموليها إلى إعادة السعي مع اليابان لاستخدام مرافئ فيها لتموين سفنهم بالفحم. وحدث أخيرا أن سفنا أوروبية أو امريكية صارت تجنح من وقت لآخر على سواحل اليابان فصدر مرسوم شوغوني يحكم بالموت على كل أجنبي يضع قدميه فوق الأرخبيل. وعلى الرغم من أن هذا التشريع لم يطبق فإن الغرقى الذين نجحوا في العودة

من اليابان عن طريق ناغازاكي كانوا يروون قصصا مرعبة عن قسوة اليابانيين.

((البرابرة)) أمام الأرخبيل:

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حاول الأمريكيون والأنكليز والروس إرسال بعوث متكررة إلى الأرخبيل على أمل إقناع سكانه بفتح مرافئهم أمام التجارة البحرية. وضغط الهولنديون بإلحاح على التوكوغاوا لقبول هذه المطالب ولكن بقيت إيدو مخلصة لسياسة العزلة. وفي داخل البلاد دافع أشياع (الدراسات الهولندية) وحدهم عن نزع الرتاج عن الأبواب. أما أكثرية السكان المنطوية على نفسها منذ أجيال عديدة فإنها بدت مصممة على كراهيتها لقبول الأجانب فوق الأرض الوطنية. وفرضت بديهية نفسها. إن اليابان لن تفتح أبوابها عن طيب خاطر.

وهكذا قررت الحكومة الأمريكية أن تجبر البلاد على الانفتاح فأرسلت إلى الأرخبيل أسطولا قويا بقيادة الأميرال بيري PERRY الذي نفذ في تموز يوليه من عام ١٨٥٣ إلى خليج طوكيو وسلم رسالة من رئيس الولايات المتحدة تطلب إقامة علاقات تجارية بين البلدين. ثم انسحب إلى جزيرة أوكيناوا لتمضية الشتاء فيها ووعد أن يعود في العام التالي للحصول على جواب الشوغون. وكنست إيدو يومذاك ريح من الذعر أدت إلى قيام أزمة داخلية. ومن أجل تحديد فترة الضيق هذه كانوا في العادة يطلقون على العقد الأخير من شوغونة التوكوغاوا اسم الباكوماتسو وترجمته الحرفية هي (BAKUFU). وقد تأثر اليابانيون تأثرا عميقا بحجم (السفن السود) الأمريكية وبمدافعها وهي القادرة بفضل قوة البخار على الصعود إلى الخليج بعكس الريح، واكتشفوا أن مدافعهم الموزعة على طول الساحل لن تقدم أية مساعدة وأن إيدو هي من الناحية العملية بدون دفاع برغم الأسطول المكلف بتأمين الحماية الساحلية.

وانقسمت الحكومة بين اتجاهين. فالأكثر محافظة طالبوا بطرد الأجانب بينما قدر من هم أكثر واقعية أن من الأفضل أن يتم الخضوع دون تأخير لمطالب الأمريكيين. وفي غمرة هذه الحيرة قامت سلطات إيدو بإجراء غير معتاد، وللمرة الأولى منذ ستة قرون من السلطة العسكرية قامت حكومة الشوغون بمشاورة الإمبراطور في هذه القضية القومية الهامة كما طلبت أيضا رأي الدايميو. وكان بلاط كيوتو والدايميو مقتنعين أنهم في منأى عن كل تهديد مباشر فأعلنوا موقفهم بحزم باستبعاد الأجانب. وعندما عاد أسطول

الأميرال بيري في شباط فبراير من عام ١٨٥٤ إلى خليج طوكيو وجدت حكومة إيدو نفسها في مواجهة موقف حرج. فإيدو لم تكن تملك الوسيلة لفرض السياسة التي حددها الإمبراطور والتي يتطلبها مجموع الأمة. وتحت تهديد المدافع الأمريكية تم الخضوع لتوقيع معاهدة تفتح ميناءين للسفن الأمريكية وتسمح بالتجارة ببعض الحبوب على أضيق نطاق. والمحطتان اللتان اتفق عليهما هما شيمودا الواقعة في طرف شبه جزيرة قريبة من إيدو وهاكوداتي في هوكايدو. فكان الأمر إذن يتعلق بنقطتي رسو عارض للسفن ليس لهما شأن كبير ولكنهما برغم عزلتهما النسبية عن مجاري الملاحة الكبرى كانتا تسهلان تزويد السفن الأمريكية بالمؤونة. وسُمح لقنصل أمريكي بأن يقيم في شيمودا.

وبفتحها موانئها مُنعت اليابان إلى الأبد من النكوص إلى الوراء. وفي خلال عامين وقّعت إيدو معاهدات عسكرية مع إنكلترا وروسيا وهولندا. وفي عام ١٨٥٨ فاوض تاونسند هاريس أول قنصل امريكي في اليابان في امر معاهدة تمنح كل المنتمين إلى الولايات المتحدة الأمريكية امتياز (المواطنة الخارجية) أي أن يكون لهم الحق في أن يحاكموا أمام محاكمهم الخاصة ووفقاً لقوانين بلادهم، ثم ما لبثت البلاد الأوروبية أن حصلت على الامتيازات نفسها. هذه الامتيازات التي تبدو مجحفة نجدها في كل المعاهدات السابقة بين الغربيين والصين، وبقبول اليابان لها هي نفسها الأخرى تكون قد تخلت إلى غير رجعة عن عزلتها المجيدة.

هذه الاتفاقات المختلفة سمحت للأجانب بأن يقيموا في خمسة مرافئ كبرى وفي مدينتي أوزاكا وإيدو وتم الاعتراف لهم بحرية تجارة واسعة وبدأ التجار الأجانب في إقامة مراكز تجارية على مقربة من إيدو في مرفأ العيد الصغير يوكوهاما الذي تطور بسرعة حتى أصبح خلال بضعة عقود واحداً من أوسع التكتلات التجارية المرفئية في العالم. وكذلك الأمر مع حوز ENCLAVE هيوغو التجاري الواقع أمام خليج أوزاكا الذي تطور إلى مدينة كوبي المرفئية الكبرى. فيوكوهاما وكوبي هما في البدء مدينتان من أصل غربي ثم توسعتا – كما حدث في الأحواز الأجنبية في الصين – تحت حماية الحاميات الأوروبية أو الأمريكية.

وفهم التوكوغاوا بسرعة أن وسائلهم العسكرية الضعيفة تمسك بهم تحت رحمة الأجانب فبادروا متأخرين إلى إصلاح عسكري وشرعوا في التزود بأسطول شبيه

بأساطيل الدول الغربية. ولكن بلاط كيوتو وأغلبية السادة الإقطاعيين الذين لم يكونوا قد رأوا بعد قوات الغربيين العسكرية الضخمة استقبلوا بتحفظ مجهود تحديث الجيش واتهموا إيدو بأنها خضعت للضغوط الأجنبية وانضموا إلى صرخة: (اطردوا البرابرة).

وقد وضع فرع ميتو من عائلة التوكوغاوا نفسه على رأس المعارضة الموجهة إلى إيدو. وفي عام ١٨٦٠ اغتال جواسيسه (القديم الكبير ، LE GRAND ANCIEN) الذي وقع المعاهدات التجارية الجديدة وحاول بسط سلطة إيدو على الدايميو. وقام محافظون ألداء آخرون من عائلة ساتسوما في جنوبي كيوشيو فاغتالوا إنكليزيا بالقرب من يوكوهاما عام ١٨٦٢. وفي الصيف التالي فتحت قلاع ممتلكات آل شوشو في القرب من هونشو نارها على مراكب أوروبية موجودة في مضيق شيمونوزايكي في الطرف الغربي من البحر الداخلي. وهذه الأعمال المتفرقة هي صدى لأمر طرد الأجانب الصادر عن بلاط كيوتو إلى حكومة إيدو. وبجرأة لا سابق لها لم يتردد الإمبراطور في استدعاء الشوغون إلى كيوتو واستجاب الأخير بتواضع لهذا الطلب مظهرا بذلك أن السلطة قد غيرت اليد التي تمسك بها.

الإمبراطور في مواجهة الشوغون:

لم يكن سقوط التوكوغاوا ناجما عن شلل في جهاز الحكومة فنظامهم تفكك انطلاقا من اللحظة التي أضاعوا فيها ثقة الأمة. وبما أنهم المسؤولون رسميا عن الدفاع عن الحكومة الإمبراطورية فإنهم بدوا عاجزين عن تحقيق سلامة البلاد بخضوعهم للضغوط الأمريكية ومخالفتهم لأمر صادر عن الإمبراطور. وقد عرضتهم هذه الأخطاء لهجمات شعبية يمكن تلخيصها في شعارين توأمين: (مجدوا الإمبراطور) و (اطردوا البرابرة). وحتى بين أنصار الشوغون خضع بعضهم لنفوذ المؤرخين وناشري الدعايات الشنتويين وأخذوا يشكون في شرعية السلطة الشوغونية. أما جيوش إيدو التي كانت قوية جدا فيما مضى من زمانها فقد أضاعت حيويتها خلال قرنين من البطالة والفراغ. وشلت الحيرة والتردد ما تقوم به المجالس من مداولات، وكانت مثل هذه الحالة مواتية للأمراء المستائين في بلاط كيوتو والساموراي الطموحين التابعين للإقطاعات الغربية والذين لم يقبلوا بسلطة التوكوغاوا إلا على مضض، حدوا قواتهم لإسقاط الشوغونة واقتسام سلطتها المحتضرة. وكانت صرخة تآلفهم - (وحدة البلاط والعسكريين) - توحي باقتسام السلطة بين إيدو

وكيوتو والدايميو، ولكن الأكثر تطرفا حلموا بإلغاء الشوغون إلغاءا كاملا.

هذه النشاطات التخريبية نظمتها مجموعة من شباب الساموراي ذوي محتد متواضع ينتمون إلى عائلات ساتسوما وشوشو ويلحق بهم آخرون من عائلة توسا في شكوك. ولم يقدم أحد تفسيرا واضحا للسبب الذي دفع رجال هذه الإقطاعات الثلاثة لكي يلعبوا دورا حاسما في لحظة حرجة من تاريخ اليابان بينما بقي حوالي مائتين وستين إقطاعا في موقف الترقب والانتظار. ويمكننا أن نفضل النظرية التي تذهب إلى أن هذه الإقطاعات الثلاثة - نظرا لمساحتها الواسعة - كان له حق القيام بدور نشيط في حل الأزمة. فلكل من ساتسوما وشوشو عدد كبير من الساموراي ونجحتا - نظراً لموقعهما المتميز - بأن تحتفظا بالتضامنات الإقطاعية القديمة سليمة لم يلحق بها ماس. وقد أسعرتا إلى بالإضافة إلى ذلك كراهية كبيرة تجاه التوكوغاوا. وأخيراً فإنهما تعتبران بين الإقطاعات النادرة الموسرة التي تمتلك موارد مالية كافية للحصول على أسلحة غربية استعداداً للنزاع المرتقب.

هؤلاء الساموراي الشباب ورطوا عائلتيهما في عمل إيجابي ضد الشوغونة وتآمروا في بلاط كيوتو وجعلوا من أنفسهم خصوماً لسلطة إيدو. وقد انتهت فترة السلام الطويلة من عصر التوكوغاوا في عام ١٨٦٣ عندما ردّ أنصار الشوغون بطرد عائلة شوشو من كيوتو، ومنذ ذلك التاريخ تدهور الوضع بسرعة ووجب على إيدو أن تجمع جيشاً كبيراً في محاولة لإخضاع شوشو. وفي خلال شتاء ١٨٦٥ - ١٨٦٦ قامت حملة أولى انتهت بتسوية. وفي الصيف التالي قامت حملة ثانية انتهت بهزيمة إيدو. وكان الفشل في إخضاع إحدى الإقطاعات كافياً لترنح السلطة المركزية وبدت نهاية الشوغونة قريبة الحلول.

ويفسَّر نجاح شوشو أثناء الحملة الثانية جزئياً بالحياد المتعاطف الذي منحتها إياه ساتسوما تبعاً لاتفاق سري. وبعد عام ونصف قامت ساتسوما وشوشو وتوسا وبضع إقطاعات أخرى بعضها يعود إلى دايميو من أقارب الشوغون بانقلاب في كيوتو وأعلنت في الثالث من كانون الثاني يناير عام ١٨٦٨ إصلاح السلطة الإمبراطورية. وكان الشوغون يومئذ من فرع ميتو المنتمي تقليديا للعائلة الإمبراطورية وبدا مستعدا للخضوع، ولكن آخر المدافعين عن الشوغونة بدؤوا بتنظيم الدفاع فهزموا في ضواحي كيوتو على يد أتلاف العائلات الجنوبية التي سارت إلى إيدو دون أن تلقى مقاومة حقيقية. وحملت

بعض إقطاعات الشمال السلاح للدفاع عن النظام كما دعمت البحرية المقاومة الشوغونية في هوكايدو حتى الربيع من عام ١٨٦٩. وعلى العموم فإن التوكوغاوا وانصارهم لم يقوموا مع ذلك بأي هجوم معاكس جدي ضد أولئك الذين قاموا لإنتزاع السلطة منهم. وكنس النظام الشوغوني بدون إراقة دماء تقريبا مع أنه كان يبدو قبل عقدين من الزمان راسخ البنيان. وفي منتصف القرن التاسع عشر أصبح نخرا لدرجة أن أسسه النظرية وبنيته الاجتماعية لم تتمكن من الصمود أمام الصدمة الخارجية، فما أن تزعزع حتى انهار دفعة واحدة.

وبدا أن إقامة حكومة جديدة هي مهمة صعبة فالرجال الذين صعدوا إلى سدة القيادة في البلاد هم قبضة من الساموراي ينتمون إلى العائلات الجنوبية ومن وجهاء البلاط. ولم يكن أحد منهم يملك الخبرة في الحكم. ولم يكن مشروعهم في الإصلاح الإمبراطوري المستلهم من ذكريات تاريخية مبهمة تعود إلى العصر الوسيط متلائما مع أي مشروع عمل محدد. فقد تسلموا تركة نظام أثري قديم أعلن إفلاسه منذ قليل ولم تقدم لهم معظم الإقطاعات أية معاونة وعاملتهم معاملة شبهة وحذر. وكانت الأمة تعود لتؤكد في كل لحظة عداءها للوجه الأجنبي الذي أزعج عادات اليابان القديمة بإصرار وإلى أبعد الحدود.

ومن الطبيعي أن تنتظم الحكومة الجديدة حول شخص الإمبراطور لأنه قلب التوكوغلوا باسم الشرعية الإمبراطورية. وقد جرت العادة أن يطلق على الانقلاب وعقابيله اسم (إصلاح ميجي). وتنطبق كلمة (ميجي) على العصر الجديد من التاريخ الياباني كما صارت تطلق أيضا اسما على الإمبراطور الشاب الذي اعتلى العرش في السنة السابقة لعملية الانقلاب ولكن إطلاقها هذا حدث بعد وفاته. ولم يكن احد يتصور أن هذا الفتى ذا الخمسة عشر ربيعا يمكن أن يمارس السلطة ممارسة فعالة. فقد اعتاد اليابانيون أن يتعاملوا مع مجرد صور أو مع أعضاء منظمات وهيئات فكان من المستغرب أن يمنحوا الإمبراطور هذه الفرصة للحكم. ومن الصعب علينا بتطلعنا إلى الماضي أن نتعرف على نفسية الرجال الذين قام الإصلاح الإمبراطوري على أكتافهم، فيبدو أنهم يكنون إخلاصا صادقا لشخص الإمبراطور وانهم أمنوا إمانا أعمى بأن كل سلطة إنما تأتي منه. ويمكننا أن نقبل بأنهم ليسوا مدركين أنهم أنفسهم وراء كل القرارات. والواقع أنه إذا كان الإمبراطور ميجي قد تمتع بحظوة متزايدة فإن دوره كرمز للأسرة المالكة لم يقترن في

أية لحظة من اللحظات بدور رئيس سياسي.

من بين أرستقراطيي الفيوجيوارا القدماء الذين التفوا حول الإمبراطور وجد رجال تمتعوا بمواهب عالية. وقد بقي إيواكورا حتى مماته في عام ١٨٨٣ الشخصية المسيطرة في الحكومة الجديدة. وبعد ذلك لعب الأمير سايونجي والأمير كونوي المنتميان إلى الوسط نفسه دورا مشابها باعتبارهما رئيسين للوزارة. ولكن إذا استثنينا هذه الشخصيات فإن رجال البلاط في كيوتو لم يكن لهم الخبرة ولا النشاط الكافيين ليصبحوا أبطال النظام الجديد. ساهم بعض (دايميو الخارج) في أعمال الحكومة ولكن وجب على معظمهم أن يقتصروا على دور الصور حتى في إقطاعاتهم نفسها في كثير من الأحيان. وأسندت كل المناصب الكبرى في الدولة الحديثة لأمراء إمبراطوريين وإلى نبلاء من البلاط أو إلى رجال من الدايميو بينما السلطة الفعلية تمتع بها في الواقع شباب من الساموراي من عائلتي الساتسوما وشوشو وبعض العائلات الأخرى. ولكي لا نعدد إلا الرئيسي من فروع هذه العائلات نشير إلى الأكوبو والسايغو من عائلة الساتسوما وإلى الكيدو من عائلة الشوشو الذين استخدموا سلاحهم السياسي وهم على رأس ممتلكاتهم وحاكوا الدسائس على التوكوغاوا. وبما انهم ينتمون بوجه عام إلى الطبقات الدنيا من الساموراي فإنهم يمتلكون حسا سياسيا مرهفا، وقد كبروا في عصر مضطرب بدت فيه المواهب والمهارة المناورة مفاتيح كل نجاح. وفي عام ١٨٦٨ تراوحت أعمار هؤلاء الرجال بين ٢٧ - ٤١ عاما، أي أن متوسط عمرهم كان منخفضا بشكل ملحوظ بحيث لم يكن غريبا على قابليتهم الفذة لتبني التغيير. وبما أنهم مارسوا السلطة خارج الحدود التي يسمح لهم فيها وضعهم الاجتماعي الأصلي فإنهم آمنوا بتفوق الموهبة على المولد وأظهروا أفكارا ثورية بالنسبة للعصر الذي عاشوا فيه.

ثورة على التقليد:

إن التغيرات التي دخلت إلى اليابان في ظل هؤلاء الرجال بدت ثورية أصيلة. ولكن إصلاح الميجي - خلافا للثورات الأوروبية التي حدثت في القرن التاسع عشر - لم يأت من الأسفل وليس فيه كذلك أي شبه مع ثورة الصين أو الثورات الآسيوية اللاحقة. ففي الصين أصبحت أسرة مانشو في حالة انحطاط منذ القرن التاسع عشر، ومع ذلك فإن النظام الإمبراطوري لم ينته إلى التحطم تحت ضغط الأفكار الجمهورية القادمة من الغروب

إلا بعد عدة عقود من الخواء السياسي ومن الإقطاع المنتظم الذي قامت به الدول الأجنبية. أما في بقية البلدان الآسيوية فإن الثورة لم تكن إلا تعبيرا متأخرا عن وطنية هي رد فعل على السيطرة الاستعمارية والأفكار الغربية. ولم يكن شيء من ذلك في اليابان حيث نجحت قبضة من الرجال ينتمون إلى الطبقات الدنيا من الأرستقراطية القديمة وينهجون منهجا ثوريا أصيلا في تحقيق مأثرتين هما القضاء على الحكومة القديمة دون إراقة دماء والحلول محلها دون تدخل من الشعب. وبما أن (الثورة) اليابانية أتت من الأعلى فإنها حفظت على الناس أرواحهم وأرزاقهم. ومن جهة أخرى فإن اليابانيين يمتلكون ورقة رابحة عند مقارنتهم بالصينيين، فعلى خلاف هؤلاء الأخيرين الذين يعتبرون أنفسهم دائماً مالكي الحضارة الوحيدين ويعانون من جراء ذلك من صعوبات كبيرة في هضم الأفكار الأجنبية فإن اليابانيين فهموا فوراً ما يمكنهم أن يجنوه من فائدة من التجربة السياسية والاقتصادية التي خاضها الغربيون. وبما أنهم اعتادوا أن يقلدوا الصين وأن يستقبلوا المعارف القادمة من الخارج فإنهم لم يتأخروا عن إقناع أنفسهم بأن أفضل وسيلة لمقاومة الغرب هي في (غربنة) بلادهم واقتصادهم فعبؤوا كل طاقاتهم لإنجاز هذه المهمة.

كان قادة اليابان الحديثة كلهم مشبعين بروح البغضاء نفسها تجاه التوكوغاوا وبالحمية نفسها تجاه الأمبراطور وبالإدارة نفسها (لطرد البرابرة). وقد ساهم بعضهم في المعارك في طرد الغربيين ولكنهم فهموا حتى قبل وصولهم إلى السلطة في عام ١٨٦٨ عبث مثل هذا الوضع. ففي عام ١٨٦٣ قصف أسطول إنكليزي كاغوسهيما عاصمة ساتسوما رداً على اغتيال أحد الرعايا البريطانيين الذي حدث قبل ذلك بعام. وفي السنة ذاتها هاجمت مراكب أجنبية تحصينات شوشو القريبة من شيمونوزيكي لأنها فتحت النار على مراكب تجار الغرب، وفي عام ١٨٦٤ قامت بتدميرها تدميراً كاملاً، وعرف الساموراي في ساتسوما وشوشو كيف يتلقنون الدرس من هذه الأحداث. وبقدرة مدهشة على التكيف، تخلوا عن مبدأ العزلة المطلقة الذي حرصوا عليه حتى ذلك الوقت وباشروا بدون تأخير في دراسة التقنيات العسكرية التي أمنت للغرب مثل هذا التفوق.

بعد فترة وجيزة صارت عائلة ساتسوما تتصرف ببحرية حديثة تم بناؤها بمساعدة من البريطانيين، وما لبث ضباط ساتسوما الشباب في الأسطول أن قاموا بتغذية ملاكات البحرية الإمبراطورية اليابانية حتى القرن العشرين. وفي الوقت نفسه تخلت شوشو عن

مفهوم الطبقة المحاربة البالي وخلقت وحدات من حملة البنادق كان أفرادها يجندون بدون تمييز من الفلاحين والساموراي على السواء ويخضعون للتدريبات نفسها المعمول بها في الجيوش الأوروبية. ولم تتأخر جهود التحديث هذه عن أن تتوج بالنجاح حيث سمحت في عام ١٨٦٦ بإلحاق هزيمة حاسمة بكل القوى التي حشدها آل توكوغاوا. وعندما غدا ضباط الساموراي الموضوعون على رأس هذه الوحدات الحديثة نواة أركان حرب الجيش الإمبراطوري الياباني فإنهم غيروا من عقليتهم ولم يعودوا أبطال المحافظة الضيقة على كراهية الأجانب وأصبح رجال شوشو رواد ثورة عسكرية واجتماعية هي التي ستتغلب على آخر آثار نظام الإقطاع.

عندما غدا قادة يابان عصر النور MEIJI في أعلى المناصب ألزموا أنفسهم بادئ الأمر بأن يزودوا البلاد بدفاع أرضي وبحري لا يقل فاعلية عن دفاعات بلاد الغرب. ولا يمكن لمثل هذا الاهتمام أن يثير دهشتنا عندما يصدر عن رجال نشؤوا منذ نعومة أظافرهم على احترام التقاليد العسكرية وشعروا دائما بالمهانة من تفوق قوات الغرب. ويمكننا أن نفهم بدون عناء أنهم كانوا مهووسين بالسعي وراء الاستقلال العسكري. والأكثر إدهاشا هي سعة الإدراك الذي سيقدمون البرهان عليه في هذا المجال إذ فهموا على الفور أن من العبث الأمل في تحديث الدفاع دون اللجوء إلى إعادة صياغة شاملة للبنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في البلاد. وقد لخصوا هذه الفكرة بالشعار الشعبي التالي : (بلد غني وجيش قوي).

المهمة الثانية التي تنتظر المصلحين هي إقامة سلطات جديدة ومبادئ جديدة للرابطة القومية. فالمؤسسات الشوغونية هي في الواقع في حالة تدهور كامل كما أن التقسيمات الإقطاعية تشكل عائقا أمام (غربنة) البلاد. وقد أقام رجال التنوير مركزهم في إيدو EDO التي بقيت خلال سنوات طويلة عاصمة الأرخبيل السياسية. وفي أيلول سبتمبر من عام ١٨٦٨ أطلق على المدينة اسم طوكيو أي (عاصمة الشرق). وفي الربيع التالي لحق الإمبراطور وبلاطه بقصر إيدو الكبير. ولم تتردد الحكومة الجديدة – بدعم من قادة الطبقة العسكرية – في اللجوء إلى استملاك الأراضي الشوغونية الواسعة. كذلك قامت بفرض قرض إجباري على أغنياء التجار عائدة بذلك إلى تطبيق ممارسة طالما استخدمت على يد الدايميو والشوغونات. ومن أجل إظهار الإصلاح الإمبراطوري بالمظهر اللائق أعيدت

النفقات والوظائف التي سادت في القرن الثامن عندما كان البلاط الإمبراطوري يمارس السلطة بنفسه ولكن الأمر لم يكن يتعدى بوجه عام ألقابا شرفية محضة. وسعوا كذلك أن يجربوا مؤسسات الغرب النيابية فدعي مجلس من مندوبي الإقطاعات ولكنه لم يتمكن من أن يلعب أي دور. وجرت محاولة تهدف إلى نقل مبدأ الفصل بين السلطات الأمريكي ولكنها سببت من الارتباك أكثر من النجاح. وظهرت بذور وزارات عهد إليها بتنفيذ المهام الاختصاصية ولكن التقليد الياباني القديم باتخاذ القرار بصورة جماعية ما لبث أن كانت له الغلبة. والواقع أن كل القرارات التي لها شيء من الأهمية كانت توقف في الأعلى على يد جماعات من الرافضين أصحاب الأدوار الأولى. وإذا توصل بعض الرجال من أمثال النبيل إيواكورا إلى احتلال أعلى المناصب فإن أغلبية ساموراي ساتسوما وشوشو والعائلات المتحالفة اكتفت بسبب أصولها المتواضعة بمراكز من الدرجة الثانية لا تسمح لها إلا بحق النظر من بعيد إلى القرارات الكبيرة كالمستشارين وسكرتاري الدولة ومديري الوزارات.

إن إلغاء عدد لا يحصى من إقطاعات النظام القديم وإبطال نظام الطبقات الاجتماعية ظهر كأنهما الإرهاصات التي لابد منها للتحديث السياسي والاقتصادي وبخاصة العسكري في الأرخبيل. ففي آذار مارس عام ١٨٦٩ وبعد عام واحد من وصولها إلى السلطة شرعت النخبة القائدة الجديدة بتحرير البلاد دفعة واحدة من البنى الإقطاعية. وبدون حنين لا فائدة منه للنظام الذي ترعرعت في كنفه والذي تدين إليه بمركزها المسيطر في المجتمع أقنعت دايميو الساتسوما وشوشو وتوزا وهيزن بإعادة إقطاعاتهم للإمبراطور وشعرت العائلات الأخرى بضرورة الإقتداء بهم، وبحركة واحدة تخلصت اليابان خلال بضعة أشهر من تجزئة إقطاعية دامت قرونا عديدة. على أن الدايميو السابقين استعادوا باليمين ما أعطوه بالشمال، فبتعيينهم حكاما على إقطاعاتهم القديمة تلقوا على شكل أجور عشر الإيرادات التي تخلوا عنها منذ قليل. ولكن حدث بعد سنتين أن إصلاحا أكثر جذرية أيضا ألغى الإقطاعات بشكل نهائي وقسمت البلاد إلى محافظات HEN وضعت تحت مراقبة طوكيو المباشرة ولم يعد الدايميو هذه المرة يحتفظون بشيء من امتيازاتهم بل عوضتهم الحكومة بمكافآت جسيمة حرصت بأن تقدمها على شكل سندات حكومية لكي تؤمن للنظام الوليد الطاعة المرغوبة من السادة المخلوعين، وستساهم هذه السندات بتمويل

قسط هام من رأس المال المصرفي، أما الدايميو فإنهم سيشكلون ملاكاً نموذجياً من الـولاء والخضوع. والتخلص من الدايميو أسهل من إلغاء امتيـازات السـاموراي. إذ أن هـؤلاء يمثلون ٦% من مجموع السكان فهم يشكلون طبقة قوية من النبلاء سيطرت على التوالـي على السلطة العسكرية والنفوذ الثقافي. وهم يمتلكون في مجموعـهم ثـروة كبـيرة قابلـة للإنتقال بالإرث رغم أنهم ملزمون إفرادياً في أغلب الأحيان بالإكتفاء بدخـول صغـيرة. وكانت عائلة شوشو أول من وصلت إلى مرتبة الساموراي. وقد شعرت الحكومة الجديـدة في مطلع عام ١٨٧٣ بأنها مطمئنة لقوتها اطمئناناً كافياً لإقرار الخدمة العسـكرية العامـة وهو إصلاح أكثر جرأة من كل ما سبقه من إصلاحات. وتحت نفوذ ضباط النخبة الشـباب من أمثال ياماغاتا من عائلة شوشو جُمع جيش من الفلاحين ونُظم على الأسلوب الفرنسـي في بادئ الأمر ثم على الأسلوب الألماني. وقد حررت الحكومـة النشـاطات الاقتصاديـة المختلفة تباعاً من العوائق التي كانت تحد من توسعها. وفي عام ١٨٧١ أعلنت المسـاواة أمام القانون بين جميع المواطنين بما فيهم الإيتا ETA (وهم المنبوذون اليابانيون) الذيـن يشكلون٢% من السكان. وفي عام ١٨٧٦ وجب على الساموراي التخلي عن حمل السـيف الذي بقي حتى ذلك الوقت الإشارة المميزة لمركزهم المميز.

وعندما غدا الساموراي مواطنين عاديين أضاعوا كل امتيازاتهم الاقتصادية. وفي عـام ١٨٦٩ نقصت دخولهم الوراثية المتواضعة بطبيعتها إلـى النصـف. وفـي عـام ١٨٧٦ أُجبروا على قبول تبديلها بأجور ذات مجموع أقل. وحتى بعد هذه الإصلاحات بقي العـبء المالي الذي تستلزمه هذه المعاشات المدفوعة للساموراي والدايميو ثقيل الوطأة إلـى حـد كبير. ولا شك بأن إلغاء جذرياً وحاسماً للأرستقراطية الإقطاعية القديمة كان أقـل تكلفـة على الخزانة العامة، ولكن مما لا شك فيه أيضاً أن المصير الملائـم الـذي انتـهت إليـه طبقات الامتيازات القديمة جنّب اليابان الاضطرابات المؤلمة التي عانت منها فرنسا علـى أثر سقوط النظام القديم.

وبفضل خبرتم السياسية ومستوى ثقافتهم العالي سيتمكن السـاموراي مـن الاحتفـاظ لأنفسهم بكل السلطات في ظل النظام الجديد. فهم الذين أمدوا ملاكات الجيـش والبحريـة والشرطة التي أضفى عليها وجودهم فيها هيبة كبيرة. وغدا بعضهم رجال أعمال موسـرين بينما دفع الآخرون نفوذهم على المؤسسات الثقافية والحياة الفكرية فـي البـلاد. علـى أن

الكثيرين منهم بدوا عاجزين عن التلاؤم مع الظروف الجديدة ولفظوا إلى الطبقات الشعبية. وفي أقل من جيلين اختفى الصدع القائم بين الساموراي وعامة الشعب اختفاءا كاملا وبدا من حاولوا استعادت ذكراه كأنهم يوقظون ذكرى بعيدة.

بإزالتهم لنظام الامتيازات على ما رأينا أثار الإصلاحيون بعض الاضطرابات. فقد حمل الساموراي الأكثر عنادا ومحافظة سلاحهم وشكلوا تهديدا على السنوات الأولى للنظام الجديد. ومماله دلالة أن الاضطرابات انبثقت بشكل خاص من الإقطاعيات القديمة الجنوبية التي خرجت منها النخبة السياسية الجديدة. ففي هذه المناطق بدا قبولهم لسلطة المصلحين سيئا بمقدار ما يتذكرون أصلهم المتواضع. وأعنف هذه التمردات الأخيرة التي قام بها الساموراي جرت في ١٨٧٧ فوق ممتلكات ساتسوما عندما تحالف حوالي أربعين ألفا من المحافظين المستائين حول سيغو التي كرست بغضاء مستدمية للحكومة التي تركتها قبل أربع سنوات. وفي خلال معركة دامية سحق المجندون الجدد من الفلاحين ثورة المتمردين ووضع أنتصارهم خاتمة على شهادة وفاة النظام الياباني القديم.

انطلاق اقتصادي ومحاكاة تقنية:

في أقل من عشر سنوات تمكن رجال التنوير من إزالة تقاليد النظام الإقطاعي القديم وتوصلوا إلى فرض سلطانهم على مجموع البلاد. ومع ذلك فإن بناء نظام جديد لم يكن قد تم بعد ووجدت النخبة الجديدة نفسها منهمكة في وضع البلاد على طريق التطور الاقتصادي.

وخلافا للبلاد التي باشرت التحديث في وسط القرن العشرين لم تتلق اليابان أية مساعدة مالية أو تقنية من الخارج. فاليابانيون الذين خافوا من عقلية التملك المرتبطة بالإمبريالية الغربية لم يثقوا في عام ١٨٧٠ بالقروض الأجنبية ولم يلجؤوا إليها إلا بكثير من الحرص المفرط. وكان الغربيون على كل حال ينظرون بشك إلى إمبراطورية الشمس المشرقة ولا يقدمون القروض إلا مقابل فوائد عالية جدا. والوسيلة الوحيدة أمام اليابانيين للتآلف مع آخر مكتسبات العلم تكمن في اللجوء إلى استدعاء خبراء من الغرب. ولتعويض الإغراء الضعيف الذي كان يمارسه الأرخبيل على الغربيين وجب إغررائهم بأجور أعلى بكثير مما يناله أمثالهم في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية وهذا يعني أن على اليابان أن تمول انطلاقتها الاقتصادية بقسط وافر من مواردها الخاصة.

على أن اليابان أفادت مع ذلك من حادث تاريخي. فالمرض الـــذي تفشـــى فـــي دودة الحرير في أوروبا في الستينات من القرن التاسع عشر خلق طلبـــا ملحـــا علـــى الحريـــر والشرانق اليابانية، وقبل مربو شرانق الجبال اليابانية الوسطى التحـــدي وبفضلـــهم غـــدا الميزان التجاري رابحا مع ميزان الغرب على أن الجائحـــة اختفـــت مـــن أوروبـــا فـــي السبعينات وفقد مربو دودة الحرير اليابانيون هذا المحرض المصطنع. وفي ذلـــك الوقـــت لجؤوا إلى طريقة ميكانيكية في جدل الحرير تعطي خيوطا أكثر انتظاما وأفضل نوعا مـــن خيوط بقية البلاد الآسيوية وبذلك احتل الأرخبيل المكانة الأولى في ســـوق الحريـــر فـــي الغرب وشكلت هذه المادة الصادر الأساسي لليابان حتى منتصف القرن العشـــرين. ومنـــذ عام ١٨٦٦ فرضت الدول الأوروبية على الشوغون أن يقتصر على تعرفة جمركية تبلـــغ ٥% ومثل هذا الطلب ترك الأرخبيل بدون دفاع أمام التدفق المتزايد للمصنوعات القطنيـــة والمنتجات الأخرى المصنوعة في الغرب. وقد هدد هذا الفيض من الـــواردات النشـــاطات التقليدية في البلاد بالخراب. وبدا منذئذ أن التصنيع لابد منه بدافع مضاعف على اعتبـــار أنه يتحكم في الوقت نفسه في بلوغ اليابان الآستقلال الاقتصادي وفي بناء قدرة فعالة فـــي الدفاع. يضاف إلى ذلك أن بعض القادة أملوا أيضا في أن المعامل الحديثة ستؤمن العمـــل للساموراي الذين يعاني معظمهم من وضع مالي بالغ الصعوبة.

وحتى قبل الإصلاح سعى الشوغون وبعض الدايميو لان يـــتزودوا بنـــواة للصناعـــة. واندفع بعضهم في ميدان الصناعات العسكرية وفتحـــوا معـــامل للذخـــائر أو تراســـانات للإنشاءات الملاحية. واختار آخرون الصناعات المدنية بإنشائهم مغازل للقطـــن. وتـــابعت الحكومة الجديدة هذه المحاولات المتفرقة ونظمتها ووسعتها فأقامت معامل رائـــدة مهمتـــها نشر مبادئ جدل الحرير والغزل والنسيج وتقنيات مختلفة أخرى أكثر تخصصـــا، ولكـــن باستثناء جدل الحرير ما لبثت جهودها أن بدت غير مثمرة. هذه الاخفاقات يمكن أن تعـــد من حيث عددها خيبات أمل لابد منها ويمكن أن تتعرض لها كل محاولة لبنـــاء صنـــاعي. وقد حصلت الحكومة على أفضل النتائج بإقامتها بنية اقتصادية تحتية حديثـــة. ففـــي عـــام ١٨٧١ جربت البلاد نظاما نقديا جديدا وحدته الأساسية هي (الين) YEN الـــذي ســـيحافظ خلال نصف قرن على قيمة تساوي نصف دولار أمريكي. وظهر تنظيم مصرفي حديـــث بدءا من العاصمة قائم على السندات الحكومية التي أودعها الدايميو القدمـــاء، كمـــا اهتـــم

المصلحون بتطوير البنى التحتية للمواصلات وأرسوا قواعد نظام بريدي علـــى النمــوذج الأوروبي ووصلوا مختلف نقط الأخبيل عن طريق التلغراف (البرق الســلكي) وجــددوا المنشآت المرفئية القائمة. وفي عام ١٨٧٢ دشنت الحكومة خطا حديديــا يصــل طوكيــو بمرفئها يوكوهاما هو أول جزء من شبكة حديدية مهيأة لأن تصبح أكثف وأسرع خطـــوط حديدية في العالم.

في موضوع النظام المالي تخلى قادة البلاد منذ عام ١٨٧٣ عن نظام الضرائب القديــم الذي تدفع فيه الضريبة عينا بحسب المحصول واستبدلوا به نظاما عقاريا تدفـــع بموجبــه الضريبة نقدا بغض النظر عن أهمية المحصول. وتم الاعتراف أخــيرا بالملكيــة الريفيــة الصغيرة التي تطورت بطريقة عفوية في عهد التوكوغاوا ونالت إقرارا قانونيا. وانطلاقــا من نهاية السبعينات أدى التضخم المالي إلى التخفيف من أعباء الضرائب الجديدة وســـمح للريفيين بزيادة قدرتهم التقنية. ومن جهة أخرى فإن تطور وســـائط النقــل وإلغــاء آخــر العوائق أمام انتشار التقنيات الزراعية والتوسع الكلي للمساحات المزروعة بالقمح كل ذلــك كان في أساس زيادة منتظمة متينة الدعائم في إنتاج المحاصيل الزراعية خــلال الســنوات العشر التالية.

بدا أن الاقتصاد الياباني في مجموعه هبت عليه ريح من التحديث والتوسع. ومع ذلــك فإن الصعوبات المالية بدأت بالتراكم انطلاقا من السبعينات ووجب على الحكومة أن تســدد ديون النظام الشوغوني وتدفع مبالغ طائلة للدول الغربية. وكانت تكاليف البنى والتحديـــث العسكري باهظة للغاية وشديدة الوطأة على خزانة الدولة وانتهى الأمر بغالبيـــة المنشــآت الصناعية إلى عجز مالي مزمن. ووجب بوجه أخص دفع مصـــاريف باهظـــة للخــبراء الأجانب وتمويل ما تحتاجه هوكايدو من إعداد وتنظيم والانتهاء من تصفية النظـــام القديــم والتعويض على الدايميو والساموراي ودفع مصروفات الجيــوش المكلفــة بســحق تمــرد ساتسوما، وقد أثقلت هذه المصروفات العبء على ميزانية الدولة وتسببت بتضخــم مــالي خطر وسارعت في تخفيض قيمة الأوراق النقدية الجديدة.

وقد فرضت تدابير مالية حازمة من صنع واحد من الساموراي من عائلـــة ساتســوما اسمه ماتسوكاتا وصل إلى وزارة المالية عام ١٨٨١ وفرض علـــى البــلاد نظامــا مــن التقشف بلجوئه إلى ضغط شديد للنفقات العامة وبيعه للمالكين الخاصين المعــامل الرائــدة

التي بقيت تابعة للدولة حتى ذلك الحين وبقيت الصناعات الحربية وحدها تحت رقابة سلطة الدولة. وبفضل هذه الإصلاحات تعدل الوضع المالي انطلاقا من نهاية الثمانينات.

والنتيجة الثانية لهذه الإصلاحات قيام تمركز للصناعة الوليدة بيد أفراد معدودين. وكان ثمن تصفية المشروعات العامة بوجه عام أدنى بكثير من رؤوس الأموال التي استثمرت فيها. ووجب على الحكومة أن تحسب حسابا لإدارات هذه المشروعات الخاسرة وأن تتجنب تثبيط همة المشترين القلائل المحتملين. وهكذا أفاد هؤلاء الأخيرون من الظروف المواتية التي سمحت لهم في كثير من الحالات بأن يصلحوا المعامل التي انتقلت إليهم وإعادة مقدرتها على تحقيق الأرباح. وقد اعتبر (إلغاء التأميم) بوجه عام نجاحا للاقتصاد. وبفضل إدارة أكثر مرونة وأكثر أصالة من الإدارة الحكومية ازدهرت تلك المشاريع التي تمت إعادتها إلى القطاع الخاص. كل هذه النتائج تشهد على أن اليابانيين اكتسبوا معرفة وتجربة كافيتين في مجال الأعمال تساعدهما على التغلب على المصاعب الأولى التي رافقت مرحلة انطلاقتهم الاقتصادية. وفي السنوات التي تلت عام ١٨٨٥ سجل إنتاج الخيوط القطنية زيادة كبيرة تعممت بشكل متماد على كل فروع الصناعة الأخرى. وفي نحو نهاية القرن كانت اليابان قد بدأت طريقا للتصنيع لا نكوص فيه. على أن من نتائج (التخلي عن التأميم) الذي قام به ماتسوكاتا أن النشاط الاقتصادي تمركز منذئذ بين يدي حفنة من رجال الأعمال، وأقطاب الاقتصاد هؤلاء يوجدون على رأس (طغمة مالية) يسميها اليابانيون الزايباتسو ZAIBATSU .

وانقسمت بورجوازية الأعمال في عصر الميجي MEIJI إلى أربع زمر بحسب أصولها. أقلية منها خرجت من عائلات التجار الكبرى المعروفة في عصر التوكوغاوا، وسلالات التجار هؤلاء بقوا عموما وإلى حد بعيد أسرى اقتصاد ما قبل التصنيع والممارسات التجارية التقليدية بحيث لم يتمكنوا من التأقلم مع شروط العصر الجديد. وعائلة ميتسوي التي تعود في أصولها إلى القرن السابع عشر هي إحدى العائلات النادرة التي عرفت كيف تحافظ على رخائها. وأتت زمرة ثانية من رجال الأعمال من طبقة الملتزمين الريفيين التي ظهرت في نهاية عصر التوكوغاوا. فشيبوساوا مثلا يعود بأصله إلى عائلة من الفلاحين الأثرياء من ضواحي إيدو، وقد منح لقب النبالة بلقب ساموراي في السنوات الأخيرة من العصر الشوغوني وغدا غداة الإصلاح أحد أقطاب الصناعة القطنية

والمصرفية. وتضم زمرة أخرى من أوساط الأعمال رجالا من أصول وضيعة وبخاصة من المغامرين الذين يمتلكون موهبة الإفادة من عصر التغير السريع. على أن معظم قادة المبادرة في عصر (ميجي) هم من قدماء الساموراي فحالتهم الثقافية وارتباطاتهم الحسنة مع قادة البلاد الجدد يشكلان مدخلا حسنا إلى الحياة الاقتصادية. وبعضهم اكتسب خبرة من عملهم وكلاء أعمال للدايميو، وتلك هي حالة إيوازاكي من عائلة توسا الذي بدأ عمله في الإنشاءات الملاحيةوأسس مشروع ميتسوبيشي الذي رشح ليكون التروست الياباني الثاني مباشرة بعد ميتسوي MITSUI .

إن نجاحات التصنيع الياباني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر غنية بالدروس بالنسبة للبلاد التي تباشر اليوم انطلاقتها الاقتصادية. ويمكن أن تفسر نتائج الإنتصارات اليابانية بأنها ثمرة تحديث أتى من الأعلى مما يؤدي إلى سوء ظن بالقوى الفاعلة. حقا إن الحكومة اليابانية (أدارت المضخة) في العديد من قطاعات النشاطات ولكن الخطوة الحاسمة لم يتم اجتيازها إلا بعد أن أعيدت إلى القطاع الخاص صناعات أخذتها الدولة على عاتقها في بادئ الأمر. والخلاصة أن حالة اليابان لا تختلف في شيء عن المخطط العام للتطور الاقتصادي لأي بلد من البلدان: فالدولة هي التي تخلق بنى القاعدة الاقتصادية التحتية في بادئ الأمر إذ تزود البلد بنقد مستقر ونظام مصرفي حديث وتنظيم مالي ناجع واستقرار سياسي. والنجاحات الصناعية الأولى تكون مسبوقة بتقدم محسوس في الإنتاج الزراعي. أما المشروعات فإنها في معظمها ملكيات خاصة. ويتطور تقدم النمو الاقتصادي ويتوسع تبعا للمراحل نفسها التي حدثت في الغرب : نهضة الصناعة الخفيفة وبخاصة صناعة النسيج التي تتقدم دائما على ظهور الصناعات الثقيلة.

لقد كان قادة عصر الميجي واعين بأن جهدهم قد يبقى حرجا طالما أن مواطنيهم لم يتوصلوا بسبب عدم وجود مستوى كاف من الثقافة إلى التشبع بالتقنيات والأفكار الغربية. وبعضهم من أمثال إيتو ITO من عائلة شوشو قد اتم قسما من دراسته في أوروبا حتى قبل نهاية عصر الشوغونية. وفي خلال السنوات الأخيرة من عصر التوكوغاوا تم إرسال مراقبين وعلماء إلى أوروبا لدراسة علوم وتقنيات الغرب على نفقة الحكومة أو الدايميو. وقد نظم النظام الجديد هذه السياسة، والعقدان الأولان من عصر الميجي هما حقبة تقليد مكثف عبر عن رغبة اليابانيين بأن يتمثلوا حتى الأعماق عناصر الحضارة الغربية التي

اتخذوها نموذجا لهم. وبعد أن وضع اليابانيون أنفسهم عن ترو وتصميم على طريق مدرسة الغرب عادوا بعد ألف من السنين ليستأنفوا عادة الأخذ عن الأجنبي التي ولدت بتأثير من فتنة الحضارة الصينية. ولكن فرط التقليد بعد الآن تطور إلى درجة أكبر بكثير وارتدى صفة منهجية، فاختير العلماء بعناية تبعا لتبحرهم بالعلم أو لاختصاصاتهم كما أن اختيار البلاد التي سيرسلون إليها خضع للعناية نفسها. وقد حرص اليابانيون على ألا يستعيروا إلا الأفضل من كل بلد، فذهبوا إلى إنكلترا لدراسة الملاحة وإلى ألمانيا لتعلم فنون العسكرية والطب، وإلى فرنسا للتدرب على الإدارة المحلية والحقوق، وإلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهرة بالطرائق التجارية. فالعالم بالنسبة لهم ليس إلا مدرسة كبيرة ولكنهم يحددون بأنفسهم المنهاج الذي يرغبون بدراسته ويختارون بحرية أساتذتهم ويقررون بدقة كيفية استعمال معارفهم الجديدة. وأمنت الحكومة من جهة أخرى خدمات عدد كبير من الخبراء والأساتذة الغربيين. ولكي تفيد من إقبال أفضل الاختصاصيين لم تتردد في أن تقدم أعلى الأجور. وعلى عكس البلاد التي هي الآن في طريق التطور عقدت يابان عصر الميجي العزم على أن تقتطع من مواردها المالية الضعيفة ما يتطلبه هؤلاء الخبراء من تعويضات، ولكنها لم تتردد نتيجة لذلك في أن تستغل طاقاتهم إلى أبعد الحدود. ومنذ انفتاح البلاد أخذ المئات من المبشرين وبخاصة ذوي الأصول الأمريكية ينشرون مجانا تعليم اللغة الإنكليزية ومواد مختلفة أخرى. ورغم أن تدبير إبعاد المسيحيين لم يرفع رسميا إلا في عام ١٨٧٣ فإن مبشرين من البروتستانت قدموا من أمريكا وأسسوا منذ عام ١٨٥٩ مدارس ازداد عددها بسرعة وكانت توزع التعليم مجانا فتخفف العبء عن كاهل الحكومة. ولكن الخبراء والأساتذة الغرباء الذين اجتذبوا إلى البلاد بنفقات طائلة ما لبثوا أن استبدلهم بشكل متماد تلامذتهم من اليابانيين أو علماء عادوا من بعثاتهم العلمية. وحتى قبل نهاية القرن لم يعد الأجانب إلا قلة ضئيلة بعد أن أخلوا معظم المؤسسات الرسمية والمنشآت الثقافية ولم يبق منهم إلا القائمون على تعليم اللغات الأجنبية.

ولم يفت حكام اليابان الجدد أهمية التعليم في دولة حديثة إذ أن رفع مستوى تعليم الجماهير الشعبية هو شرط استمرار عمل التحديث، فالجيش والبحرية يحتاجان إلى رجال متعلمين قادرين على تعلم مبادئ تقنية الغرب، والصناعة بحاجة كبيرة لليد العاملة

المؤهلة. وفي عام ١٨٧١ أوجدت الحكومة وزارة للتعليم العام وقررت التعليم الإجباري للجميع، وسيمتد تطبيق هذا التدبير الذي يتطلب بناء آلاف المدارس وتأهيل عشرات الآلاف من المعلمين على عدة سنوات كما أن الاعتمادات الضرورية لن تتوفر إلا على التوالي، ولكن ما إن بدأ القرن العشرون حتى كان كل أطفال اليابان ملتحقين بالمدارس. واستقر نظام التعليم الذي يمكن تشبيهه بهرم تتألف قاعدته من ست سنوات من الدراسة الإبتدائية الإجبارية تأتي بعدها مرحلة متوسطة من خمس سنوات ويليها ثلاث سنوات من الدراسة الثانوية، أما القمة فهي الدراسة الجامعية التي تمتد على ثلاث سنوات. وأنشأت جامعة طوكيو في عام ١٨٧٧ من تجميع منشآت سبقتها في الوجود، واقتفى أثرها في الظهور جامعات إمبراطورية أخرى ظهر بعدها العديد من الجامعات الخاصة.

وعلى عكس أنظمة التعليم القائمة في بلاد الغرب فإن نظام التعليم الياباني وضع بكامله تحت مراقبة الدولة باستثناء المدارس التبشيرية والجامعات الخاصة التي تمتعت مع ذلك بمكانة أدنى بشكل واضح من الجامعات الإمبراطورية. وهكذا وجد نظام التعليم نفسه دفعة واحدة متحررا من الهالة الأرستقراطية ومن الهيمنة الدينية اللتين لا تزالان ترزخان فوق معظم المؤسسات المدرسية في الغرب. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بلغ درجة من العقلانية والصبغة الدنيوية والتركيز تفوق ما بلغته معظم أنظمة التعليم الغربية. ومن جهة أخرى كان التعليم يعتبر أداة في خدمة الدولة، فعليه أن يصوغ مواطنين خاضعين ويملكون كفاءات مهنية لازمة لبلد حديث. وبما أن نظام التعليم الياباني وجد من أجل تلبية حاجات محددة فكان عليه في الوقت نفسه إعداد طبقة من اليد العاملة المؤهلة وملاكا واسعا من التقنيين ونخبة من القواد المتخرجين من الجامعات الإمبراطورية.

هذه السياسة المدرسية عدلت سيماء المجتمع الياباني تعديلا عميقا، ففي أقل من جيلين ترك التنضيد الاجتماعي القائم على المكانة الفردية الوراثية مكانه لتنضيد يتحكم فيه مستوى الثقافة. والأرخبيل الذي حافظ حتى منتصف القرن التاسع عشر على تنظيمه الإقطاعي ضم في مطلع القرن العشرين مجتمعا تشعر فيه بالمساواة أكثر بكثير مما تشعر بها في المجتمع البريطاني نفسه. ولكن تعليما بكامله بين يدي الدولة لابد أن يحتوي على مساوئ، فما بين مثل هذا التعليم وبين التوجيه المذهبي يكون الفاصل رقيقا في الغالب. وبدلا من تعليم طرائق التفكير فإن المدرسة تدل الشباب على ما ينبغي عليهم أن يفكروا

به، فهي تصوغ رعايا طيعين تابعين لقناعات الدولة الرسمية. يضاف إلى ذلك أن الجهد الآلي المبذول في التذكر لاستيعاب نظام الكتابة ساهم في تعميق سلبية العقل. فاليابان لها امتياز محزن في أنها أول بلد في العالم استخدم تقنيات شاملة مانعة لتكوين العقل وحولت المدرسة إلى آلة بيد السلطة.

دستور الميجي:

منذ أن سحق تمرد آل ساتسوما عام ١٨٧٧ عرف النظام الجديد الاستقرار السياسي وأمنت له إصلاحات ماتسوكاتا في مطلع الثمانينات قاعدة اقتصادية صلبة. وبدا أن الوقت قد حان لوضع حد للمؤسسات المؤقتة التي تحكم البلاد منذ عام ١٨٦٨، وبدا أن اليابانيين الذين عاشوا خلال قرنين ونصف في جو من الاستقرار السياسي الكامل ضمن مؤسسات ثابتة قد نفذ صبرهم للخروج من الوضع المؤقت والحيازة على بنية سياسية متينة دائمة.

على أن الفكرة نفسها في اللجوء إلى دستور لتحديد إطار الحياة السياسية للبلد كانت مفهوما غربيا غريبا كل الغرابة عن تقاليد اليابان، بل إنها كانت خالية من أي صدى في اليابان حيث أن الدساتير التمثيلية تعتبر لونا مقتصرا على البلاد المتقدمة. ولكن إقامة حكومة دستورية تنسجم مع المؤسسات التمثيلية هو عمل يستطيع أن يؤثر في الغرب تأثيرا حسنا يكشف عن مدى التقدم الذي تم إنجازه في الأرخبيل في سبيل الديمقراطية. واليابانيون يأملون من وراء ذلك أن يصلوا بسرعة إلى المساواة الدبلوماسية مع الغرب ورفع الحصانة عن الرعايا الغربيين في اليابان وإلغاء الأنظمة الجمركية التي فرضت على اليابانيين من طرف واحد. وفي عام ١٨٧٢ سافر إيواكورا في مهمة إطلاعية إلى الولايات المتحدة وأوروبا حيث درس طريقة عمل الحكومات الغربية وطالب بإعادة النظر في المعاهدات غير المتكافئة. وفي الثمانينات ظهرت حركة قومية لإلغاء المعاهدات في قلب النخبة اليابانية ولكن وجب على اليابان أن تنتزع قبل ذلك احترام الغرب.

منذ عام ١٨٦٨ كان الإمبراطور قد أعلن (عهد المواد الخمس) الذي بشر باستدعاء المجالس الاستشارية. وكاد أن يعقد مجلس وطني في العديد من المرات. وفي عام ١٨٧٩ كان الحكام الجدد قد تعودوا على الديمقراطية التمثيلية عندما نظموا أول إنتخاب للمجالس العامة ثم نظموا في العام التالي انتخابات للمجالس البلدية.

في عام ١٨٧٤ قام إيتاغاكي – وهو فارس (ساموراي) قديم من عائلة توسا أصبح

عضوا بارزا في الحكومة -بتقديم استقالته ليؤسس حزبا معارضا وقام بحملة في سبيل النظام التمثيلي. والتف حول حركته في بادئ الأمر المستاؤون أقرباء أولئك الذين قاموا بتمرد ساتسوما ثم ما لبثت حركته أن جذبت إليها شيئا فشيئا الفلاحين الميسورين وقسما من طبقة تجار المدن. وفي نحو من نهاية السبعينات غدا (حزب الحرية وحقوق الشعب) هذا قوة يحسب لها حساب. وقد أفاد من دعم المثقفين من امثال الساموراي القديم فوكوزاوا الذي أدخل الفكر الليبرالي والقيم الغربية إلى اليابان والذي ستعتبره الأجيال القادمة مؤسس جامعة كي-يو.

وفي عام ١٨٧٩ استدعى الإمبراطور كافة مستشاريه للحصول على آرائهم واقتراحاتهم المتعلقة بالنظام الدستوري المقبل. وفي عام ١٨٨١ قدم واحد منهم وهو أوكوما من عائلة هينرين مذكرة توصي بالتبني الفوري للنظام البرلماني البريطاني. وقد تزامن هذا الاقتراح مع هجمات قوية موجهة لعضو آخر من الحكومة اتهم بأنه باع لحسابه الخاص أملاكا للدولة تقع في هوكايدو ونجم عن ذلك فضيحة وأزمة سياسية. وجرى على الأثر تعديل وزاري أبعد فيه أوكوما عن الوزارة فاقتفى أثره إيتاغاكي وأنشأ حزبا ثانيا للمعارضة كما حذا حذو فوكوزاوا وأسس جامعة واسيدا WASEDA الخاصة الكبرى. ولكي تبدد الحكومة ما اعترى السياسة من ضيق قررت أن تقود البلاد خلال سبع سنوات نحو نظام دستوري ووعدت أن تدعو قبل عام ١٨٩٠ مجلسا وطنيا سيكون مفهومه في النهاية أقرب للنمط البروسي المحافظ منه إلى النمط الديمقراطي الإنكليزي.

وقد عهد أخيرا بتهيئة الدستور إلى جيل أوليغاركي جديد كان البديل لرؤوس نظام الميجي. فالأسماء الكبيرة في سنوات الإصلاح الأولى من أمثال سيغو وأوكوبو من عائلة ساتسوما وكيدو من عائلة شوشو تركوا كلهم مسرح السياسة في نحو من عام ١٨٧٨ ومات إيواكورا نبيل البلاط الشهير فب عام ١٨٨٣ وترك اختفاؤهم السلطة لرجال من أمثال إيتو وياماغاتا من عائلة شوشو وماتسوكاتا من عائلة ساتسوما، وهؤلاء الأخرون شكلوا نواة متجانسة ستسيطر على مجموع الحياة السياسية في اليابان خلال عدة عقود. ويطلق عليهم اسم (جيزو) أي القدماء. وإيتو هو الذي كلف بوضع الدستور الجديد، فبدأ بزيارة البلاد الأكثر محافظة على التقاليد في أوروبا وبخاصة ألمانيا والنمسا لكي يتشبع بالنظريات الدستورية الدارجة هناك، واجتهد بنشاط طافح على وضع أجهزة الحياة

السياسية اليابانية الجديدة.

وفي عام ١٨٨٥ أنشئت أول حكومة وزارية برئاسة وزير أول لم يكن غير إيتو نفسه، واقتسم الأوليغاركيون مختلف المناصب الوزارية. وفي العام نفسه أوجد ملاك جديد من الموظفين ستؤمن إنشاءه جامعة طوكيو. وفي التسعينات بدأ عدد المجازين من الجامعات يتجاوز حاجة البلاد فوجب اللجوء إلى الاختيار بينهم على قاعدة نظام قاس ولكن عادل من الامتحانات. وأخيرا أعيد النظر في بنية البلاد القضائية. وقد أمل الأوليغاركيون من وراء تقريب القانون الياباني من المفاهيم الغربية أن يقنعوا الدول الأجنبية بالتخلي عن امتياز الحصانة لرعاياهم فوق أرض اليابان. واستمر جهد التجديد هذا خلال سنوات طوال مستلهما في بادئ الأمر القانون الفرنسي قبل أن يتحول نحو البنى القضائية الألمانية، ولم تنشر مجموعة القوانين اليابانية أخيرا إلا في عام ١٨٩٩.

إحدى اهتمامات واضعي الدستور الكبرى هي المحافظة على السلطة الإمبراطورية - ومن خلالها سلطتهم الشخصية - تجاه المجالس الاستشارية التي أنشئت لكي تكون أقل اطلاعا وأقل جدارة بالحكم من عاهل البلاد. وقد سجلت أعوام السبعينات شغفا بالعادات الغربية فكل ما يأتي من الغرب من أفكار وأساليب يتمتع بقبول عام ويتم تبنيه بطريقة عمياء. ولكن الريح قلبت اتجاهها في نهاية الثمانينات حيث حدث أول تبدل في سلسلة طويلة من التبدلات التي ستميز موقف اليابان تجاه الغرب. هذا الانقلاب في الميل يفسر في الوقت نفسه صدور (الأمر الإمبراطوري في موضوع الثقافة) المستمد بشكل نموذجي من الكونفوشيوسية، كما يفسر اللهجات المحافظة الشديدة في أغلب الأحيان التي وردت في دستور اليابان عام ١٨٨٩ . على أننا يجب أن نتجنب نقل مفاهيمنا كرجال من القرن العشرين إلى الحقائق اليابانية التابعة للقرن التاسع عشر المنصرم. فواضعو الدستور الياباني عرفوا كلهم المجتمع الإقطاعي ويحملون كلهم أكبر الاحترام للسلطة الإمبراطورية وقد اعتادوا أن يمارسوا سلطاتهم الشخصية بطريقة أوتوقراطية، فلا شيء مدهش إذا بدوا لنا شديدي المحافظة إذ كيف يمكنهم مع مثل هذا الماضي أن يرضوا بالتخلي عن جزء من سلطتهم لرجال يعتبرونهم أقل كفاءة منهم في إدارة البلاد؟.

لقد حافظ الأوليغاركيون على كل أعباء البلاط الإمبراطوري وكرامته وأنشؤوا في عام ١٨٨٨ مجلسا خاصا وفيا للإمبراطور. وفي عام ١٨٨٤ وجدت طبقة جديدة من النبلاء

مخصصة للجلوس في مجلس (الأعيان) المقبل الذي يجب استخدامه لموازنة (المجلس الأدنى). وقد وزع أرستقراطيو البلاط السابقون على خمس مراتب من النبالة تبعا لسعة إقطاعاتهم القديمة ومدى إخلاصهم لنظام الميجي. أما القادة الذين هم على الأغلب من قدماء الساموراي فقد نظموا بأنفسهم ترفيعهم جاعلين لأنفسهم مكانا في التدرج الاجتماعي الجديد حتى أن بعضهم لم يتردد في أن ينسب لنفسه اللقب السامي (الأمير). ونشر الدستور أخيرا في الحادي عشر من شباط فبراير عام ١٨٨٩ وقدم على أنه هبة أنعم بها الإمبراطور على شعبه. وقد عالج طويلا سلطات الإمبراطور الشخص (المقدس المصون) والنعترف به مصدرا لكل السلطات. وحدد بكل دقة واجبات الرعايا وحقوقهم. وكانت تلك الحقوق خاضعة مع ذلك لتقييد استعمالها (في حدود القانون). وكان أكبر تجديد في الدستور خلق مجلس تمثيلي منتخب كله، والرجال الذين يدفعون خمس عشرة ينا YEN من الضرائب المباشرة يحق لهم وحدهم حق التصويت. وبمثل هذه الشروط الضريبية المفروضة على المنتخب انخفض ملاك الناخبين إلى أربعمائة وخمسين ألف رجل أي ٦% من الناس البالغين الذكور، وذلك إجمالا هو ملاك نظام الساموراي القديم. والحقيقة أن الكثير من الناخبين كانوا من أصل شعبي وبخاصة الفلاحين المالكين لأرضهم، وقد رصد مجلس للأعيان لموازنة مجلس الممثلين، وهذان المجلسان المجتمعان يشكلان (الدييت) الذي كان دوره يقدم أساسا على التصويت على الضرائب وعلى الميزانية.

إن دستور الميجي يذكرنا بالخطوات الأولى التي خطتها ديمقراطية الغرب السياسية. وهو أقرب إلى دساتير البلاد الأكثر تخلفا في أوروبا عام ١٨٨٩ منه إلى دساتير فرنسا وإنكلترا أو الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت. وقد اعتبر مؤرخون عديدون منذ ذلك الوقت أن نص ١٨٨٩ كان نكوصا وتراجعا عن انتشار التيار الديمقراطي في نهاية القرن التاسع عشر، ويقولون إن أول تجربة دستورية يابانية استوحيت من مفاهيم رجعية متعددة. ويبدو أن من الأكثر عدلا أن نعترف بأن متطلبات العصر تستبعد في الواقع إمكانية الوصول إلى نظام أكثر ديمقراطية. يضاف إلى ذلك أن القادة كانوا خاضعين لمعارضة اجتماعية فلم يكن في إمكانهم نشر الليبرالية البرلمانية حتى حدودها القصوى. والأكثر عجبا أنه برغم أن الأ وليغاركيين وافقوا على منح قسط حقيقي من السلطة

السياسية للمثلين المنتخبين من الشعب فإنهم تركوا – وعن قصد بدون شك – ما يكفي من الغموض في النص الدستوري لكي يسمحوا بتحرك النظام في إطار العرف. ولم يجد ضغط الرأي العام في موضوع التجاوزات على المبادئ التمثيلية فالأوليغاكيون الحريصون على سلطتهم تجاهلوا نداءاته. وكان كل شيء ينطلق من القناعة بأن دساتير منسوخة عن دساتير الغرب يمكن أن تؤمن للأرخبيل استقرارا سياسيا وللنظان دعما شعبيا وللمعارضة منبرا تعبر منه عن آرائها بهدوء.

وبدا الأمل معقودا بصورة خاصة على أن يابانا دستورية محكومة بقوانين موحدة وعادلة سيكون لها أثر عميق على الغربيين. ولم يكن هذا الأمل خائبا، فتحديث الحياة السياسية اليابانية كان له نصيب في توقيع معاهدة السادس عشر من تموز يوليه ١٨٩٤ التي تخلت بريطانيا بموجبها عن حقها في حصانة رعاياها وقد تم ذلك حتى قبل أن يكشف الأرخبيل عن قوته العسكرية في الحرب الصينية اليابانية. وقد بدأ تنفيذ الاتفاق عام ١٨٩٩ عند إصدار قوانين قضائية جديدة في اليابان. وسلكت بقية البلاد الطريق نفسه. وفي عام ١٩١١ استعادت اليابان حريتها الجمركية الكاملة وتحررت نهائيا من المعاهدات غير المتكافئة التي فرضت عليها في الماضي بتأثير التفوق العسكري لأوروبا وللولايات الأمريكية المتحدة. واليابان يومئذ هي البلد الشرقي الوحيد الذي حصل على المساواة الدبلوماسية مع الغرب.

❋ ❋ ❋

ديمقراطية وإمبريالية

بعد أن أصبح دستور عام ١٨٨٩ ساري المفعول تابع اليابانيون إظهار اهتمامهم الكبير بالعلوم والتقنيات والقيم الغربية. بيد أن التبدلات التي لحقت بالمجتمع والاقتصاد على مدار القرن كان مصدرها تطور المؤسسات الجديدة دون الرجوع إلى الأنماط الأجنبية، وما لبثت أن أعطت وجها جديدا للبلاد. ففي الخارج غدت اليابان دولة استعمارية كبيرة بينما تحولت في الداخل إلى ديمقراطية برلمانية. وليس هذا التطور الذي يبدو في الظاهر متناقضا وحيد المثال. ففرنسا وإنكلترا تزودتا متنافستين بإمبراطورتين استعماريتين واسعتين وبمؤسسات ديمقراطية. أما في اليابان حيث أتى السير في مضمار التحديث متأخرا وبموجب إيقاع أسرع فإن هذا التعارض كان مصدرا لعدم الاستقرار كما أصبح عنصر هشاشة للأمة.

ما قبل الحرب والفتوحات الاستعمارية:

تعود محاولة اليابان الوحيدة في الفتح الخارجي إلى عصر هيدي-يوشي أي إلى ما قبل ثلاثة قرون. وفي مطلع الميجي ظهرت ضغوط من أجل إرسال حملة عسكرية على كوريا، والأمر من الناحية الرسمية يتعلق بمعاقبتها على رد مهين بدر منها تجاه عروض يابانية بينما الهدف الحقيقي تأمين أعمال للساموراي الذين نزعت منهم ممتلكاتهم على يد النظام الجديد، وبمناسبة هذا الموضوع استقال سيغو وإيتاغاكي من الحكومة. ومن أجل تهدئة الميالين إلى الحرب نظمت في عام ١٨٧٤ حملة أقل خطرا بكثير ووجهت ضد الفورموزيين الذين قاموا منذ قليل بمذبحة في بحارة أوكيناوا. وقبلت الحكومة الصينية بدفع غرامة لليابان تعويضا لها عن هذا الحادث معترفة بذلك ضمنيا بشرعية الإدعاءات

اليابانية في جزر ريوكيو. وفي عام ١٨٧٩ ربطت هذه الجزر الأخيرة قانونيا بالأرخبيل ونالت أوكيناوا وضعية محافظة يابانية.

وفي مطلع أعوام التسعينات أصبحت اليابان على مستوى أن تهتم بالبلاد المجاورة وأن تساهم مساهمة فعالة في قضاياها. والمفهوم الغربي الذي يقول بأن الأمم الكبيرة مدعوة لممارسة وصايتها على الأمم الأضعف منها لمصلحة الجانبين سادت في ذلك الوقت بلا منازع. وبدت الفتوحات الخارجية أفضل ضمان لأمن الأمة والمحافظة على هيبتها. وقد تميزت نهاية القرن التاسع عشر بهوس استعماري ونزعة إلى اقتسام الصين بشكل منظم. وفي مثل هذا المناخ لم يكن قادة اليابان الذين يمتلكون قوة عسكرية لها قيمتها والذين وضعوا أنفسهم خلال سنوات في مدرسة الغرب بقادرين على تجنب الإنزلاق الطبيعي في الدبلوماسية الدولية، وكانوا ميالين لأن يعتبروا كوريا المجاورة منطقة ذات أهمية استراتيجية حيوية بالنسبة للأرخبيل. وفي عام ١٨٧٨ استعمل اليابانيون تجاه الكوريين الطرائق نفسها التي استخدمها الأميرال بيري معهم. فقد أجبروا كوريا على توقيع معاهدة معهم وأن تفتح مرافئها في وجوههم، ومنذئذ لم يكف نفوذهم في شبه الجزيرة الكورية عن التزايد حتى أصبحوا العامل الأساسي في تحديث البلد. وبما أن كوريا تعترف ولو إسميا بالسيادة الصينية فإن اليابان لم تكن تستطيع أن تتجنب الدخول في النزاع مع الإمبراطورية القارية الكبيرة. وفي خلال صيف عام ١٨٩٤ اندلعت ثورة في كوريا فأرسلت كل من اليابان والصين جيوشها للتدخل، ومن هذه المبادرة المزدوجة نجمت الحرب بين الدولتين. وأمام دهشة الدول الغربية الكبرى انتصرت قوات الأرخبيل الصغير الحديثة وبكل سهولة على العملاق الصيني وتدفقت الجيوش اليابانية على كوريا ومنشوريا وحطمت الأسطول الصيني واحتلت مرفأ واي هاي واي في شبه جزيرة الشانغ-تونغ، وفي السابع عشر من نيسان أبريل عام ١٨٩٥ وضعت معاهدة شيمونوزوكي حدا للحرب الصينية اليابانية. وتنازلت الصين لليابان عن فورموزا وجزر بسكادور وشبه جزيرة لياوتونغ في جنوبي منشوريا كما توجب عليها إضافة إلى ذلك أن تدفع غرامة حربية ثقيلة وأن تعترف باستقلال كوريا وتمنح الرعايا اليابانيين الامتيازات الدبلوماسية والتجارية نفسها الممنوحة للغربيين.

في هذه المرحلة من الأمبريالية المنتصرة تجنبت بلاد الغرب إدانة العدوان الياباني بل

بدت مرتاحة لنجاح تلميذتها، ولكنها أفهمت اليابانيين أن لعبة الأمبريالية لا رحمة فيها وأنهم كغربيين لا يستطيعون أن يقبلوا أبدا أن يأتي شركاء ليصطادوا في مراتع صيدهم، واتفقت روسيا وفرنسا وألمانيا على إرغام اليابان على إعادة لياوتونغ إلى الصين، وبعد ثلاث سنوات استولوا هم وبكل وقاحة على أرض جديدة من الصين واحتفظ الروس بشبه جزيرة لياتونغ، وحتى إنكلترا ساهمت في العملية باحتلالها واي هاي واي التي كانت محتلة حتى ذلك الوقت من اليابانيين.

وجب على اليابان أن تهش لما تم وتبش، فقبلت هذه الإهانة وهي تدرك أن النزاع مع روسيا التي تتطلع أكثر فأكثر إلى منشوريا وكوريا غدا أمرا لا مفر منه. ولما كانت تخشى تكتلا بين الدول الغربية فإن اليابان سعت إلى تحالف أوروبي. وقبلت بريطانيا هذا الدور يحدوها أمل مزدوج في أن ترى منافستها روسيا متورطة في حرب آسيوية مقبلة وأن تتحمل اليابان قسطا من العبء المتمثل في مراقبة البحار. وعقدت المعاهدة الإنكليزية-اليابانية عام ١٩٠٢ وهي أول اتفاق عسكري بين بلد غربي وبلد لا غربي.

غدت الأرض منذئذ مستعدة لنزاع مفتوح مع روسيا. وبما أن اليابانيين يمتلكون المبادرة فإنهم دشنوا تكتيكا جديدا. ففي شباط فبراير من عام ١٩٠٤ نسفوا الأسطول الروسي في الشرق الأقصى ولم يعلنوا الحرب إلا بعد ذلك. وكان باستطاعة روسيا أن تدفع إلى صفوف القتال بقوات تفوق كثيرا قوات اليابان ولكنها معاقة باضطرارها خوض العمليات الحربية في أقصى خط حديدي وحيد طوله عدة آلاف من الكيلو مترات، وهذه المعطيات تفسر نجاح اليابانيين. فقد حاصرت القوات اليابانية جيش الروس في موانئ لياوتونغ التي سقطت بعد هجمات دامية، ثم تابعت بعد ذلك تقدمها عبر منشوريا. ومن أجل أن تصد هذا الاختراق أرسلت روسيا من بحر البلطيق أسطولها الأوروبي الذي قام برحلة شاسعة على طول سواحل إفريقيا وعبر المحيط الهادي، وما أن بلغ المضيق الذي يفصل كوريا عن اليابان حتى أفنته السفن اليابانية عن آخره ووجدت القوات الروسية نفسها قد أصيبت إصابة بالغة. وبما أن اليابان قد أنهكت هي الأخرى إنهاكا كبيرا فإنها سارعت لقبول وساطة الرئيس تيودور روزفلت الذي تأثر كثيرا ببسالة الجنود اليابانيين وكفاءتهم. ووقعت معاهدة في الخامس من أيلول سبتمبر عام ١٩٠٥ في بورتسموث في نيوها مبشير (الولايات المتحدة) وضعت حدا للنزاع الروسي الياباني. وبموجب بنود

هذه المعاهدة اعترفت روسيا بالمصالح اليابانية في كوريا وتخلت للأرخبيل عن ملكية لياتونغ وعن خط حديد جنوبي منشوريا. وأخيرا اشترى اليابانيون نصف جزيرة سخالين الجنوبي الواقعة إلى الشمال من هوكايدو بدلا من الغرامة. وبعد أن أصبحت اليابان حليفة عسكرية لبريطانيا وانتصرت على روسيا وامتلكت إمبراطورية استعمارية في توسع سريع أخذت مكانتها أخيرا في هيأة الدول الكبرى.

وبعد أن تحرر اليابانيون من خصومنة الروس والصين المزدوجة أصبح بإمكانهم في عام ١٩١٠ أن يشرعوا بضم حذر لمجموع شبه الجزيرة الكورية دون أن يثيروا أي اعتراض من جانب بلاد الغرب. وكما فعلو في فورموز فإنهم أرسوا قواعد برنامج طموح للاستثمار الاقتصادي والتنمية. فأنشؤوا خطوطا حديدية ومدارس ومصانع وزودوا شبه الجزيرة بالبنى التحتية الحديثة. وخضع الكوريون والفورموزيون لسيطرة مزدوجة من إدارة استعمارية خالية من الرحمة وشرطة واسعة الشهرة بقسوتها وهمجيتها. وفي كوريا حيث السيطرة اليابانية الحديثة العهد قد اصطدمت بتقاليد شعب متجانس اعتاد منذ أكثر من ألف عام على حكومة بيروقراطية من النموذج الصيني بدت السلطة الاستعمارية أكثر ضعفا مما هي عليه في الأماكن الأخرى فاستدعت كراهية من سكان البلاد لا يهدأ لها أوار.

وقدمت الحرب العالمية الأولى لليابان فرصة جديدة لمد ممتلكاتها دون أن تتعرض لأخطار كبيرة ودون أن تبذل الكثير من الجهود. فباعتبارها حليفة لبريطانيا أعلنت الحكومة اليابانية الحرب على ألمانيا. ومن غير أن يظهر اليابانيون أي اهتمام بنتيجة النزاع في أوروبا وضعوا يدهم على مستعمرات ألمانيا الشرقية واستقروا على ساحل تسينغ-تاو الصيني واستولوا على منشآت ألمانية في مقاطعة شان-تونغ. فقد استولوا على جزر المحيط الهادي الشمالي - ماريان وكارولين ومارشال - التي ستعهد إليهم بها معاهدة فرساي تحت شكل الانتداب. وأخيرا أفادوا من توجه الانتباه كله للنزاع في أوروبا فحصلوا على امتيازات جديدة في الأرض الصينية. وفي عام ١٩١٥ عرضوا على الصين (المطالب الحادية والعشرين) ولكن الصينيين رفضوا الموافقة على المطالب الأكثر طمعا والتي تهدف إلى إنزال الصين إلى مجرد محمية يابانية إلا أنهم لم يستطيعوا منع

الأرخبيل[٧] من التمتع بامتيازات اقتصادية هامة في منشوريا وشان-تونغ وفي مقاطعة فوكيين الساحلية المواجهة لفورموزا.

بعد خمسين عاما فقط من إصلاح الميجي (MEIJI) خرجت اليابان عظيمة من أول نزاع عالمي وتمكنت من فرض نفسها خصما رئيسيا لإنكلترا في السيطرة على الصين. وعندما توجه الوفد الياباني إلى مؤتمر فرساي اتخذ مكانه بين المنتصرين الخمسة الكبار وتمكن أن يفاخر بأنه يمثل أمة محترمة على نطاق عالمي. وهكذا فإن قادة الميجي الذين رشحوا أنفسهم في عام ١٨٦٨ لتغيير بلادهم إلى قوة عسكرية قادرة على منافسة الغرب تمكنوا من أن يحققوا تطلعاتهم في أكثر من جيل واحد بقليل. والتاريخ المعاصر يقدم لنا في الواقع القليل من الأمثلة على مثل هذا الصعود السياسي الخاطف.

ما بعد الحرب والفتوح الاقتصادية:

إن قوة اليابان العسكرية لا تنفصل عن نجاحاتها الاقتصادية. ففي نحو من نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر بلغت الصناعات الحديثة عتبة الإثمار بينما وجهت الحربان مع الصين وروسيا ضربة لاقتصاد البلاد. أما الحرب العالمية الأولى فإنها سمحت لليابان – دون أن تكلفها شيئا – بأن تستولي على الأسواق الآسيوية التي عزلتها الحرب عن بؤر التموين الأوروبي. وقد اهتبل رجال الأعمال اليابانيون هذه الفرصة غير المتوقعة لكي يعمقوا جذورهم في أسواق كانت حتى ذلك التاريخ احتكارا للغرب.

في خلال هذه الحقبة التي نهتم بها عرفت اليابان سلسلة من النجاحات في صناعات خفيفة متنوعة. فالأنهار الصغيرة التي لا تحصى والمنحدرة نحو سواحل الأرخبيل جهزت بمراكز طاقة كهرمائية. وانتشر الماء الجاري وغاز المدينة في كل مكان ولم تكف شبكة الحافلات الكهربائية (الترامواي) عن التوسع. وارتفعت اليابان في كل المجالات إلى مصاف البلاد الحديثة واستدركت تخلفها عن الغرب.

واليابان هي أول بلد غير غربي يتبنى على نطاق واسع تقنيات الصناعة والتجارة الحديثة. وستؤمن له هذه المبادرة عما قريب مكانة استثنائية في عالم الاقتصاد. وقد سمح له الجمع بين التقنية الغربية واليد العاملة الشرقية الرخيصة ببيع منتجاتهم بأسعار منافسة،

---

[٧] أي اليابان – المترجم –

وإذا كانت البلاد الآسيوية الأخرى تمتلك هي أيضا يدا عاملة رخيصة فإن التقنية تنقصها. وعلى العكس من ذلك فإن أوروبا وأمريكا تتمتعان بتقنية متقدمة وتمتلكان مصادر طبيعية أكثر من اليابان ولكن الأجور المرتفعة تزيد كثيرا من تكاليف الإنتاج. هذا التفاوت بين مستويات الحياة الغربية والشرقية من جهة والتخلف الصناعي في مجموع البلاد الشرقية من جهة أخرى وضعت المشروعات اليابانية في مكانة ملائمة خاصة. وبما أن اليابان تنتج لسوق داخلية قليلة الانتعاش نسبيا وللجماهير الآسيويين البائسين فإنها اتجهت نحو صناعة سلع استهلاكية قليلة التكاليف ورديئة في معظم الأحيان. وفي نهاية القرن التاسع عشر استخدمت صناعة النسيج اكثر من نصف اليد العاملة الصناعية وقدمت أهم الصادرات. أما الصناعات الثقيلة كصناعة الصلب وترسانات الصناعة البحرية فقد شجعت هي الأخرى وبخاصة لغايات عسكرية. ووجب انتظار الثلاثينات من القرن العشرين ليبدأ اليابانيون بمنافسة البلاد الغربية في مجال الصناعة الثقيلة، ولم يصبحوا منافسين في الصناعات الميكانيكية الدقيقة والصناعات الخفيفة إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

واليد العاملة اليابانية، إضافة إلى غزارتها العددية، تمتاز بأنها يد اختصاصية على مستوى عال. وعلى خلاف شعوب البلاد الآسيوية الأخرى فأن جماهير اليابانيين ألفت العمل المأجور منذ أمد طويل وورثت نشاطات حرفية تقليدية ذات مستوى جيد. وأدى تقدم مستوى الطب والبنى التحتية إلى مضاعفة عدد السكان خلال نصف القرن الذي تلا إصلاحات الميجي (MEIJI) وغدا الأرخبيل يضم ستين مليونا من السكان. وتشكل الأرياف اليابانية المكتظة بالسكان منذ عهد توكوغاوا واحتياطا يبدو أنه لا ينفذ من اليد العاملة الرخيصة، ومثل هذه الحالة تختلف اختلافا عميقا عن حالة الولايات المتحدة حيث حررت مكننة الزراعة الأذرع للأعمال المدنية وساهمت بظهور زراعة واسعة مزدهرة، ومثل هذا المخطط للتطور لا يطبق إلا في بلاد واسعة الأراضي وقليلة اليد العاملة. أما اليابان فهي على العكس من ذلك تتميز بسطح صغير صالح للزراعة من الأرض وبجاهزية كبيرة من اليد العاملة. والأراضي المتروكة بورا هي استثنائية فيها إلا في هوكايدو، والمساحة المتوسطة للاستثمارات الزراعية في الجزر الجنوبية الثلاث لا تكاد تزيد عن الهكتار الواحد. وفي مثل هذه الشروط يكون السكان الريفيون الوافرو العدد

مضطرين للهجرة إلى المدن. وبما أن الصناعات الجديدة لم تكن تملك إلا نادرا رؤوس أموال فائضة تسمح لها بامتصاص هذا الوارد المستمر من اليد العاملة فإن الأجور في المدينة تميل للتدني إلى مستوى الأجور الزهيدة التي يتقاضاها أولئك الذين يعملون في الزراعة اليابانية الصغيرة. والفتيات الريفيات بين سن الخروج من المدرسة وسن الزواج الذي هو حوالي العشرين يقدمن معظم اليد العاملة لصناعة النسيج. وبما أنهن كن يحشرن في عنابر للنوم فقد كن يشكلن قوة عمل رخيصة ومطيعة ومنتجة. أما الأبناء غير البكور المجبرون على السعي وراء عمل في المدن فقد غدوا يشكلون شيئا فشيئا طبقة عاملة أفضل اندماجا بحياة المدينة وإن لم يقطعوا قط الجسور مع محيطهم الريفي الأصلي الذي ينكفئون إليه أيام الأزمات. وقد بقيت الأجيال الأولى منهم طوال حياتهم فلاحين بلا جذور.

فنجاحات الصناعة اليابانية إذن لم تؤد إلى تعديل محسوس على مستوى حياة الطبقات الشعبية. والنمو السريع في السكان والملاكات الوافرة في عالم الفلاحين أبعدت كل تغيير عميق في شروط الحياة. ولا شك أن انخفاض أسعار السلع المصنعة وتعديل نوعية المواد الاستهلاكية قد أفادت كل طبقات المجتمع. فالمنسوجات القطنية الرخيصة والأحذية ذات النعول المطاطية والجزمات المصنوعة من المطاط والدراجات أصبحت كلها في متناول الجميع. وتطور اقتصاد الخدمات أيضا، كالتعليم العام والطب والإضاءة الكهربائية والنقل الاقتصادي الرخيص بواسطة الخطوط الحديدية وضعت كلها تحت تصرف المواطن الياباني. ولكننا نشاهد أن التعديل كان قليلا في قطاعين أساسيين هما المسكن والغذاء.

إن الأهداف السياسية للطبقة الحاكمة تفسر لنا جزئيا لم كانت الجماهير محرومة من ثمرات الازدهار الاقتصادي. فانطلاقا من الشعار القديم (بلد غني وجيش قوي) منح المسؤولين في البلاد اهتماما أساسيا لتطور البنى التحتية وإنشاء قوة عسكرية قوية.

من جهة أخرى شجع تركيز القدرة الاقتصادية في بعض العائلات الكبرى على إنتاج مواد التجهيزات على حساب المواد الغذائية. وعادات التوفير إلى درجة التقتير التي ورثها اليابانيون عن الأخلاق الكونفوشيوسية التقليدية وعن الأزمات الاقتصادية في حقبة التوكوغاوا قوت كذلك الميل إلى التعود على حياة بسيطة. وحتى أفراد الطغم المالية الكبرى رغم ثروتهم أبدوا اعتدالا وبساطة في المأكل والمشرب. وبدلا من السعي وراء

متع الحياة ومباهجها وفتح حسابات لهم في مصارف الغرب وامتلاك القصور في البلاد الأجنبية أعادوا استثمار أرباحهم بطريقة منظمة في مشروعات توسعية. وحتى الرجل العادي من الشعب اعتاد على أن يضع قسما كبيرا من مداخيله في صناديق التوفير، ولا تزال عادات التوفير هذه معمولا بها حتى اليوم.

كان لتمركز السلطة الاقتصادية القوي في اليابان أصل مزدوج، فهي ناجمة من ناحية عن نزع التأميمات الذي قام به ماتسوكاتا في الثمانينات من القرن التاسع عشر، ولكنها نجحت أكثر من ذلك أيضا عن المساعدة المالية وعن الرعاية اللتين أولاهما النظام للمشروعات الأفضل فائدة من أجل بناء البنى التحتية التي تحتاجها البلاد. وكان قادة العائلات الرأسمالية ZAIBATSU على علاقة وثيقة مع النخبة السياسية سواء لأنهما من أصل مشترك أو عن طريق روابط الزواج، ومثل هذه الصلات تؤدي إلى نظام قائم على المحاباة يمكن أن يبدو لنا فاضحا إذا قيس بمفاهيمنا الحالية. وعلى هذه الطريقة بني إيواساكي تروست الميتسوبيشي بفضل المساعدات المالية والطلبات على المراكب من قبل الحكومة بمناسبة الحملة على فورموزا عام ١٨٧٧، ومثل هذا التواطؤ بين الحكومة وأوساط الأعمال يمكن أن يبدو بغيضا في نظر الأخلاق ولكنه أدى إلى ازدهار اقتصادي لا مثيل له في سرعته وكان من نتائجه المباشرة أيضا ميلاد روح من الثقة والتعاون بين عالم السياسة وعالم الأعمال. وبينما العلاقات بين الحكومة والقطاع الخاص في الولايات المتحدة تتميز بنجاح من الشك المتبادل والبغضاء المشتركة فإن رجال الأعمال في اليابان يتقبلون من الحكومة عن طيب خاطر توجيهاتها ومراقبتها التي زادت زيادة كبيرة في عهد التوكوغاوا. ومن جهة أخرى فإن تدخل الدولة يمارس وفقا لروح الحداثة ويفسر بوجه خاص بالتحريض على التجمع والتمركز الاقتصاديين. وعلى هذا الأساس اندمجت ترسانتا الإنشاءات البحرية ميتسوي وميتسوبيشي في عام ١٨٨٥ ليتمكنا من منافسة الترسانات الغربية بشكل أفضل. كذلك حدث في التسعينات من القرن التاسع عشر أن معامل غزل القطن شكلت تحت قيادة شيبوزاوا كارتيلا قويا بقوة مزاحمة قوية امتدت على سوق القطن العالمية. وقد رسخت هذه الاندماجات المختلفة في الاقتصاد الياباني ميلا واضحا لأن يكون خاضعا للإرادة والتوجيه أكثر مما حدث في بلاد الغرب.

على أن تدخل الدولة المنهجي تعرض لخطر تحويل المشروعات اليابانية إلى قطاع

(مساعد) عاجز عن البقاء بنفسه. ومن حسن الحظ أن هذا الخطر أمكن تلافيه. وقد مثل المشروعان اليابانيان الكبيران ميتسوي وميتسوبيشي النموذج الكامل المحتذى به لمشاريع الزايباتسو، تلك الاندماجات المميزة للاقتصاد الياباني. وقد جرت العادة أن تتألف الزايباتسو من شركة من نوع الهولدنغ HOLDING [8] تكون كلها بيد العائلة التي أعطت اسمها لهذا الاندماج. وهذه العائلة تشرف عن طريق لعبة مساهمات مالية على المشروعات الصناعية والتجارية الرئيسية لمجموعة هذه الشركات التي تحتفظ بدورها بحصص في المشروعات الأقل أهمية وفي الفروع. وتذكرنا هذه البنية بنظام توكوغاوا الشوغوني في تنضيد إقطاعاته وقصوره الريفية ضمن مراتب مختلفة. وقد احتفظت العلاقات بين الأشخاص داخل الزايباتسو بصفة شبه إقطاعية تكتسي فيها عواطف الولاء بأهمية بالغة. وعندما يدخل المالك الجديد ميدان العمل يعرف أن عمله سيدور في قلب التروست نفسه، وبعد ترفيع إثر ترفيع ينتهي به الأمر لأن يتعرف على الوحدات المختلفة داخل المجموعة.وبين كل المديرين في أحد هذه الزايباتسو يوجد أخيرا نوع من الارتباط الداخلي بحيث تقوي هذه العلاقات الشخصية تماسك المجموع.

والزايباتسو – على خلاف كل الإمبراطوريات الصناعية الغربية – لا تقتصر على نموذج واحد من الأنتاج بل تهتم بمختلف فروع الاقتصاد الحديث. وبما أنها أنشئت بوجه عام حول مؤسسات مصرفية قوية فهي تشمل بدون تمييز استثمارات معدنية ومشروعات صناعية وترسانات للإنشاءات البحرية وشركات للإستيراد والتصدير. ومثل هذا الوضع يهيء لها موارد مالية كافية لإنجاز ابتكارات في قطاعات طليعية فتقوي بذلك هيمنتها على اقتصاد البلاد. وتتبدى المنافسة المتبادلة في وضح النهار، والمواجهات الاقتصادية أو السياسية بين ميتسوي وميتسوبيشي لم تلبث أن غدت مضرب الأمثال.

التربية والحياة الفكرية:

إن النجاحات التي تحققت بعد عام ١٨٨٩ في النظام السياسي والثقافي هي نجاحات حقيقية تماما كالنجاحات الاقتصادية، ولكن بما أنها أتت بصورة متقطعة وغير متوقفة فإن لفتها لإنتباه المراقب هو أقل. ولم تبدأ معظم الإصلاحات الاجتماعية والتربوية التي قام

---

[8] الهولدنغ HOLDING مؤسسة تمتلك أسهم شركات أخرى وتشرف على أعمالها – المترجم –

بها قادة الميجي في إنتاج ثمارها إلا بعد مضي قرن من الزمان، ولأول مرة أصبح أثرها الحاسم في جسم المجتمع ملموسا بعد هذه الفترة ولم يعد المواطنون المتعلمون نادرين وعدد أولئك الذين يصلون إلى التعليم العالي صار يعظم من عقد إلى عقد. وطبقة رجال الأعمال تزداد عددا كلما تتابعت نهضة الطبقات الوسطى المنتمية إلى المدن والمؤلفة من (الياقات البيض) التي احتفظ اليابانيون لها باسم (المأجورين). وتدين الأجيال الجديدة التي لم تعرف عصر التوكوغاوا بتكوينها إلى نظام التربية الجديد الذي حفظها في معزل عن المؤثرات الإقطاعية في النظام القديم. وقام رجل اسمه فوكوزاوا فأدخل إلى اليابان مذهب النفعية الإنكليزي ومذهب الداروينية الاجتماعي وفلسفة جان جاك روسو الفرنسية. وفي نحو من نهاية القرن بدأت المذاهب الاشتراكية القادمة من أوروبا بالنفوذ إلى الأرخبيل. وفي الثمانينات من القرن التاسع عشر خلقت طائفة مسيحية بتأثير المدارس التبشيرية ومارست على الأخلاق ونظام القيم اليابانية تأثيرا واسعا رغم عدد أفرادها المتواضع. وفي الحقبة نفسها أدت ردة الفعل على الغرب إلى ظهور تيارات مختلفة من القوانين المتطرفة التي تعاونت مع نزعة التوسع العسكرية لتنشر صورة ليابان مدعوة لحماية آسيا من العبودية للغرب. وتكاثرت الصحف والمجلات ومدت توزيعها بفضل النجاحات في تعليم الأميين وحب اليابانيين للقراءة.

هذا المناخ من الغليان الثقافي ساهم في نهضة الأدب القومي. ففي العقود الأولى من إصلاح الميجي اتجه النشاط الفكري بالدرجة الأولى نحو ترجمة المؤلفات الغربية. وفي مطلع القرن العشرين دشن ناتسومي مع بضعة كتاب آخرين أسلوبا رومانسيا جديدا مستلهما في آن واحد من الأدب الغربي ومن الأرث الأدبي من حقبة التوكوغاوا، وأخذت أعمالهم مكانها بين المنتجات الكبرى في الأدب العالمي المعاصر. وتتميز هذه الأعمال بالرجوع الدائم إلى تجربة المؤلف الشخصية وتحليل دقيق للحياة الخاصة، والأغلبية منها تعبر عن شعور حاد بالانسلاب الذي يعكس التوتر النفسي لليابانيين الموزعين بين المعايير الموروثة من النظام القديم وبين القيم الغربية للعصر الحديث.

التدرب على الديمقراطية البرلمانية:

في هذا السياق من التبدلات الاقتصادية والعقلية عرف النظام السياسي الذي تصوره رجال الميجي عام ١٨٨٩ تطورا يختلف عما تصوره موجدوه. فالمجلس التمثيلي تكشف

عن مجلس مسبب للاضطراب واكتشف آباء النظام والذهول يعلوهم أنهم منحوه سلطات تتجاوز ما كانوا يتوقعون. فالتصرف الذي يقول باتباع الميزانية السابقة اتباعا آليا في حال رفض قانون الميزانية الجديدة بدا غير ملائم في اقتصاد سريع النمو لأن مخصصات السنة المنصرمة كانت دائما غير كافية. ومن أجل الحصول على تصويت على ضرائب جديدة ومخصصات إضافية الحكومة اضطرت لمنح ممثلي الشعب تنازلات ورطتها في مسار أبعد مما تتمناه. والجديد المدهش في عصر الميجي أنه في بلد محروم حتى ذلك الوقت حرمانا تاما من التقاليد الليبرالية ظهر طموح شعبي قوي من أجل اقتسام ديمقراطي للسلطات. وقد كشف هذا الميل عن مدى الفتنة التي تمارسها المؤسسات الأوروبية والإشعاع العالمي لفكرة الديمقراطية. وأعضاء الطبقة القديمة صاحبة الامتيازات والتي تملك تقليدا قويا في المساهمة السياسية أيدوا بصورة عامة اتجاه النظام إلى الديمقراطية. ولم يكن أكثر الساموراي القدامى قد عادوا إلى مصاف طبقتهم ثانية بعد إلغاء إمتيازاتهم إلا بشق النفس فهم يطمحون لأن تكون لهم حصة في المسؤوليات السياسية. وبما أنهم كارهون للحكم الذي سلبها منهم فقد اتجهوا بكثرة إلى الصحافة التي تسمح لهم بالتعبير عن معارضتهم للحكومة، وهكذا ولد تقليد بقي دائما نشيطا في أن تكون الصحافة اليابانية صحافة معارضة على أوسع نطاق. والكثيرون من قدماء النبلاء يعتبرون ظهور أحزاب سياسية عصرية وخلق مجالس منتخبة فرصة لأن يكون لهم مكان بين النخبة القائدة في البلاد. وقد أظهر أناس ينتمون في أصولهم إلى طبقة الفلاحين أو التجار بنزوعهم إلى هذه التطلعات الديمقراطية إلى أي حد أثرت أخلاق الساموراي في عناصر الأمة من المثقفين وذلك منذ عهد التوكوغاوا بدون شك. ومع ذلك فإن دوافع المدافعين عن الحكومة التمثيلية من حيث النتيجة كانت قريبة من دوافع الأنصار الأوائل للبرلمان البريطاني: فالمثل الأعلى الديمقراطي كان يمحي خلق إرادة طوعية في الإنحناء أمام السلطة.

وقد ناضل إتاغاكي – وهو واحد من أوائل القادة في النظام الجديد – من اجل حكومة تمثيلية منذ عام ١٨٧٤. وأنشأ (حزب الحرية وحقوق الشعب) الذي غدا عميق الجذور رغم أنه محروم من أي نفوذ فعال في البلاد. وفي عام ١٨٨١ أدى إبعاد أوكوما عن الحكومة وإعلان الدعوة إلى مجلس وطني إلى غليان سياسي حاد ساهم فيه كل من إيتاغاكي وأوكوما مساهمة نشيطة. وسمحت انتخابات مجالس المحافظات في عام ١٨٧٩ وانتخابات

المجالس البلدية في عام ١٨٨٠ لهما باكتساب خبرة ملموسة في ممارسة الانتخابات. وأسلم ذعر الحكومة وانذهالها تمكنا من كسب الانتخابات التشريعية ووجدا نفسيهما يشكلان الأكثرية عند افتتاح دورة المجلس في الخامس والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر لعام ١٨٩٠.

وانتظم نواب المعارضة في الدييت (المجلس) في حزبين هما الحزب الليبرالي (جي يو تو) الذي ضم أصدقاء إتاغاكي والحزب التقدمي (كي شينتو) الذي ضم أنصار أوكوما. وأفضل وسيلة يمتلكونها لفرض سلطتهم هي عرقلة التصويت على الميزانية. ولم تلق معارضتهم السلاح خلال أربع سنوات مارسوا فيها نزاعا دائما مع الأوليغاركيين (ممثلي الأقلية) الذين يقودون البلاد. وقد لجأت الحكومة مرات عديدة إلى حل الدييت على أمل أن تفسر الانتخابات الجديدة عن مجالس أكثر طواعية وتعاونا. ومن أجل إرهاب مرشحي المعارضة لم تتردد في اللجوء إلى الضغوط الإدارية وضغوط الشرطة أو شراء الأصوات، ولكن مرشحي الحكومة هزموا حتى في الانتخابات العامة التي جرت في شباط فبراير عام ١٨٩٢ وهي ثانية انتخابات في التاريخ الياباني واشتهرت بعنفها وفسادها. ثم أخذت الطغمة الحاكمة تعتبر النظام البرلماني شيئا فشيئا مضرا للبلاد واقترح البعض إلغاءه، ولكن ذلك يعني خطر فقدان المكانة امام الغرب والمجازفة نهائيا بإمكانيات الوصول إلى المساواة السياسية مع الدول الكبرى. وقام إيتو - وهو واضع الدستور والقلق على ألا يصل إلى غايته - يلح على متابعة تجربة الحكومة الدستورية.

وهيأت الحرب الصينية اليابانية مثل كل الحروب اللاحقة بعض الراحة للوزارة. وعلى غرار كل البرلمانيين في العالم فإن أعضاء الدييت الياباني الذين أخذتهم طفرة التعصب القومي أغلقوا آذانهم عن خلافاتهم ليصوتوا للميزانية العسكرية. وما أن انتهت الحرب حتى جرت محاولة لتسوية سياسية إذ قام إيتو بإدخال إيتاغاكي في حكومته مقابل دعم الليبراليين. وفي عام ١٨٩٦ عقد ماتسوكاتا اتفاقا مع تقدميي أوكوما. فرغم استمرار الأليغاركية الحاكمة في المحافظة على فكرة مجلس وزراء فوق الأحزاب إلا أنها كانت مستعدة للقيام ببعض التنازلات للمعارضين، ولم يكن هؤلاء الأخيرون يرفضون القبول باتفاق مدروس لأن هدفهم الرئيسي في الواقع هو السيطرة على المجلس النيابي بغض النظر عن الخط السياسي المتبع. وبدا أن اللبراليين والتقدميين أشد حرصا على الوصول

إلى المسؤوليات السياسية بدون تأخير منهم على الدفاع عن المثل الديمقراطية، كما تكشف العمل البرلماني الياباني عن خواء وغموض ولم ينفك عن الابتعاد عن المخطط المثالي الذي حلم إيتو بتحقيقه. على أن النظام تغلب على المرض الذي يودي بالأطفال عند نشوئهم، وللمرة الأولى لعب أحد البرلمانات دورا سياسيا في بلد غير غربي. ومن جهة أخرى يبدو أن هذه المؤسسة اجتازت التطور نفسه الذي عرفه البرلمان البريطاني أبو كل البرلمانات في العالم وستعترضها في المستقبل الكثير من التطورات.

في عام ١٨٩٨ لم يقبل أحد من أفراد الأوليغاركية بأن يصبح رئيسا للوزراء فعهد إلى كل من أوكوما وإيتاغاكي بمهمة تشكيل الحكومة. وفشلت التجربة بسبب الخصومات بين حزبيهما ولرفض الإدارة بأن تمد يد التعاون. عندئذ قرر ياماغاتا مؤسس الجيش الياباني والذي يعتبر من الأوليغاركيين الأكثر محافظة أن يصلح الأوضاع بالاستغناء عن البرلمان، فشكل وزارة من خارج البرلمان وشدد القمع على المظاهرات العامة وأقام رقابة على الأنشطة السياسية وحد من الوصول إلى الوظائف العامة بطريقة استبعد فيها المرشحين غير الموثوقين. ولكي يتجنب أن يكون للمدنيين حق النظر في شؤون الجيش فإن وزارتي الحرب والبحرية عهد بهما إلى قواد وامراء بحر من الخدمة العاملة. ثم حاول ياماغاتا أخيرا – ولكن دون أن تكلل محاولته بالنجاح – أن يؤسس حزبا حكوميا وعدل نظام الانتخابات.

تضمن قانون الانتخابات الجديد تنظيمين أساسيين. أولهما أنه خفض مقدار مجموع الضرائب المطلوبة من الناخب بحيث زاد عدد الناخبين إلى ما يقرب من مليون. وثانيهما أنه أجرى تقسيما جديدا للدوائر الانتخابية التي كانت قبل ذلك متجمعة في وحدات أكثر اتساعا. وغدت الانتخابات تجري في إطار المحافظات، والأكثر سكانا منها بإمكانها أن تضم حتى ثلاثة عشر كرسيا. والهدف الرسمي للإصلاح هو أن يبرز نخبة من كل منطقة تتمكن من المساهمة في المناقشات ذات الفائدة القومية. ولكن الاصلاح هدف في الحقيقة إلى جعل الدعاية الانتخابية أقل سهولة وأن يسمح لحزب الحكومة بأن يقيم توازنا مع حزبي المعارضة بفضل نظام قريب من التمثيل النسبي.

لقد شلت إصلاحات ياماغاتا المعارضة لبعض الوقت. ولكن بما أنه لم يكن ممكنا قيام حكم مجد بدون مساندة من أكثرية قوية في الدييت فإن إيتو كلف من أقرانه بأن يصلح من

وضع الحكومة تجاه المعارضة. وفي عام ١٩٠٠ صمم على تطبيق الحلول التي ينادي بها منذ بعض الوقت. وفكرته مستلهمة من المبدأ الأميركي الذي يقول إن من الأفضل وجود معارضة داخل الحكومة من وجودها خارجها. وهكذا دعا أنصاره لأن يشكلوا مع الليبراليين حزبا سياسيا جديدا هو السي يوكاي SEIYUKAI . ولما أصبح رئيسا لهذا التشكيل الجديدعين إيتو رئيسا للوزارة للمرة الرابعة. وعندما كلف بتشكيلها عهد بعدة حقائب وزاريةإلى أعضاء من الحزب المعارض القديم، وقد قدمت هذه البادرة فائدة مضاعفة بأن أمنت للوزارة دعما قويا من الدييت وسمحت للمعارضين القدماء بأن يلعبوا أخيرا دورا نشيطا في السياسة.

بفضل التسوية التي تخيلها إيتو عرفت المؤسسات عملا متناسقا خلال ما يزيد على العشرة أعوام. وبدا أن الحياة السياسية اليابانية وجدت وسيلة لسرعة اندفاعها ووصلت أخيرا إلى الاستقرار الذي افتقدته في العقد الأول من الحكومة الدستورية. ومع ذلك فإن إيتو لم يتمكن من المحافظة طويلا على وضعه الغامض رئيسا للحزب وعضوا في الأوليغاركية التقليدية، وما لبث ياماغاتا خصمه الرئيسي في قلب الأوليغاركية أن أعلن عداءه بسبب لعبته المزدوجة تلك وحرض مجلس الأعيان على رفض الميزانية التي قدمها إليه. وفي عام ١٩٠١ انسحب إيتو لصالح الجنرال كاتسورا أحد الذين يحميهم ياماغاتا والذي ينتمي مثله إلى عائلة شوشو. وعلى غرار ياماغاتا طبق كاتسورا في بادئ الأمر سياسة معادية عداء شديد للأحزاب وأعلن حل الدييت مرتين إحداهما عام ١٩٠٢. ثم وضعت الحرب اليابانية-الروسية (١٩٠٤ - ١٩٠٥) حدا للخلافات السياسية بصورة مؤقتة، وما أن انتهت الخصومات حتى عقدت تسوية جديدة بين الحكومة وحزب سي يوكاي الذي ثبت أركان الوزارة بولائه لها مقابل وعد قطع له بأن الرئاسة ستعود إليه بعد ذهاب كاتسورا.

أما إيتو فقد ترك واجهة المسرح السايسي. وفي عام ١٩٠٣ تخلى عن قيادو حزبه إلى محميه الأمير سايونجي محتفظا لنفسه بوظيفة رئيس المجلس الخاص الشرفية، ثم أنهى حياته العملية مقيما عاما في كوريا حيث اغتيل في عام ١٩٠٩ على يد احد الوطنيين المتمردين على الحكم الياباني. وكان سايونجي مثل إيتو رئيسا للحزب (المتذبذب) وسليل الأرستقراطية القديمة في بلاط فوجيوارا. وقد أكمل دراسته في فرنسا، وما أن عاد

إلى اليابان حتى غدا صحفيا في الصحافة الليبرالية ثم تسلق سلم الوظائف الإدارية قبل أن يصبح رئيسا لحزب سي يوكاي، ووجب عليه أن ينهي حياته السياسية عضوا في (مجلس قدماء رجال الدوبة (جيزو).

أصبح زعيم السي يوكاي الرئيسي بعد كاتسورا هو (هارا). وهو سليل عائلة كبيرة من الساموراي من شمال اليابان، وسار على خطا الأمير سايونجي نفسها : صحفيا معارضا ثم موظفا مناضلا في خدمة إيتو. ولكن وجب على رجل الشمال أن يقصر طموحاته على الوظائف البرلمانية. وما بين عامي ١٩٠٦-١٩١٢، وبينما كان سايونجي رئيس السي يوكاي يتبادل مع كاتسورا رئاسة المجلس، اهتم عارا بأن يحول السي يوكاي إلى حزب حكومي حقيقي. وقد دعم السي يوكاي سايونجي وكاتسورا كلا بدوره وحصل في مقابل ذلك على مساندة رسمية سمحت له بكسب كل انتخابات يخوضها دون أي صعوبة. وبذلك دشن توازن مستقر نسبيا بين البرلمانيين الذين يسيطرون على المجلس الأدنى وبين الأوليغاركيين الذين يسيطرون على البيروقراطية.

هذه الحقبة من الهدوء انتهت في كانون الأول عام ١٩١٢ مع استقالة وزير الحرب الذي رفضوا أن يسمحوا له بتشكيل فرق جديدة. وأدى ذهابه إلى سقوط وزارة سايونجي الثانية حيث شكل كاتسورا بعده وزارته الثالثة ولكن بدون مساندة من السي يوكاي في هذه المرة. إلا أنه اصطدم بحملة معارضة وراءها رجال السياسة والصحافة تحت اسم (حركة الدفاع عن الحكم الدستوري). وبما أنه كان يائسا من كسب قضيته فإن كاستورا حاول أن ينشئ حزبا جديدا هو الدوشيكي الذي جمع مريديه كلهم من أوساط البيروقراطية وبعض المنشقين عن أوكوما. وبما أنه لم يتوصل مع ذلك إلى تشكيل أكثرية في المجلس الأدنى فقد وجب عليه أن يتخلى عن منصبه في شباط فبراير ١٩١٣ للأميرال ياماموتو الذي ينتسب إلى عائلة ساتسوما فانحلت بذلك الأزمة. وقد حصل هذا الأخير على مساندة السي يوكاي بتبنيه برنامجها السياسي وإدخاله ستة من أعضائها في مجلس الوزراء. ولكنه توفي في العام نفسه نتيجة ما أرهق به نفسه في هذه المهمة.

وفي الوقت نفسه توفي إمبراطور الميجي خلال الصيف من عام ١٩١٢ فافتتح بوفاته عصر تيشو TAISHO ودشنت حقبة جديدة من الحياة السياسية اليابانية. وكان الغليان البرلماني في شتاء ١٩١٢ والذي يسميه المؤرخون (بأزمة تيشو) ينبئ عن تغيير

سياسي. وساعد القصور العقلي للإمبراطور الجديد – الذي أصبح ابنه وصياً عليه منذ عام ١٩٢١ – في إضعاف مفهوم (السلطة الإمبراطورية). وقُدم البرهان على ذلك أثناء أزمة تيشو عندما رفض حزب السي يوكاي إطاعة المرسوم الإمبراطوري الذي أمره بالتعاون مع كاتسورا، ومنذ ذلك التاريخ سقط مفعول المراسيم الإمبراطورية نهائياً في سلة المهملات.

قرعت أزمة تيشو دقات الحزن في الأوليغاركية القديمة بقطعها الروابط التي أمّنت تماسك البيروقراطية حتى ذلك الوقت. وقد ساهم الجيش في هذا التفكك إذ هو معتاد على ممارسة سياسة مستقلة، وارتباطه المباشر مع الإمبراطور منذ أن أورد ياماغاتا في الدستور مبدأ استقلال السلطة العسكرية عن السلطات المدنية. ففي خلال انتقاله إلى الحكم أدخل ياماغاتا عادة أن يعهد إلى ضباط الخدمة العاملة بمناصب القيادة في وزارات الدفاع، وأكسب هذا التصرف العسكريين حقاً حقيقياً للاعتراض VETO في قلب مجلس الوزراء.

وقد أدى نشاط الأحزاب المعارضة الذي لا يمل إلى عجز أي رئيس لمجلس الوزراء عن الاحتفاظ بالسلطة بدون أكثرية قوية في مجلس الدييت. ولم تكن الصحافة والرأي العام يكتمان تفضيلهما لحكومة دستورية تتألف من وزارة مسؤولة أمام أكثرية برلمانية، ولم يكن هذا النمط من النظام يلبي تطلعات الأوليغاركية في عام ١٨٨٩.

ولما حاول كاتسورا أن يخلق حزباً حكومياً مستقلاً عن السي يوكاي أظهر أنه ما من تشكيل سياسي موال يستطيع أن يحتكر لنفسه اللعبة السياسية. ورغم فشل أصاب الدوشي كي عام ١٩١٣ فإنه أفاد – كما فعل السي يوكاي عام ١٩٠٠ – من مساهمة رجال ذوي موهبة تحددوا في معظمهم من الإدارة. وبتأثير من نفوذ كاتو KATO – وهو وزير مفوض قديم في بريطانيا ووزير للخارجية في وزارة كاتسورا الثالثة – فإن الحزب الجديد غدا الخصم الرئيسي للسي يوكاي. وفي عام ١٩١٤ أصبح هاري خلفاً للأمير سايونجي في رئاسة السي يوكاي بينما غدا كاتو رئيساً للدوشي كي الذي سيصبح اسمه كين سي كي في عام ١٩١٩ ثم مين سي تو عام ١٩٢٧.

كانت السنوات الثلاث التي تلت (أزمة تيشو) فترة انتقال. فحكومة ياماموتو المدعومة من السي يوكاي تركت مكانها عام ١٩١٤ لوزارة شكلها أوكوما الذي كان

جزئيا تحت إشراف الدوشي كي الذي يترأسه كاتو بينما هو في الحقيقة ممثل للأوليغاركية القديمة. وفيما بين عامي ١٩١٦-١٩١٨ عادت السلطة للجنرال تيروشي الذي يحميه ياماغاتا حيث كلاهما ينحدر من عائلة شوشو التي حاولت عبثا أن تعود إلى السيطرة. وفي أيلول سبتمبر من عام ١٩١٨ عندما أحس ياماغاتا بكارثة قريبة ساند (هارا) لكي يخلف الجنرال تيروشي في رئاسة الوزارة، وكان ينتظر من وراء مساندته لحزب هارا مساندة علنية ضد كاتو أن يظهر بأن النخبة القائدة التقليدية غدت منذ الآن إلى جانب حكومة دستورية قائمة على لعبة الأحزاب.

كان هارا أول رجل سياسة يصل إلى رئاسة الوزارة عن طريق البرلمان. وهو ينحدر من أرومة اجتماعية أعلى بكثير من معظم أوليغاركيي عصر الميجي. وقد أبدى انه رجل سياسة أكثر منه رجلا بيروقراطيا عندما رفض كل ألقاب النبالة التي عرضت عليه وبقي في نظر البعض (الشعبي الكبير). ورغم مزاجه المتسلط فهو مناور لبق يلجأ إلى سياسة اغتنام النفوذ التي طالما كانت موضع تنديد في الحياة السياسية الأمريكية في القرن التاسع عشر المنصرم. وبما أنه تسلم وزارة الداخلية فإنه عرف كيف يفيد من وضعه على رأس الإدارة في المحافظات والشرطة لإزاحة أنصار ياماغاتا العديدين بين الموظفين المحليين وان يوجد لنفسه أنصارا مخلصين. كان معلما في توظيف الأرصدة العامة لأعمال البنية التحتية وإنشاء المدارس العليا في الدوائر الإنتخابية التي تؤمن النجاح لحزبه. وقد رفض تبني القواعد الدولية المتعلقة بالخطوط الحديدية العريضة التي رغب العسكريون استبدالها بالخطوط الحديدية الضيقة القليلة الاستعمال في الأغراض الاستراتيجية وفضل أن يخصص ميزانية الخطوط الحديدية لبناء مجموعة من الخطوط الثانوية لمصلحة انتخابية محضة.

على أن هارا لم يكن ديمقراطيا بالمعنى الحديث للكلمة كي يتمكن من النجاح في إدارة نظام سياسي متعدد الأحزاب حسب الطريقة التقليدية البريطانية فأصوله لم تعده لذلك قط. كان قليل الاهتمام بإقامة تصويت عام للذكور حسبما يطالب به قطاع من الرأي العام منذ زمن طويل، بل اكتفى في عام ١٩١٩ بتخفيض الضريبة الانتخابية بحيث ارتفع عدد الناخبين إلى أكثر من ثلاثة ملايين من المواطنين. ومن جهة اخرى تبنى اقتراع الأكثرية العددية في الدائرة الانتخابية، وقد حل النظام الجديد المستلهم من إنكلترا وأميركا محل

التمثيل النسبي وسمح لحزب الأكثرية بأن يحافظ بسهولة اكبر على تفوقــه. والانتخابــات العامة التي جرت عام ١٩٢٠ أظهرت فضائل الطريقة الجديدة للاقتراع لأن السي يوكــاي حصلت فيها على ١٧٨ مقعدا من أصل ٤٦٤ مقعدا، هي مقاعد المجلس الأدنـــى. ولكــن حدثا تاريخيا حمل معه حلا مأساويا لسيطرة هارا القوية. ففي تشرين الثاني نوفمـــبر مــن عام ١٩٢١ قام مهووس شاب باغتيال رئيس الحكومة البرلمانية اليابانيـــة. وكــان خلفــه تاكاهاشي الذي بدأ وزيرا للمالية مرموقا في الماضي ورئيسا تافها للوزارة. وبعد ســقوطه تولت ما بين عامي ١٩٢٢-١٩٢٤ ثلاث وزارات برلمانية خالصة ترأسها علــى التوالــي أميرالان ورجل من الأليغاركية صديق لياماغاتا، ولم تتمتع إلا بمدد حكم سريعة الـــزوال. وفي الانتخابات العامة التي جرت في أيار مايو من عام ١٩٢٤ تعرض النواب النــاجحون فيها لفشل ذريع أنبأ عنه توالي أحزاب مختلفة على السلطة بطريقة تشــبه إلــى حــد مــا الطريقة الإنكليزية. وقد دعي كاتو رئيس الكين سي كي (وهو حزب دوشي كي القديـــم) إلى رئاسة الوزراء في حزيران يونيه عام ١٩٢٤، وبعد موته في كـــانون الثــاني ينــاير ١٩٢٦ حافظ حزبه على السيطرة على مجلس الوزراء خلال أكثر من عــام. وفـــي عــام ١٩٢٧ أتى دور السي يوكاي لتولي مسؤوليات السلطة في شخص قائدها الجديد الجـــنرال تاناكا الذي كان عسكريا محترفا خاض غمار السياسة البرلمانية بدافع مـــن طموحــه. ثــم عادت السلطة بعد عامين إلى المين سي تو (وهو الاسم الجديد للكين ســي كــي) الــذي توجب عليه أن يعيدها إلى السي يوكاي في عام ١٩٣١.

في سنوات المعارضة التي سبقت عام ١٩٢٤ كانت الكين سي كي قد جعلت من نفســها المعبرة عن مطالب الجماهير. وفي عام ١٩٢٥ كانت وراء إلغاء الضريبة الانتخابية علــى يد حكومة كاتو. وقد تبنت اليابان نظام التصويت العام للذكور بعد خمس وثلاثيـــن عامــا فقط بعد انتخاب أول برلمان لها، وهذه المهلة أقصر بشكل ملحوظ من المهلة التي قضتـــها الديمقراطية البريطانية لترسيخ جذورها نهائيا في عام ١٨٦٧. وقد توقــع إصـــلاح ١٩٢٥ الانتخابي من جهة أخرى أن الانتخابات ستجري في إطار جغرافي وســـط بيــن الدوائــر الانتخابية الواسعة التي أنشئت في عام ١٩٠٠ على يـــد ياماغاتــا والوحـــدات الأضيــق المستخدمة في الاقتراع الفردي منذ إصلاح هارا عام ١٩١٩ . فالدوائر الانتخابيـــة كـــانت ذات اتساع متوسط وتنتخب كل واحدة منها بين ثلاثة إلى خمسة نواب. وطريقة الاقـــتراع

الذي ابتكر ليعكس بصدق ميول الهيئة الانتخابية ويحد إلى أقصى الحدود من تفاوت التمثيل التي لا تزال معمولا بها حتى اليوم.

احتاجت اليابان إلى أقل من أربعين سنة لتعرف التطور السياسي الذي تراكم في إنكلترا خلال عدة عصور. فالبلاد تبنت عاما بعد عام كل الصفات الخارجية للنظام البرلماني البريطاني، ومع ذلك ففي العديد من النقاط بقي التشابه بين النظامين مجرد واجهة، فمجلس الأعيان بقي قلعة منيعة الإختراق، والمجلس الخاص وبيروقراطية البلاط يدعيان حق الكلام باسم الإمبراطور الذي منحه الدستور سلطة شبه أوتوقراطية. والعسكريون يؤكدون استقلالهم بكل حمية تجاه السلطة المدنية. وأخيرا فإن الطموحات الديمقراطية لم يكن لها الوقت الكافي كي تتأصل في عقول الشعب. فكثيرون من المواطنين كانوا يحتقرون المواجهات القليلة الاحتشام التي تجري في الحملات الانتخابية والمناقشات البرلمانية. والكثيرون منهم يكنون مودة سرية لمثال سياسي كامل ويحلمون بمجتمع مستقر منسجم بين يدي نفر من المخلصين خدام الدولة. والنفوذ السياسي للتروستات المالية وأوساط الأعمال تحرض على الإلغاء الأدبي لشعب لا يزال يحتفظ باتهامات عصر التوكوغاوا و الموجهة ضد طبقة التجار. والرأي العام يتصور السي يوكاي عن طيب خاطر مجرد عميل للميتسوي ويتخيل المنسيتو مجرد معبر عن الميتسوبيشي. ومهما كانت المبالغة والتبسيط مفرطين فإن مما له معنى أن اليابانيين بين الحربين العالمتين كانوا يعتبرون الفساد صنوا طبيعيا للأحزاب.

مشاكل جديدة وأخلاق جديدة:

ترتبط بدايات نظام الأحزاب بظهور مشاكل جديدة. فالعقدان الأولان اللذان أعقبا الحرب العالمية الأولى لم يكونا لأي بلد صناعي فترة رخاء كلي. ولليابان كما كان للدول الأخرى حصتها من الصعوبات. فبعد التوسع المسبب للدوار الذي نجم عن الحرب فإن إعادة الإنتاج الحربي إلى إنتاج سلمي بدا محملا بالمصاعب. وفي آب أغسطس عام ١٩١٨ تسبب التضخم النقدي المتزايد بفتن واحتجاجات في كل البلاد على اسعار الأرز، وتلك هي المرة الأولى منذ تمرد آل ساتسوما التي تعرض النظام العام فيها لمثل هذا الاضراب الخطير. وفي الخارج كان رجوع الأوروبيين بقوة إلى الأسواق الآسيوية سببا في منافسة قاسية ظهر من نتائجها أن كثيرا من المشروعات التي ازدهرت ازدهارا

مصطنعا أثناء الحرب أصبحت الآن عاجزة عن المواجهة. عندئذ بدأت فترة طويلة من الإنكماش في الداخل عالجته الوزارات المتتالية برعونة لا تختلف في شيء عما فعلته الحكومات الأوروبية. وأدت قلة خبرتهم إلى تباطئ في الإنتاج الداخلي الإجمالي الذي لم يتزايد إلا بنسبة ٣٣,٤% خلال السنوات العشرين الأولى مما بعد الحرب. وهذا الرقم إذا قيس بالمتوسطات التي حققتها البلاد الأخرى يبدو لائقا ولكنه لا يمثل إلا ما يكاد يبلغ نصف النماء الذي كانت تحققه البلاد في كل عقد من العقود الممتدة بين عامي ١٨٩٠-١٩٤٠ . وقد ازدادت الحال خطورة في نهاية العشرينات. فما بين عامي ١٩٢٥-١٩٣١ تراجع سعر الأرز (وهو من الحبوب الغذائية الرئيسية في اليابان) وسعر الحرير (وهو إنتاج التصدير الرئيسي) إلى أكثر من ٥٠% وسجل عام ١٩٢٧ توالي إفلاسات مصرفية مذهلة. والأزمة الاقتصادية العالمية التي ولدت في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٢٩ وضعت الأرخبيل في حال أكثر حرجا لأن مجموع بنيته الاقتصادية ترتبط ارتباطا محكما بتجارته الخارجية. ومن أجل تحاشي الصعوبات المتكدسة حاولت الحكومة مرتين - في عام ١٩٣٠ ثم في عام ١٩٣١ - أن تعود إلى قاعدة النقد الذهبي مظهرة بذلك حسا سياسيا لا اعتراض عليه.

وأصبح على اليابان عدا ذلك أن تواجه مشكلات اقتصادية بما سيطلق عليه فيما بعد اسم (البنية الصناعية الثنائية)، وهذا يعني انقساما تتعارض فيه الصناعات الحديثة ذات الانتاج العالمي مع النشاطات التقليدية الأقل مردودا كالحرف الصغيرة والزراعة ومشروعاتالخدمات الممولة. فالأرياف اليابانية التي يتمركز فيها نصف سكان البلاد بقيت خاضعة لنشاطات من النموذج التقليدي التي تواجه زيادة كبيرة في إنتاج المدن. ولم يكن الريفيون يقبلون بهذا النكوص النسبي الذي سيكون وراء بعض حركات المعارضة الفلاحية. ففي عام ١٨٦٨ كان حوالي ٣٠% من الأراضي مستأجرة. ولما أوجدت في عام ١٨٧٣ ضريبة ثنائية تدفع عينا انعكس ذلك على أجور الأراضي التي ازداد مجموعها العام في عام ١٩٠٨ بنسبة ٤٥% عما كان عليه في عام ١٨٧٣. ولكي تحفظ السلام الاجتماعي وجب على الحكومة أن تتخذ تدابير كبح. ومع ذلك فإن الشروط الاقتصادية لأعوام العشرينات زادت من خطورة أحوال المزارعين المستأجرين. وسجلت نهاية الحرب العالمية الأولى استئناف المنازعات بين الملاكين العقاريين والمستأجرين من

المزارعين، وتأسس اول تجمع للمزارعين بإيحاء اجتماعي - مسيحي في عام ١٩٢٢. وغدت اليد العاملة في المدن التي تحررت جزئيا من أصولها الريفية أكثر ميلا إلى النضال هي الأخرى. وأول نقابة للعمال أنشئت عام ١٩١٢ على يد مناضلين مسيحيين، وانطلاقا من عام ١٩١٨ كثرت منازعات العمل والإضطرابات ومنظمات الدفاع المهني. وخلال عام ١٩١٩ وحده وجد ثلاثمائة ألف من العمال أنفسهم مشتركين في منازعات عمل. وقبل نهاية عام ١٩٢٠ كان مثل هذا العدد منتميا رسميا إلى نقابات العمال.

إن الاضطرابات السياسية والعسكرية التي حدثت في أوروبا كان لها انعكاس على الحياة الاجتماعية والحركة الفكرية. فنهاية الحرب العالمية الأولى كرست انتصار الديمقراطيات على الدول ذات الأنظمة التسلطية. وبما أن النظم الديمقراطية بدت الوحيدة التي لها مستقبل ما فإن اليابانيين تبنوا دون تصور مسبق نظام الأحزاب والتصويت العام للرجال. وقد أدى التحرر الأخلاقي القادم من البلاد الغربية والمرور من الغليان الاقتصادي الذي عرفته فترة الحرب إلى ركود السنوات العشرين بدون مرحلة انتقال أدى ذلك في أواسط المدن إلى تغيير في تصرفات الأفراد وإلى تراخ في الالتزامات الاجتماعية. ثم أتى الزلزال العنيف والحريق الذي حدث في سهل كانتو في الفاتح من أيلول عام ١٩٢٣ ليسارع أيضا في التغيير الاجتماعي. فالكارثة قد أفنت في الواقع نصف طوكيو والقسم الأعظم من يوكوهاما متسببة في هلاك مائة وثلاثين ألف شخص وماحية الكثير من التقاليد ومحرضة تحريضا عميقا على إعطاء مظهر المدن قالبا جديدا ومنبئة بظهور مجتمع متجه نحو المستقبل.

إن حي رجال الأعمال الجديد في طوكيو بشوارعه العريضة وناطحاته الكبيرة المبنية من الفولاذ والإسمنت المسلح صار ينتمي إلى العواصم الأوروبية أو عواصم أميركا الشمالية أكثر من انتمائه إلى المدن الآسيوية. فحول المحطة الرئيسية كان حي مارونوشي - وهو رمز حقيقي لليابان الحديثة - فخرا للأرخبيل كله. وعلى غرار طوكيو تم إعداد المدن الأخرى بكل سرعة، وغدت الأبنية الإدارية الكبرى ببنيانها الجريء من الفولاذ، والمجمعات المدرسية المبنية من الإسمنت، والملاعب وقاعات السينما ذات القدرة العالية على الاستيعاب، ومحطات المسافرين الكبيرة، غدا كل ذلك عناصر مألوفة في نسيج المدن اليابانية.

أما الأخلاق فقد بقيت مدموغة بسيطرة الروابط العائلية والسلطة الأبوية القوية وهيمنة الرجال في المجتمع. ومع ذلك فإن الأجيال الجديدة في المدن بدأت تتضامن مع ثورة الشبيبة العالمية وطرحت للنقاش بعض العادات التي كرسها ماض لا تعيه الذاكرة. وتبنى الطلاب مفاهيم المجتمعات الغربية الأقل ضغطا وخنقا من مفاهيم بلادهم بينما أعلن قسم متزايد من الشبيبة عن حقهم بالزواج بمن يحبون دون تدخل من عائلاتهم. وكانت طرائق السلوك الغربية تكتسب الرجال من الطبقات المتوسطة، فبما أن نساءهم تزايد عددهن في إشغال الوظائف المكتبية فقد اعتادوا أن يعاملوهن على قدم المساواة، وما لبثت المرأة اليابانية شيئاً فشيئاً أن تحررت من وضعها التقليدي الذي كان يقصر عملها على المهمات المنزلية.

وبدأ التعليم العام على النمط الغربي ينفذ إلى الحياة الاجتماعية اليابانية. وكما هو الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية فإن رمز السنوات العشرين غدا الفتاة المتصنعة التي أطلق اليابانيون عليها اسم موغا MOGA وهي كلمة منحوتة من دمج كلمتي (MODERN GIRL) الإنكليزيتين. أما الأفلام فهي أمريكية في معظمها أو تدور في اليابان على النمط الهوليودي الخالص وعرفت نجاحاً منقطع النظير، ومن بين التسليات الدارجة انتشرت موسيقى الجاز الأمريكية والرقصات الأوروبية انتشاراً كبيراً وكثرت مدارس الرقص واجتذبت مجلات البنات (GIRLS) ودور السينما حماسة الجماهير. وظهرت المطاعم الصينية والغربية في كل مكان، ونبتت الحانات والمشارب و(علب الليل) كما ينبت الفطر وقدمت إليها الشبيبة التي تحررت من الالتزامات الاجتماعية لتستمع إلى الموسيقى التي تهز الأعطاف مبثوثة من أجهزة التسجيل GRAMOPHONES وتتسلى بصحبة نادلات فاتنات مشكوك بأخلاقهن.

وتبنى اليابانيون الرياضات الغربية بكثير من الحماسة. فعدا البيزبول والتنس (كرة المضرب) اللتين أصبحتا لعبتين شعبيتين فإن ألعاب القوى كانت تثير اهتمام الجماهير. وفي أعوام الثلاثينات اهتمت اليابان بالألعاب الأولومبية حيث حققت أرقاماً قياسية في فن السباحة. وانتشرت ممارسة لعبة الكرة والصولجان (الغولف) بين الأوساط الميسورة بينما بدأت الطبقات الوسطى تسلم نفسها للتزلج SKI ، ولكن البيزبول (كرة الطاولة) بقيت مع ذلك اللعبة القومية المميزة. واجتذبت المباريات بين الجامعات من الحشود مثلما تفعله لقاءات كرة القدم الكبرى أو ألعاب كرة الطاولة في الولايات المتحدة الأمريكية.

أما الكتب فأصبحت تخرج بالآلاف كل عام من المطابع اليابانية. وأصبح في إمكان كل إنسان أن يحصل على نسخة رخيصة من روائع الأدب العالمي الرئيسية. وكانت صحف طوكيو وأوزاكا اليومية الكبرى تسحب عدة ملايين من النسخ، وفي كل الأوساط الاجتماعية تزايد باستمرار عدد الشباب الذين يصلون إلى التعليم الجامعي بينما فتح التعليم العالي فرجة صغيرة للتعليم الأنثوي. وتم التعبير عن الميل الواضح للموسيقى الغربية بخلق العديد من الأوركسترات السمفونية وبإقبال سيل من المولعين المجربين بالموسيقى إلى صالاتها كلما قدم موسيقيون أجانب لتقديم مقطوعاتهم فيها. وكلما كان سكان المدن يتبنون بصورة عفوية أذواق الغربيين وتصرفاتهم كلما كانوا يساهمون في توسيع الهوة التي تفصلهم عن الريفيين، فهؤلاء الأخيرون الذين كانوا محميين من دوامات عصر سريعة التحول والتغير حافظوا غالبا على عقليتهم التي لم تساير تطور التاريخ.

وقد أثارت الثورات السوفياتية الاهتمام بالأفكار الماركسية مع إن اليسار الياباني يملك قبل دلك قاعدة عقائدية وتقاليد نضالية. فمنذ عام ١٩٠١ أرسى مسيحيون وجامعيون قواعد حزب اشتراكي ما لبث أن طاله المنع. وفي عام ١٩١١ دفع فوضوي مشهور حياته ثمنا لاتهامه بمؤامرة موجهة ضد شخص الإمبراطور. ولكن حركات اليسار بعد نهاية الحرب مدت حظوتها لدى الجماهير بحيث تشكلت مجموعات طلابية ذات أفكار تقدمية وغدت الجامعات الكبرى في طوكيو وكيوتو وفاسيدا منابت سياسية حقيقية لتهيئة المناضلين اليساريين الرئيسيين خلال بضعة العقود المقبلة. وفي عام ١٩٢٢ تشكل حزب شيوعي ونجح رغم إزعاجات الشرطة التي لا تنقطع في الولوج إلى الحركة النقابية على نطاق واسع. وقد مهد الإصلاح الانتخابي عام ١٩٢٥ بمنحه حق التصويت للطبقة العاملة لظهور أحزاب يسارية معترف بها من قبل القانون. وكما هو الحال في كل أنحاء العالم فإن هذه الأحزاب تميل إلى الانقسام إلى فئات أديولوجية ولم تتوصل لأن تجتذب إليها إلا قبضة من المثقفين. أما الكتلة الكبرى من المزارعين ومن اليد العاملة في المدن فإنها بقيت لا مبالية بالسياسة. ومع ذلك فإن الأحزاب (البروليتارية) حظيت بثمانية مقاعد في الانتخابات العامة لعام ١٩٢٨ وهي الانتخابات الأولى التي جرت بالاقتراع العام للذكور.

وعلى العموم فإن المستقبل كان مكفهرا بشعور العداء المتنامي بين المثقفين والذي كان أدب السنوات العشرين السابقة صدى له. ولم يكن رجال السياسة قد عرفوا أن يعرضوا

أية نظرية للسلطة تتماشى حقا مع تطور بلادهم نحـــو الديمقراطيـــة البرلمانيـــة. وعــد اعتيادهم على المذاهب السياسية مضاف إلى دوام الأســـــطورة القديمـــة عـــن (الســـلط الإمبراطورية) منعهم من تخيل توضيح مستطرف للنظام السياسي. وحده مينوب، وهـــــ أستاذ للحقوق الدستورية في جامعة طوكيو، من عرض تسويغا ملتويـــا لســيادة الســلط البرلمانية مستمدا من القانون الألماني. ولكن (نظريتـــه عـــن الأعضـــاء) التـــي تقـد الإمبراطور على أنه مجرد (عضو) في الدولة لم يكن لها إلا صـــدى محـــدود. وكـــا المثقفون يشعرون بصورة متزايدة أنهم غرباء عن المجتمع وعن الحياة السياسية اليابانيـــا والكثيرون منهم انضموا إلى الأفكار الماركسية مدفوعين على الغالب بمثالية ورثوها عـــ الفلسفة الكونفوشيوسية القديمة وعن ثقافة استلهموها من القيم الجرمانية.

حصيلة العشرينات إذن حقبة من عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وبـ أن مناضلي الأحزاب السياسية الجديدة قصروا طموحاتـــهم علـــى انـــتزاع الســـلطة مـ الأوليغاركية ومن البيروقراطية التقليديةدون أن يشغلوا أنفسهم بالمشـــــاكل الجديـــدة التـ وجدت البلاد نفسها في مواجهتها. وكما كان الأمر في الماضي مع الزعمـــــاء السياســـي البريطانيين والأمريكيين فإنهم أبطؤوا في فهم معطيات المجتمع الصناعي الحديث. وكـــ مشروع بارد للتشريع الاجتماعي يتعلق أساسا بالعمل قد جرت محاولتـــه عنـــد منعطـ القرن وتمت متابعته خلال العشرينات. ولكي يحتاطوا من (الأفكار الخطرة) تولـــد عنـ القادة اليابانيين فكرة لها مغزاها هي أن يتبنوا عن طريق البرلمان (قانونا لحمايـــة الأمـ المدني) يعاقب بالتجريم مجرد الاقتراح بتغيير في النظام السياسي عن طـــــرق القـــوة المناورة بإلغاء الملكية الخاصة. وكسخرية من سخريات التاريخ تم التصويت علـــى هـ القانون القمعي في عام ١٩٢٥ أي في السنة نفسها الذي تم فيها تبنـــي التصويـــت العـ للذكور.

والدلالة الأكثر إقلاقا على متاعب العشرينات هي الاختفاء المتمــــادي لوحـــدة البـــ الأخلاقية وللمشروعات الوطنية الكبرى. فالأهداف التي حددها قادة الميجي وهـــي الأمـ والمساواة مع الغرب قد تحققت كلها، أما بعد ذهاب جيل (المؤسسين الآباء) فـــإن الفكـ القومي فقد إشعاعه. انطفأ ياماغاتا عام ١٩٢٢ بينما اختفى ماتسوكاتا في عام ١٩٢٤ وهـ آخر (رجال الدولة القدماء) الذين عرفوا الإصلاح، وبقي ســـايونجي المحـــارب القدي

الوحيد من الزمرة الأصلية. لقد آلت السلطة إلى نخبة جديدة من محيط أكثر إثارة للريب من الأوليغاركية القديمة وتغذيها قناعات وطموحات أكثر تناقضا، وهذه الزمرة القائدة الجديدة تضم في آن واحد رؤساء الأحزاب السياسية الذين انبثقوا غالبا من الوظائف الإدارية، وكبار أصحاب المصارف، وكبار الصناعيين وكبار الموظفين وضباط الجيش والبحرية، وأمام هذه الزمرة يقف جمهور الشعب الذي تتعلق به نتائج الانتخابات والذي تجاذبته التيارات المختلفة. وما بين هاتين الزمرتين يقوم توازن سياسي حرج، ولكن رؤيتهما للعالم ومفاهيمهما حول مستقبل اليابان كانت أبدا متعارضة، فلم يكن يوجد لدى القادة ولا لدى جماهير الشعب إجماع ولا اتفاق حول قيم أو تطلعات مشتركة.

سياسة خارجية متساهلة:

كما حدث أثناء السنوات الأخيرة من شوغونة التوكوغاوا ظهرت أعمق الانقسامات الآن بسبب السياسة الخارجية. ولم يكن هذا الأمر محل نقاش كبير في السنوات الأولى من الإصلاح، فقد رأينا كيف أن الدييت رغم كراهيته العنيدة لزيادة المخصصات العسكرية يسارع إلى مساندة الحكومة بكل حماسة عند اندلاع الحرب الصينية اليابانية، فقد كان الرأي العام موحدا دائما في مساندته للتوسع الاستعماري وتعصبه القومي يعرف كيف يعبرعن نفسه عن طريق القوة في مثل هذه المناسبات. وفي عام ١٩٠٥ عندما شعر سكان طوكيو بالإهانة لما رأوا معاهدة بورتسموث لا تطالب روسيا بأية غرامة تدفعها لليابان نظموا فتنة اتسمت بأعمال العنف والمصادمات مع رجال الشرطة. وفي عام ١٩١٥ أفاد كاتو من وصوله إلى وزارة الخارجية ليوجه إلى الصين مطالبه الواحد والعشرين.

وقد وجد قادة اليابان أنفسهم بدءا من العشرينات أمام خيارين سياسيين مفتوحين أمام البلاد. كان بإمكانها أن تقوي قدرتها العسكرية وتوسع ممتلكاتها الاستعمارية متبعة السياسة التي أظهرت ثمارها حتى الحرب العالمية الأولى، كما بإمكانها أيضا أن تسعى وراء اتفاق ودي مع البلاد الأخرى، وهذا الخيار الثاني هو ما لجأت إليه دول غربية عديدة منذ نهاية الحرب. وبقي الاقتصاد الياباني من جهة أخرى تابعا للعالم الخارجي، فمن أجل إيجاد الأموال اللازمة لوارداتهم من المواد الأولية الضخمة التي تحتاجها صناعاتهم اضطر اليابانيون من أن يجدوا مكانهم الثابت في الأسواق الخارجية، ولم يكن لفتح الأسواق الخارجية إلا طريقان فإما الضم الاستعماري على طريقة القرن التاسع عشر

وإما التعاون الدولي الذي أصبح منذ ذلك الحين موضع الترحاب، وهاتان الطريقتان على طرفي نقيض ولم يكن ثمة مخرج ثالث.

وأخيرا أتت المسألة الصينية لتحسم موضوع الاتجاه الخارجي للسياسة اليابانية. ففي العشرينات غدت اليابان في وضع أفضل من الأخرين لتستفيد من ضعف الصين. وكانت هذه البلاد الأخيرة تتطور بسرعة بعد أن استيقظ الصينيون على الشعور القومي ودأبوا على عرقلة أعمال التجار الأجانب الذين وصموا بأنهم عملاء لأمبريالية الدول الكبرى. وبدا أن تدخلا عسكريا يابانيا هو أمر مستبعد لأن تكاليفه قد تبلغ أكثر بمرتين من خسارة السوق الصينية وقد ترهق الميزانية العسكرية إرهاقا كبيرا. ومن جهة أخرى كان من المخاطرة أن تطاول اليابان قارة تتعرض دوريا لأعمال عنف موجهة ضد الأجانب. وفي حوالي منتصف العشرينات كان القوميون الصينيون الملتفون حول تشانغ كاي شك يعيدون بناء وحدة البلاد بينما الحكومة الصينية تجهز منشوريا بالخطوط الحديدية التي تشكل تهديدا للمصالح اليابانية في تلك المنطقة.

على العموم فضلت الحكومة اليابانية بعد الحرب العالمية الأولى التوسع التجاري على الفتوحات العسكرية، وقد توصل رجال السياسة ورجال الأعمال بمساندة من الرأي العام أن يفرضوا على الجيش وعلى البيروقراطية أفكارهم في التوسع الهادئ.

عند نهاية الحرب العالمية الأولى عهد إلى اليابان بالإشراف على الممتلكات الألمانية القديمة في شبه جزيرة الشانتونغ وبخاصة مرفأ تسنغتاو كما عهد إليها بإعداد قوة عسكرية مؤلفة من اثنين وسبعين ألف رجل في سيبريا الشرقية، وهذه القوة تشكل النواة الأساسية لقوات التدخل اليابانية الأمريكية التي أرسلت عام ١٩١٨ لدعم جيوش البيض التي بقيت مستمرة في قتالها ضد ألمانيا. وكان العسكريون اليابانيون يأملون بأن يفيدوا من هذا الوضع ولكن هارا ما لبث أن أعاد الجيوش اليابانية بسرعة من سيبريا ألى الديار وقبل الدعوة إلى مؤتمر دولي حول نزع السلاح البحري وحول المشاكل المتعلقة بمنطقة المحيط الهادي.

وفي مؤتمر واشنطن الذي انعقد في شتاء ١٩٢١-١٩٢٢ وقعت اليابان اتفاقية منفردة مع الصين وافقت فيها على إخلاء تسينغتاو والتنازل عن معظم حقوقها في الشانتونغ، وفي المفاوضات العامة وافقت على قرار أميركي ينص على المساواة بين الدول في

التجارة مع الصين وسمي هذا المبدأ الاقتصادي بمبدأ (الباب المفتوح) كما تعهدت بسلامة أراضي الصين. وقبلت بصورة خاصة بحصة بحرية تخفض أسطولها من المدرعات إلى ثلاثة أخماس كل من أساطيل الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين وعدتا في المقابل بالمحافظة على الحالة الراهنة في كل المنطقة الممتدة بين بيرل هاربو وسنغافورا. وهكذا فإن معاهدة واشنطن البحرية كرست تخلف اليابان في التسلح البحري عن الدولتين الآنكلوسكسونيتن ولكنها تركت تفوقها في منطقة المحيط الهادي سليما بدون مساس.

وقد سعت اليابان لتقوية نفوذها في منشوريا والمناطق المجاورة. وفي عام ١٩٢٨ أرسل الجنرال تاناكا الذي كان يومئذ رئيسا للوزراء جيشا إلى الشانتونغ مكلفا بصد تقدم القوميين الصينيين نحو الشمال، وباستثناء هذه المرحلة لجأت السياسة الخارجية اليابانية إلى الطرائق السليمة وفضلت التسامح على استعمال القوة. واختار سبديهارا وزير الخارجية اليابانية في وزارتي كين سي كي – مينسيتو (من عام ١٩٢٤-١٩٢٧ ومن عام ١٩٢٩- ١٩٣١) سياسة تعتمد التسويات مع القوميين الصينيين والتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية. وما بين عامي ١٩١٩ -١٩٢٦ تقلصت ميزانية الحرب اليابانية إلى النصف وسرحت أربع فرق من الجيش الدائم.

والخلاصة أن العشرينيات كانت بالنسبة لليابان فترة اضطراب. فقد نجح قادة السياسة اليابانية بطرقهم الخاصة أن يؤقلموا الأشكال الخارجية للنظام البرلماني البريطاني في الأرخبيل، وهذا التشابه الظاهري غدافي وضع يؤهله للامتداد إلى طبيعة النظام في العمق أيضا، وكلما تقدمت الديمقراطية إلى داخل البلاد كلما بدا المسؤولون عن السياسة الخارجية يبدون وكأنهم تخلوا عن أحلامهم في السيطرة.

❋ ❋ ❋

الفصل العاشر

النزعة العسكرية والحرب

أعطت العشرينات صورة عن عصر ليبريالي أعطاه اليابانيون اسم (ديموقراطية تيشو). ومع الثلاثينات بدأت حقبة جديدة من السياسة الاستبدادية والتوسع العسكري. وأسباب هذا التحول قد تفوت (جزئيا) المؤرخ الذي لا يستطيع إلا أن يلجأ إلى بعض الفرضيات التفسيرية وأن يضع التطور الياباني في سياقه العالمي. إذ أن انزلاق اليابان إلى نظام الحكم الشمولي أتى في اللحظة نفسها التي غدت فيها دولتان كبيرتان من دول أوروبا الغربية دولتين استبداديتين، فوصول العسكريين اليابانيين إلى السلطة حدث بعد من انتصار الفاشيست الإيطاليين وتزامن تقريبا مع تصاعد النظام الهتلري في ألمانيا. وهذا التزامن بين هذه التطورات الثلاثة قد ينبئ عن شيء من القرابة في الإيحاء.

طبيعة النزعة القومية اليابانية ومصادرها:

ليست النزعة التسلطية والعسكرية بجديدة في اليابان، فهي تعود إلى النظام القديم حيث لم تكن الأخلاق العسكرية الميالة للخضوع إلى الأوامر المتلقاة من الأعلى تسمح بمكان لإظهار المبادرات الفردية. والتحديث الذي جرى بعد عام ١٨٦٨ والذي فهم على أنه رد على تحدي الغرب العسكري قد أشرفت عليه القيادة العليا للجيش والبحرية. ولا شك أن نهاية الحرب العالمية الأولى أدت إلى ليبرالية في النظام وإلى توجه أكثر مسالمة في السياسة الخارجية، ومع ذلك فإن الكثيرين من اليابانيين بقوا أنصارا للطرائق التسلطية في الحكم، والأخلاق الكونفوشيوسية القديمة التي تدعو إلى انسجام اجتماعي يفرض على الجميع لقيت ترحيبا أكبر من الترحيب بالأنظمة الفردية الغربية ومن اللجوء إلى المؤسسات لحل المنازعات على المصالح في برلمان متعدد الأحزاب. وقد بقي قادة

السياسة اليابانية مرتبطين بمفهوم التسلسل وأن السلطة هي للنخبة من الناس، ولم يكن أحد يفكر بانتقاد المؤسسة العسكرية لأن جماهير المواطنين مجذوبة بشعور الفخار القومي عندما تذكر الفتوحات التي قام بها جيش اليابان.

منذ العشرينات واجهت اليابان مصير أمة منقسمة على نفسها أعمق انقسام: انقسامات اقتصادية مرتبطة (بالثنائية)[٩]، اختلافات في العقليات وطرائق العيش بين سكان المدن وسكان الأرياف، منازعات القدماء والمحدثين حول مجهود التجدد، انقسامات ناجمة عن اختلاف مستويات الثقافة والتعليم. فالنزعات الليبرالية كانت تنبثق من أوساط المثقفين في المدن أما في الأرياف حيث بقيت المدارس الابتدائية عامل التغيير الوحيد فقد بقيت الحياة تتابع رتابتها الأولى.

لقد نظر الفلاحون وسكان الأرياف الذين ما زالوا يمثلون أكثرية سكان اليابان إلى التحول الذي طرأ على المدن بدهشة ممزوجة باللوم والنقد. والعناصر المحافظة التي تتكاثر كل يوم كانت تغتاظ من انحرافات (الموغا MOGA [١٠]) وتعزو الأفكار الليبرالية أو المتطرفة إلى قبضة من المثقفين المنحلين. وكثيرون هم ضباط الجيش والبحرية وصغار الملاكين الريفيين وصغار الطبقات الوسطى الذين رفضوا توجيه أي نقد أو اتهام للعلاقات السلطوية القديمة، وهذه الفئات تنتمي لأجيال ما بعد عصر الميجي MEIJI وتم تشكيلها وفقا للنظام التعليمي الجديد، وقد رسخت المدرسة في أذهانهم حماسة وطنية وروحا عسكرية لم تعودا مألوفتين في الخارج. وبما أنهم قليلو الاطلاع على التطور الحديث الذي يجري في البلاد الأخرى فإنهم ينسجمون تماما مع حكومة استبدادية ومع توسع إمبريالي شبيه بالتوسع الذي عرفه عصر الميجي. وكان رجال السياسة الليبراليون الذين ظهروا بعد الحرب يبدون لهم مدافعين شرهين عن المصالح الماركانتالية وأنانيين، وبدا لهم إيقاف تطوير القوات المسلحة والاستعمار عملا ينم عن الخيانة. وقد اجتذبت فكرة التوسع العسكري الطبقات الوسطى أيضا وجعلتها تقف في صف القادة القدماء لعصر الميجي، ولكن التوجيه الذي كانت تقدمه المدرسة الابتدائية بدا أنه حرم المواطن المتوسط من

---

[٩] أي الثنائية بين صناعات حديثة كثيفة الإنتاج وبين الإنتاج الحرفي التقليدي القديم كما مر معنا في الفصل التاسع. – المترجم –

[١٠] أي الفتيات اللواتي يلبسن على الطريقة الأوربية – المترجم –

الروح العملية والانتهازية اللتين عرف رجال الميجي ما لهما من قيمة وفائدة. منذ السنوات الأولى للإصلاح أصبح بالإمكان الكشف عن العلاقة المبكرة لما سيُسمى (بالقومية المتطرفة). فبعض اليابانيين لم يكن يستطيع التخلي عن ردود الفعل القومية البدائية التي تخلى عنها رجل الشارع عن طيب خاطر. بينما حملة المعارضة التي قامت على الحكومة على يد ساموراي الأطراف وتمرد البلاء الذي حدث في السبعينات من القرن التاسع عشر كانا ظاهرتين عفويتين لتيار سيصبح من مبادئ " حزب الحرية وحقوق الشعب [11]" (JIYU - MINKEN - UNDO). وقد انفصل هذا التيار القومي المتطرف شيئاً فشيئاً عن التيار الليبرالي الذي كان في البدء متضامناً معه وقدم دعمه للوهلة الأولى إلى الحركات الثورية التي ترفض السيطرة الغربية في البلاد الآسيوية الأخرى ثم غدا بعد ذلك بطل التوسع الاستعماري الذي اعتُبر ترياقاً شافياً من الهيمنة الأوروبية في آسيا، وبذلك تكون التطلعات الاستعمارية قد اختبأت وراء أفكار (الجامعة الآسيوية).

نشطت هذه الحركة القومية المتطرفة على يد متطرفين نشيطين ينتمون إلى المقاطعات الواقعة إلى أقصى الغرب من الأرخبيل والتي جعلها قربها من القارة أكثر حساسية لمشاكل البلاد الآسيوية الأخرى. وفي عام ١٨٨١ تأسست في الشمال من كيوشيو (جمعية جينيوشا الوطنية) التي ستنقلب إلى (الكوكوريوكي) عام ١٩١٠. ومن أجل أن يؤثر الغربيون تأثيراً قوياً في خيال المستمعين ترجموا هذه التسمية إلى (جمعية التنين الأسود)، والواقع أن هذا التعبير المشتق من كلمة صينية معناها " نهر آمور"[12] توحي [أن الحدود الطبيعية لليابان إنما تقع إلى الشمال من منشوريا حيث يقع نهر آمور.

بعد الحرب العالمية الأولى حصلت الزمر الاستعمارية الضاغطة على نفوذ متزايد في الحياة السياسية اليابانية وتشكلت من كبار الموظفين ذوي الأفكار الرجعية (جمعيات وطنية) وجهت همّها ونشاطها إلى النخبة من المثقفين بينما قام مناضلون منهم يعملون في صفوف الطبقات الشعبية ولجأ الشعراء الشعبيون والمغنون يستمدون موضوعاتهم من حكايا الفلاحين القديمة و من الروايات التي تروي أخبار عهود الاستبداد الماضية. وكما

---

[11] ورد ذكر هذا الحزب في الفصل التاسع تحت اسم الحزب الليبرالي (JIYUTO) - المترجم -

[12] كان ينبغي إذن ترجمة الكوكوريوكي بجمعية نهر آمور. والالتباس قام لأن اللغة الصينية تستعمل التسمية نفسها للتعبير عن نهر آمور والتنين الأسود.

فعل رجال الإصلاح فإنهم تمسكوا بسلطة الإمبراطور المقدسة وقدموا أنفسهم مدافعين عن " النموذج المثالي القومي " (كوكوتي) والمتحدثين باسم " الإدارة الإمبراطورية ". هذان التعبيران اللذان استعملوهما دائما سينالان خطوة كبرى منذ ذلك الوقت. وقد قدمت الأوساط القومية المتطرفة شيئا من عناصر مبدئها للنظريات الاشتراكية الغربية كالفاشيستية الإيطالية والاشتراكية القومية الألمانية، والاهتمام البالغ الذي ناله هذان النظامان الأخيران بدا كأنه إثبات على أن الديمقراطية الليبرالية ربما لم تعد طريقة للحكم ينتظرها ذلك المستقبل العظيم.

إن الحركة القومية المتطرفة أريد لها أساسا أن تكون ضد الغرب. فقد شعر اليابانيون أن بلادهم رغم كونها دولة عظمى لم تصل بعد إلى المساواة المطلقة مع الغرب. فالأمريكيون والأوروبيون يصعب عليهم تصور أن أمة من العرق الأصفر يمكن أن تكون على قدم المساواة مع الأمم الأخرى. وفي عام ١٩١٩ أثناء مؤتمر الصلح في فرساي طلبت البعثة اليابانية تبني بند يضمن (المساواة العرقية بين الأمم) ولكن الولايات المتحدة وبريطانيا عارضتا قبول المشروع وكان الرفض ينسجم مع التشريعات الأمريكية والكندية والأسترالية التي تضيق من نطاق هجرة الآسيويين إلى بلادها. وكان العالم الغربي منذ عدة عقود من السنين ينتابه وسواس الخطر الأصفر لذلك عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى المعايير العرقية لمنع الجنسية الأمريكية عن الآسيويين، وانتشر في كالفورنيا وفي العديد من الولايات الغربية تمييز عنصري في المدارس، وكان السكان يرفضون بيع الأراضي إلى أناس قدموا من الشرق الأقصى. ومن أجل وضع حد لهذا المناخ من التوتر وقعت اليابان والولايات المتحدة في عام ١٩٠٨ " اتفاق جنتلمان " للحد من الهجرة اليابانية. ولكن هذا الاتفاق لم يكن كافيا في نظر الكونغرس الأمريكي الذي تبنى في عام ١٩٢٤ " قانون استبعاد " يمنع اليابانيين من الحصول على الجنسية الأمريكية. واستقبل اليابانيون هذا التدبير على أنه إهانة لا مسوغ لها وشعروا بمهانة كبيرة. ولابد أن نذكر هنا كذلك بعض التصرفات التي كان لها أثر في تاريخ الولايات المتحدة وتاريخ اليابان على السواء. مثال ذلك أن الشعور العنصري بلغ مداه في الولايات المتحدة تجاه الآسيويين في بداية الحرب العالمية الثانية، فيابانيو الساحل الغربي بما فيهم أولئك الذين ولدوا في الولايات المتحدة وأظهروا لنظامها ولاء لا شبه فيه، صودرت

أملاكهم وحشروا في حظائر مع عائلاتهم في معسكرات للتجميع ولم يستثن حتى الشيوخ المسنون من هذه المعاملة اللا إنسانية.

بقي التيار القومي المتطرف في اليابان محصورا في أوساط محدودة من الناحية العددية ولم تكن له الأهمية التي نالها في كل من إيطاليا وألمانيا وإن أثار حركة واسعة في الرأي العام، ويمكن أن تضاف ردة الفعل هذه إلى عواقب الأزمة الاقتصادية كما أنها نجمت كذلك عن الضيق الذي سببته القطيعة مع الكوادر الاجتماعية القديمة وعن الانحلال المتمادي لوحدة البلاد الأخلاقية. فنفور المثقفين والظروف التي يعيش فيها عمال المدن، وافتقار الحرفيين وأصحاب المشروعات الصغيرة بسبب منافسة الشركات الكبرى، والوضع اليائس للعديد من الفلاحين ضحايا إنهيار أسعار المحاصيل خلق كل ذلك في نهاية العشرينات موجة من الإستياء العام. وكانت هذه الزمر المختلفة تهاجم السيطرة الاقتصادية للتروستات ونفوذها على الأحزاب السياسية، وفي هذه الفترة أخذت كلمة زيبا تسو ZAIBATSU معنى سيئا. وقد أصابت الخيبة كل ألئك الذين حلموا بمستقبل لعصر الميجي، وتلت الوعود حقيقة منفرة عبرت عنها المصادمات بين الرأسماليين الشرهين أو رجال السياسة الفاسدين أو الإنحرافات التي وقعت فيها شبيبة ضالة. وكانت الرأسمالية الصناعية والنظام البرلماني ومجتمع المدن تبدو لكثير من اليابانيين مشبوهة لأنها تذكرهم بعالم الغرب. وكما حدث لبلاد أخرى في أزمان أخرى فإن اليابان مالت بكثير من الحنين إلى ماضيها وأملت أن تجد في وصفاته القديمة جوابا لمشاكلها المعقدة في عصر القلق الذي كانت تعيش فيه.

ومن الطبيعي أن تستند ردة الفعل السياسية والاجتماعية على الطبقة العسكرية. ونحن نذكر أنه بفضل ياماغاتا نجح الضباط دائما في المحافظة على استقلالهم في قلب الحكومات المتعاقبة وكانوا يتمتعون بحرية واسعة في العمل. وكان الجيش في أذهان الجميع شريكا في كل إنجازات عصر الميجي ومتوجا بهيبة التقاليد الأرستقراطية القديمة، واليابانيون يتخيلون ضباطهم رجالا خارج نطاق المألوف أو طبقة تشبه الكهنوت في خدمة الدولة. ويعتقدون بأن كبار موظفي الجيش أكثر شرفا وأمانة أو (بحسب تعبيرهم) أكثر صدقا من الصناعيين أو رجال السياسة المشغولين دائما بمصالحهم الأنانية. والرؤساء العسكريون يوافقون بطيب خاطر على هذه الصورة المتملقة. وبما انهم وضعوا

منذ صغر سنهم في مدارس للأحداث عزلتهم عن العالم الخارجي فقد نشؤوا على التقاليد العسكرية الكبيرة. وبما أنهم تلقوا ثقافة قومية تقارب التوجيه المذهبي فإنهم يحقدون على رجال السياسة الذين حرموهم في الماضي من ممتلكاتهم ومداخيلهم. أما في موضوع العلاقات الدولية فإنهم لم يرضوا عن إبعادهم إلى مكانة ثانوية تضعهم وراء طبقة التجار في معالجة الأمور السياسية. وأخيرا فإنهم اتهموا رجال الميجي بأنهم حطموا حوافز الأمة الأخلاقية التي بدونها لا تكون قوة البلاد العسكرية إلا وهما. فارتباطهم بالقيم التقليدية واستقلالهم النسبي في قلب الحكومة هيأ الضباط لأن يكون لهم دور مميز في ردة الفعل السياسية.

أفاد العسكريون من جهة أخرى من دعم جماهير الفلاحين الضمني. فشعب الأرياف البعيد عن التبدلات التي لحقت بحياة المدن كان مستودعا حقيقيا للعادات والتصرفات الموروثة عن المجتمع القديم المتضامن. ولا شك في أن الأحزاب السياسية التي تسيطر على اللعبة البرلمانية اعتمدت هي الأخرى اعتمادا واسعا على طبقة الفلاحين الميسورين ولكن المجتمع الريفي في مجموعه بقي عصبيا بشكل ملموس على التغيير أكثر من بقية اليابان. فقد خلد بعض الملامح التي لم تتغير قط منذ عصر الميجي بل منذ عصر التوكوغاوا أحيانا. يضاف إلى ذلك وجود تقارب لا شبهة فيه بين الطبقة الفلاحية وبين الأوساط العسكرية. وقد نجحت المدرسة في أن توزع على كل الريفيين تلك الروح القومية التي حركت أوساط قادة البلاد في نهاية عصر التوكوغاوا. والأكثر من ذلك إثارة للدهشة هو أن طبقة الفلاحين التي تنتمي إليها طبقة العسكريين رغم أنها تخلت عن حقها في حمل السلاح خلال ثلاثة قرون فإنها كانت مقتنعة كل الاقتناع بأنها لا تزال تجسد اليابان المحاربة. وبما أن الفلاحين يزودون كتائب الجيش بالملاكات الأساسية من المجندين فإنهم يشعرون بأنهم يتلقون من العلم في الثكنات أكثر مما يتعلمون في المدارس الابتدائية. وقد نفخت فيهم هاتان المؤسستان الفضائل العسكرية ومنحتاهم فكرة الموت المجيد في خدمة الإمبراطور. وتشكل فترة الخدمة العسكرية للكثيرين من الريفيين فترة القطيعة الوحيدة مع أعباء حياة الحقول الرتيبة، وعند إخلاء سبيلهم كان قدماء المجندين يشكلون روابط من جنود الاحتياط مهمتها تخليد الذكريات المشتركة والمحافظة على الروح الوطنية.

فضباط الجيش والبحرية ليسوا إذن تلك الطبقة من صغار الأرستقراطيين (JUNKERS) المقتطفين من طائفة شعبية قليلة التعداد كما هو الحال في بعض البلاد لأن التجنيد لم يكن يقتصر فيهم على طبقة الساموراي القديمة. فمنذ العشرينات أصبح الضباط - كما هو شأن كل أفراد النخبة اليابانية - يتحدرون من النظام التعليمي الجديد لا من طبقة اجتماعية محددة. وبفضل التقنيات التي يستعملها الجيش والبحرية فإنهما اعتبرا من أحدث المؤسسات في اليابان. ومع ذلك فإن قيادتي البحرية والجيش احتفظتا بعقلية أقرب إلى عقلية الفلاحين منها إلى عقلية الصفوات المدنية. وبما أنهما كانتا تكنان عداء شديدا لرجال السياسة ورجال الأعمال وطرائق حياة المدنيين فإنهما اعتبرتا الريفيين كتلة المناورة التي لابد منها لقوة البلاد العسكرية. وكانتا تظهران اهتماما وعناية بالفلاحين الذين أصيبوا في الأعماق بسبب الركود الاقتصادي الذي عم البلاد في نهاية العشرينات. فوحدة التطلعات واتفاق الهداف السياسية ووحدة المصالح كانت عناصر هامة في توثيق الروابط بين عالم الريف وطبقة العسكريين.

إن ردة الفعل العسكرية القومية المتطرفة التي أصابت اليابان في الثلاثينات نشرت بكل سهولة أيديولوجية الماضي. وبدلا من البحث عن حلول عقلانية جديدة لمشاكل الحضارة الصناعية فقد حلم القوميون بمجتمع زراعي بسيط ومنسجم تحكمه علاقات تسلطية. وهذا الحنين في الواقع ثمرة لخيبات الأمل، فلا شك في أن هذا السراب البدائي كان يمكن أن يبدو أقل فتنة لو أن الحكومات البرلمانية في العشرينات عرفت أن توجه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية أو لو أن فلسفة الديمقراطية عرفت كيف تساند تعثر الخطوات الأولى للنظام البرلماني. لقد تم التأكيد غالبا على أن الأحزاب السياسية كانت صانعة انحطاطها بنفسها بتجاهلها تطلعات قوى اليسار وتطلعات جماهير الشعب التي حصلت حديثا على حق التصويت. وهذا الرأي في نظرنا مجرد فرضية معرضة للتجريح والاعتراض. والواقع أن الشعور السياسي للمزارعين والعمال بقي جنينا واستمرت الأحزاب السياسية -إضافة إلى ذلك - في كسب المعارك الانتخابية في الثلاثينات، ولكن نتيجة الانتخابات كفت عن أن تكون الرهان الأساسي ووقف المراقب مشدوها من ضعف الثقة التي يحملها اليابانيون للديمقراطية ومن قلة الارتباط الذي أظهروه لها. فحكومة من الطراز التسلطي - على أن تكون شريفة الإدارة - لم تكن تثير فيهم أية ريبة أو حذر.

وكثيرون هم الذين يتمنون الأمان الذي تهيئه لهم حياة اجتماعية تحكمها التقاليد ويتأسفون على الانسجام الذي فقدوه في مجتمع موحد قائم على إجماع الجميع ويأملون في استرجاعه حتى ولو بدا غير ملائم لمتطلبات الحياة السياسية القائمة على تعدد الأحزاب.

على أن نظام القيم هذا لا يفسر وحده تصاعد النزعة العسكرية. فالجيش لم يكن ليفرض سلطته لو لم يقدم حلا بدا من حيث الظاهر ملائما لحل المشاكل الاقتصادية والدولية الخطيرة التي واجهتها اليابان في نهاية العشرينات. وكان سكان اليابان قد بلغوا ستين مليونا في عام ١٩٢٥ ويتزايدون مليونا في كل عام. وهم يزيدون ارتباطهم أكثر فأكثر بالبلاد الأجنبية التي يستوردون منها معظم المنتجات الغذائية والمواد الأولية ويصدرون إليها الفائض من مصنوعاتهم للحصول على العملة الصينية اللازمة للاستيراد. ولم تكن المستعمرات الأوروبية في آسيا وأفريقيا إلا أسواقا هزيلة للصادرات اليابانية كما أن الركود الاقتصادي العالمي أعاد نظام الحماية الجمركية التي أغلقت بقية الأسواق. ولم يكن بالإمكان أن تحل المشكلة السكانية عن طريق الهجرة منذ أن لجأت البلاد التي تمتلك أراضي عذراء كالولايات المتحدة وكندا وأستراليا إلى إغلاق حدودها في وجه الرعايا اليابانيين.

وقد ذهب البعض إلى أنه في مثل هذه الحالة يصبح من الوهم الخطر أن تنتظر اليابان سلامتها من حسن النية الدولية وفي التبادل التجاري الحر. وإذا كان مثل هذا الحل صالحا لدول قارية كبرى من أمثال الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي أو لإمبراطوريات استعمارية واسعة كالإمبراطورية البريطانية والفرنسية فإنه غير قابل للتطبيق في بلد صغير متخم بالسكان كاليابان. فاليابان على خلاف الدول الكبرى لا تجد داخل حدودها لا الموارد اللازمة لاقتصادها ولا السوق الداخلية القادرة على امتصاص منتجاتها. ومن أجل التغلب على الأزمة العالمية والمحافظة على مكانتها فقد احتاجت إلى إمبراطورية أكثر اتساعا، والصين المجاورة وبصفة خاصة المقاطعة الشمالية الغنية من منشوريا التي هي جزئيا تحت إشراف اليابان فرضت نفسها مركز الثقل المحتمل للإمبراطورية المقبلة. وإذا نظرنا إلى الماضي لوجدنا التاريخ يظهر لنا أن اليابانيين الذين دافعوا عن سياسة التوسع هذه ارتكبوا خطأ مزدوجا في تقديراتهم الاقتصادية والستراتيجية.

فالتجارة الخارجية اليابانية والاقتصاد الياباني أنجز في الواقع نهضة عظيمة في

الثلاثينات وبدت الإمبراطورية الاستعمارية مع تقدم الزمن تشكل عائقا لا مكسبا. ولكن فكرة الفتح تمتعت في تلك الفترة بالحظوة العامة والرضا وسيكون مصير الأرخبيل مرة أخرى مرتبطا بالسياسة الخارجية.

إن المؤرخ الذي يهتم بالكشف عن العناصر الحاسمة التي تكمن وراء وضع من الأوضاع يلقى غالبا صعوبات في تمييز أسباب المؤثرات. وهكذا نرى أن اتجاه الرأي العام في اليابان نحو أيديولوجية مرتبطة بالماضي لم يظهر إلا بعد الاعتداءات الخارجية الأولى وبعد وصول حكومة متسلطة إلى الحكم. فالأيديولوجية القومية إذن هيأت تسويغا للتحولات السياسية التي تمت بتحريض من الجيش ولم تكن في ذاتها عامل تحويل وتغيير. والعسكريون المنفتحون على مؤثرات عصرهم لم ينتظروا أن يفرض ضغط الأحداث نظاما سياسيا واجتماعيا ينطبق مع مفاهيمهم وإنما شرعوا بطريقة تسلطية يغيرون البنى السياسية والعسكرية في البلاد، وهذه المبادرات الأولى التي أمنت لهم رضا الرأي العام الذي ساهموا أنفسهم بتشكيله سمحت لهم بالمضي بعيدا في تطبيق سياستهم. وبدا أن تواطؤا قد تم بين جماهير المواطنين والصفوة القائدة ونجم عن سياسة القوميين أوضاع جماعية ملائمة لدعم هيمنتهم، وسيكون من شأن التفاعل المتبادل هذا أن يعجل في هذا التطور التراجعي.

قضم منشوريا:

تغير الجو السياسي في حوالي عام ١٩٣٠. ففي حزيران يونيه ١٩٢٨ قام جماعة من صغار الضباط في جيش كانتونغ – وهو القوة العسكرية اليابانية في منشوريا – بنسف القطار الذي يقل تشانغ تسولين حاكم منشوريا المؤيد للمصالح اليابانية لأنهم كانوا يتهمونه منذ بعض الوقت بعدم الكفاءة وقلة التعاون. وبدا هذا العمل فضيحة للإمبراطور شو-وا (هيروهيتو)[١٣] الذي اعتلى عرش اليابان في نهاية عام ١٩٢٦ فاستدعى وزيره الأول الجنرال تاناكا وطلب منه معاقبة الفاعلين . ولكن العسكريين رفضوا الاستجابة لتاناكا مؤكدين أن الوزير بطلبه معاقبة صغار الضباط فإنه يسعى إلى ثلم هيبة الجيش، ولجؤوا

---

[١٣] الإمبراطور SHOWA (هيروهيتو) مارس أعمال الوصاية قبل تتويجه لمدة خمس سنوات. وقد أتم تدريبه السياسي في الفترة الليبرالية وأقام فترة وجيزة في إنكلترا.

إلى الدستور الذي يعهد إلى الأمبراطور بسلطة التأديب تجاه العسكريين متهمين تاناكا بأنه يتدخل في مسائل تتجاوز اختصاصه. هذا الحادث بدا كاشفا من ثلاثة أوجه. أولا كانت تلك هي المرة الأولى في العصر الحديث تجرأ فيها الإمبراطور على التدخل شخصيا في مسألة سياسية وقد أدى تدخله إلى الفشل. ومن جهة أخرى فإن الجيش قاوم حكومة مدنية يرأسها واحد من العسكريين. ثانيا من المفيد أن نذكر أن مثيري الأزمة كانوا محميين من رؤسائهم وهذا الوضع ينسجم مع تقليد عسكري ياباني يمنح الرجال الذين يقومون بأعمال ميدانية سلطات تكاد تكون مطلقة. وأخيرا فإن هذه القضية المنشورية عبرت عن تطور عميق في ردود الفعل الجماعية للجيش وللأمة جمعاء. هذا التبدل في الموقف ظهر من جديد أثناء المؤتور البحري الذي انعقد في لندن عام ١٩٣٠ لإتمام ما اتفق عليه في واشنطن عام ١٩٢٢ . وقد قبلت الحكومة اليابانية أن تكون نسب المدرعات الثقيلة هي ٥-٥-٣ (كانوا يقولون في ذلك الوقت ١٠-١٠ - ٦ أي عشر مدرعات للولايات المتحدة وعشر لإنكلترا وست لليابان) كما وافقت على تخفيض أسطولها من المدرعات الخفيفة إلى ٧٠% من حمولة المدرعات المريكية أو البريطانية. أما الأميريالية التي تمنت أن تطبق هذه النسبة المئوية الأخيرة على المدرعات الثقيلة أيضا فإنها شنت حملة عنيفة على معاهدة لندن مستفيدة من دعم السي يوكاي الذين كانوا سعداء لأنهم وجدوا أرضا تسمح لهم بمهاجمة حكومة منسيتو. ولكن بدا أن الوزارة هي التي انتصرت أخيرا. إلا أنها كانت مخدوعة بانتصار مشكوك فيه فما لبثت أن اصطدمت بردة فعل شعبية، أما أميرالات البحرية فقد أبدوا رغبتهم بالاستقلال وتبنوا موقفا متصلبا في قلب الحكومة.

وقع الانعطاف الحاسم عام ١٩٣١ عندما جرى حادث منشوري ثان أكثر خطورة من ذلك الذي جرى عام ١٩٢٨. ففي ليلة الثامن عشر من أيلول سبتمبر عام ١٩٣١ قام ضباط يابانيون بتخريب جانب من خط حديد جنوبي منشوريا ملقين المسؤولية على الصينيين ومتبعين ذلك بفتح عسكري لكل منشوريا. ومما لا شك فيه أن هذا اللجوء إلى القوة ما كان له أن يتحقق إلا بموافقة عدد من أعضاء أركان حرب طوكيو وبرضا من كامل الجيش. وقد حاول الإمبراطور كما حاولت الحكومة المدنية عبثا أن يسيطروا على الوضع ولكنهم فشلوا، أما البحرية التي كانت تنتظر دورها في الشهرة فقد أثارت حادثا جديدا في شنغهاي في الأيام الأخيرة من كانون الثاني يناير ١٩٣٢ ولكن حملة البنادق من

البحارة المكلفين بعملية الإنزال وجدوا أنفسهم فورا في وضع لا يحسدون عليه ووجب إرسال ثلاث فرق لتقدم العون لهم. وفي خلال ذلك شرع الجيش في تحويل منشوريا إلى دولة تابعة مستقلة عن الصين، وهكذا ولدت في أيلول سبتمبر من عام ١٩٣٢ مملكة منشوكو التي وضع على عرشها عاهل لعبة في يد اليابان هو بويي الإمبراطور السابق للصين الذي عزل عن العرش عام ١٩١٢.

منذ كانون الثاني يناير ١٩٣٢ رفضت الولايات المتحدة أن تعترف بالفتوحات اليابانية واحتفظت بموقفها هذا حتى الحرب العالمية الثانية. وأرسلت عصبة الأمم إلى منشوريا لجنة تحقيق أدان تقريرها التدخل الياباني. وعندما تبنى مؤتمر جنيف تقريرها في آذار مارس ١٩٣٣ انسحبت اليابان من عصبة الأمم فكان هذا سببا في تعجيل انحطاط المنظمة. ولكن الجيش الياباني لم يزعزعه عن موقفه الاستياء الأجنبي الإجماعي فقام في عام ١٩٣٣ و ١٩٣٤ بسلسلة من التدخلات الجديدة المحدودة التي سمحت له مع ذلك بإقامة سلطته على الجزء الشرقي من منغوليا الداخلية وعلى مناطق الصين الشمالية المجاورة لبكين.

أما في اليابان فقد خلقت حادثة منشوريا هوس الحرب، وبدا أن الشعب الذي أصابه هذيان قومي حقيقي قد أثملته السهولة البالغة التي ألحق بها العسكريون أراضي أوسع بكثير من مجموع الأرخبيل ويسكنها ثلاثون مليونا من الصينيين المشهورين بحماستهم للعمل، وغدا الجيش ومن ورائه كل البلاد متورطين بسياسة توسع قارية وأثبتت (المسألة المنشورية) أن الإمبراطور والحكومة فقدا السيطرة على الجيش، وما كان يحسب حسابه منذ اغتيال تشانغ تسولين في عام ١٩٢٨ أصبح الآن أمرا واقعا فالجيش هو الذي يملي السياسة الخارجية اليابانية عن طريق تكتيك (الأمر الواقع). ولم يكن بإمكان الحكومة المدنية أمام الرأي العام العالمي إلا أن تدافع من وراء قلبها عن سياسة لم تعد صانعتها ولا المتصرفة فيها. وهكذا توضحت صورة حكومة ذات رأسين احتفظ الجيش فيها بتصريف السياسة الخارجية.

يتحدثون دائما عن الجيش بصيغة المفرد كأن الأمر يتعلق بمجموعة متجانسة موحدة، والواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف. فالمؤسسة العسكرية يوجد فيها تنوع الأفراد والتحزبات. فإلى جانب وحدات الصدام الحديثة المجهزة بالتقنيات والأسلحة الفعالة كان

يوجد العسكريون التقليديون الذين يعتبرون أن (القوة الروحية) لجنود الإمبراطور هي التي تشكل أفضل ضمان للنجاح. هؤلاء الضباط المحافظون الذين سيشكلون في المستقبل (عصبة الطريق الإمبراطوري) " كودوها " يشبهون في كثير من الوجوه الماويين الصينيين الذين ظهروا في الستينات، ومقاصدهم تقربهم من أنصار التحديث فهم مثلهم يحبذون التوسع القاري وإشراف الجيش على السياسة الخارجية ولكنهم يستعملون وسائل أكثر تطرفا ويعتمدون على الضباط الميالين إلى العنف. كذلك أدخل السن شقا آخر بين العسكريين فقامت خصومة مستترة بين الشباب من الضباط وبين أعضاء هيئة الأركان العامة من المسنين، وربما كان سبب هذا التعارض الشديد استياء الشباب من البطء الذي تتم فيه أعمال الترفيع. كما أنه يعبر بعمق أكبر عن الصراع بين الأجيال الذي يعكس عدم تفهم قدماء الساموراي للرجال الذين تم إعدادهم على يد نظام تثقيفي قائم على أساس التخصص في الأعمال والصلابة في المبدأ. تلك هي جذور ما أسماه المؤرخون اليابانيون (مرض الضباط). وأعراضه الخارجية معروفة لنا : فالضباط وصف الضباط الأقوياء بحماية (عصبة الطريق الإمبراطوري) شرعوا بأعمال على درجة من الوقاحة لا تصدق، فهم يوبخون علانية كبار الضباط المتمسكين بالشرعية أو الوجلين ويلجؤون إلى الدعاية عن طريق العدوان ويسلكون في القارة طريق العمل المباشر مرشحين في السياسة اليابانية اتجاها لا عودة عنه ولا نكوص فيه.

زمرة صغيرة من المتطرفين مؤلفة من ضباط صغار السن اعتنقت طرائق الإرهابيين التي استعملت على نطاق واسع في السنوات الخيرة من عصر التوكوغاوا. أغلبيتهم من العناصر المتعصبة التي وضعت فنها المحنك في الاغتيال السياسي في خدمة القادة القوميين المتطرفين. وفي الربيع من عام ١٩٣١ دبروا (مؤامرة تقوية سلطة شو- والإمبراطور) ونظموا في الخريف من العام نفسه مؤامرة ثانية تنصلت منها السلطات العسكرية. وفي شباط فبراير من عام ١٩٣٢ اغتالوا وزير المالية في الحكومة المشكلة وشخصية بارزة من زمرة ميتسوي. وفي الخامس عشر من آذار مارس اغتالوا رئيس الوزراء إينوكي (وهي الواقعة التي عرفت في اليابان بحادثة ١٥-٥). وخنقت مؤامرات عديدة أخرى في المهد في عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٤. وكانت السلطات العسكرية في معزل كامل من الناحية الرسمية عن النظريات المتطرفة التي يعتنقها هؤلاء الشباب المتطرفون

وتدين أعمالهم إدانة علنية. ومع ذلك فإن القواد كانوا يعتزمون الإفادة من هذه التجــاوزات للضغط على الوزير والحصول على تحويل في سياسة الحكومة. أما الرأي العــــام فكـــان مرتاحا راحة تدعو إلى الدهشة من مناخ العنف الذي يجري أمام ناظريه ويرى فيه ســـــمة العصر ودليلا على عجز السلطة والمسؤولين الاقتصاديين عن معالجة أمراض المجتمــــع. ويبدو أن هذه الحالة خاصة باليابانيين الذين استقبلوا في السنوات الأخيرة وبالتسامح نفســه إعدامات المتطرفين اليساريين. وقليلة هي البلاد التي يتسامح فيها الرأي العام بمثــل هــذه السرعة مع الجرائم السياسية تارة باسم (حسن النية) من فاعليها وطورا بتقديــره لمــدى درجة (فساد) الضحايا. أما في الحالة الحاضرة فإن الدعاوى المرفوعة على الإرهــابيين قدمت لهم منبرا عاما وأمنت لهم ولأفكارهم حضورا لم يكونون يأملون به.

الجيش يقفز إلى السلطة:

أثر اللجوء إلى (العمل المباشر) إذا تأثيرا عميقا في الرأي العام الياباني وأضاف ثقــلا كبيرا في توجيه السياسة الخارجية كما أن محاولات الاغتيال والأعمال الإرهابيـــة فتحــت صفحة جديدة في حياة اليابان السياسية. وقد اصبح إينوكي عضو حزب السي يوكي رئيسا للوزارة في كانون الأول ديسمبر عام ١٩٣١ على أثر قضية منشــوريا وســجلت نهايتــه المأساوية آخر عمل لنظام الأحزاب، وكان الأكثر ليبرالية بين جميع رؤســاء الــوزارات الذين تعاقبوا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. دخل الحياة السياسية جنبا إلى جنــب مــع أوكوما عام ١٨٨١ فغدا بطل النظام البرلماني. وعندما اغتيل أقنع اغتياله الأمير ســايونجي المقرب من الإمبراطور والناطق باسمه عند تعيين رئيس جديد للوزارة بأن إنقــاذ الوحــدة الوطنية يتطلب عودة مؤقتة إلى نظام الوزارات الخارجة عن سلطة البرلمـــان. وبمـــا أن البحرية بدت أقل تورطا في الأزمة التي أثارها الجيش البري فإن سايونجي اختار رئيســـا للوزراء الأميرال سيتو الذي اعتبر أفضل (ليبرالي) بين الحكام العـــامين الذيــن حكمـــوا كوريا. احتفظ سيتو في وزارته بسبعة من رجال السياسة. أما الأميرال أوكادا الذي خلفـــه عام ١٩٣٤ فلم يحتفظ منهم إلا بخمسة إضافة إلى أنه أدخـــل فـــي وزارتـــه عـــددا مـــن الديمقراطيين ذوي الفكر (التعديلي REVISIONNISTE [١٤]) الذيـــن حملتـــهم طموحاتـــهم

[١٤] الفكر التعديلي هو الذي يميل إلى إعادة النظر في الأوضاع القائمة وتعديلها - المترجم -

الشخصية على التعاون مع سياسة العسكريين التوسعية. وقد سحب من وزير الخارجية مهمة إدارة منشوريا ليسندها إلى وزير الجيوش (وزير الحرب) ووضع ضباطا في مراكز الإدارة الرئيسية الحساسة مدشنا بذلك وبطريقة منهجية سياسة بدر العسكريين في المؤسسات الحكومية.

أما حادث السادس والعشرين من شباط فبراير ١٩٣٦ - المعروف في اليابان بحادث ٢/٢٦ - فإنه سجل منعطفا سياسيا جديدا. ففي ذلك اليوم قامت زمرة من صغار الضباط المتطرفين بتعبئة فرقة طوكيو الأولى بغية القضاء جسديا على رجال السياسة المناوئين لمخططاتهم. وفي بضع ساعات قتلوا وزير المالية ووزير العدل وإثنين من رؤساء الوزارات السابقين هما تاكاهاشي والأميرال سيتو وواحدا من القواد الثلاثة الذين كانوا على رأس قيادة الجيش. أما الأميرال سوزوكي والحاجب الكبير فقد جرحا جروحا خطيرة بينما تمكن كل من الأمير سايونجي والأميرال أوكادا من الهرب، وقد أفاد هذا الأخير - الذي كان ساعتئذ رئيسا لمجلس الوزراء - من خطأ ارتكبه المتآمرون باغتيالهم صهره بدلا عنه.

ولم يكن الجيش قد بدا أكثر تهديدا مما هو عليه الأن منذ تمرد آل ساتسوما. وفهمت القيادة العسكرية العليا أن عليها القضاء على هذا التمرد وأوقعت عقابا زاجرا بلا رحمة ولا شفقة في المحرضين على الانقلاب الفاشل، وعادت السيطرة على الجيش إلى يد المصلحين الأكثر اعتدالا الذين سيعرفون منذ الآن باسم (عصبة الرقابة[١٥]) "توسي ها" التي حلت شيئا فشيئا محل (عصبة الطريق الإمبراطوري) "كودوها" وانتهت بإعادتها نهائيا على أثر قيام مقدم من الكودوها عام ١٩٣٥ باغتيال أحد قادة الجيش الكبار الثلاثة عندما كان في مكتبه منهمكا في عمله. وبعد حادث ٢٦ شباط فبراير استقر النظام في الجيش وأصبحت المصادمات العنيفة بين زمره وحياكة المؤامرات على يد صغار ضباطه استثنائية ونادرة. والحقيقة أن العسكريين لم يعودوا يشعرون بالحاجة إلى العمل المباشر بعد أن أمنوا الإشراف على الجكومة المدنية وأصبحوا يملون عليها سلوكها في سياستها الخارجية.

---

١٥ أي الرقابة على التطرف والعنف.

بعد حادث ٢٦ شباط فبراير ١٩٣٦ (حادث ٢/٢٦) تسلم هيروتا رئاسة مجلس الوزراء خلفا لأوكادا. وبما أنه كان وزيرا قديما للخارجية وذا ميول متطرفة فإنه لم يدخل في حكومته إلا أربعة من رجال السياسة. وبما أنه أكثر رجعية من سلفه فإن العسكريين سيطروا تماما على وزارته وتأكدت في عهده قاعدة ياماغاتا القديمة التي تعهد للجنرالات والأميرالات العاملين بإدارة الوزارات العسكرية. والواقع أن هذه العادة لم تكن قد هجرت قط رغم أنها ألغيت شكليا على أثر أزمة ١٩١٣ السياسية.

في شباط فبراير ١٩٣٧ تخلى هيروتا عن منصبه للجنرال هاياشي الذي كان اول رئيس للوزراء لم يحط نفسه بأي رجل من رجال السياسة وهذا يدلنا على مدى العجز الذي وصلت إليه الأحزاب السياسية وإن كان ذلك لم يمنعها من الاستمرار في كسب المعارك الانتخابية. وبعد خمسة أشهر من (حادثة منشوريا) استولت الأحزاب السياسية على ٤٤٦ مقعدا من أصل ٤٦٦ في المجلس الأدنى. وقبل بضعة أيام من (حادثة ٢/٢٦) أمنت لنفسها ٣٧٩ مقعدا. وفي نيسان أبريل من العام التالي كان مجموع مقاعدها ٣٥٤. أما الحزب الجديد – الحزب القومي المعتدل (شاكي تيشوتو) – المؤلف من اليساريين الذين اجتذبتهم سياسة الجيش التوسعية فقد نالوا ١٨ مقعدا عام ١٩٣٦ و ٣٧ مقعدا في العام التالي. ولكن رغم نجاحها الانتخابي ورغم أكثريتها الساحقة في الدييت ورغم شجاعتها في توجيه الاتهام إلى الجيش فإن الأحزاب لم تعد لها السيطرة على مصائر البلاد. أما الجهاز الانتخابي فقد استمر بحكم العادة في التصويت لها في الانتخابات ولكنه في ميوله كان يساند السياسة الخارجية التي ينادي بها الجيش ويرى وزارات (الوحدة الوطنية) ضرورة مؤقتة ترتبط بالوضع المتأزم. ولكي تحافظ الأحزاب على سلطتها المتأرجحة وجب عليها أن تلجأ إلى سلسلة من التسويات فعكست تكتيكها الذي طالما استعملته للوصول إلى السلطة. ومن تسوية إلى تسوية لم يكف نفوذها عن الإنكماش.

أما البيروقراطية المدنية القوية المتنافسة فقد سعت هي الأخرى للدفاع عن امتيازاتها ولكنها كانت عاجزة عن التغلب على انقساماتها والتخلص من الوصاية العسكرية. بعض البيروقراطيين الذين انضموا إلى الأفكار القومية كانوا سعداء بتقديم مؤازرتهم للجيش. أما بعض كبار الموظفين في البلاط الإمبراطوري الذين نجحوا في التخلص من هيمنة الجيش باعتصامهم وراء مفهوم الوحدة القومية الموروث عن عصر الميجي فكانوا ضحايا

مقصودين لممارسي الاغتيال السياسي. وفي كانون الثاني يناير عام ١٩٣٧ سعى سايونجي من جديد لعرقلة تصاعد موجة العسكريين باقتراحه جنرالاً قديماً كان في العشرينات قبل التعاون مع الأحزاب السياسية رئيساً للوزراء فأثار اقتراحه معارضة عنيفة من الجيش. وفي حزيران يونيه ١٩٣٧ ساند سايونجي ترشيح الأمير كونوي KONOE قريب الإمبراطور الذي كان مشهوراً بميله للتسوية فشكل وزارة خارجة عن البرلمان وحاول التمسك بالسلطة عن طريق المراوغة وتجنب العقبات، ولكن قيام الحرب مع الصين بعد بضعة أسابيع أثار الأهواء الحربية وأطلق العنان للمدافعين عن النزعة العسكرية. عندئذ تنبه سايونجي إلى أن (قدماء رجال الدولة) بعد موته سيختفون فسعى لأن يحل محل الجيل المهدد بالإنقراض جهازاً مؤلفاً من قدماء رؤساء الوزارات أطلق عليهم اسماً أملته المناسبة هو اسم (قدماء المحاربين). وبعد أن وضع هذا الجهاز موضع التنفيذ قبل أربعة أشهر من وفاة سايونجي البالغ من العمر واحداً وتسعين عاماً أصبح هذا المجلس الجديد هو الذي سيباشر بعد الآن تعيين رؤساء الوزارات. ترك كونوي السلطة في كانون الثاني يناير ١٩٣٩ ثم شكل وزارة ثانية في تموز يونيه من عام ١٩٤٠. وفي هذا الفاصل أسندت رئاسة مجلس الوزراء على التوالي لموظف قديم مفرط في تطرفه القومي ولجنرال ثم لأميرال. ولكن مجلس الوزراء فقد الجوهري من اختصاصه فمنذ عام ١٩٣٨ أصبحت السلطة الحقيقية في يد بضعة وزراء وُضعوا في المراكز الحساسة وعهد لزمر مختلفة غير رسمية بعقد الصلات بين هيئة أركان الجيش ومجلس الوزراء، ومالت الوزارة لأن تصبح مجرد أداة إقرار وتصديق للقرارات الصادرة عن العسكريين. وكان الجنرال توجو TOJO هو الذي سيكرس التفوق الحاسم للسلطة العسكرية على الحكومة المدنية : ففي تشرين الأول أكتوبر من عام ١٩٤١ جمع بين منصبي القائد الأعلى للجيش ورئاسة مجلس الوزراء.

تصاعد الاتجاه إلى نظام الحكم الشمولي:

مهد وصول العسكريين إلى السلطة إلى إقامة نظام الحكم الشمولي. ويذكرنا تطور اليابان في أكثر من ناحية تطور إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية. وكان الجيش والبحرية المتحفظان تقليدياً تجاه النظام الصناعي الرأسمالي ينظرون بتعاطف إلى المبادئ النازية التي تدعو إلى الاشتراكية الوطنية. وكان قادة ال (زيباتسو) من جهتهم وكذلك

المسؤولون عن الاقتصاد يتخوفون من السياسة الخارجية المغامرة التي يمارسها العسكريون ومن تزايد النفقات التي تتطلبها وثقل وطأتها على الميزانية. ولكن كل واحد من هذين المعسكرين كان يجتهد في تجنب التعصب أو اتخاذ مواقف مبدئية قاطعة ويواصل أحلامه في قيام اتفاق عقلاني قائم على أساس من المصالح المتبادلة. والواقع أن الجيش ما لبث أن بدا عاجزا عن تحقيق التطور الاقتصادي في الممتلكات المنشورية ووجب عليه اللجوء إلى رجال الأعمال فما لبثت أن ظهرت مجموعة من (الزيباتسو) المنشورية. وكان الجيش يهتم من جهة أخرى بالتطبيقات الاقتصادية للنظريات الاشتراكية ويفكر خصوصاً بإمكان (تعبئة عامة) و (بدفاع أمة مسلحة). وكان يمكن لمثل هذه الأهداف أن تتحقق بكل سهولة باستخدام النظام الاقتصادي القائم بدلاً من تغييره. فاليابان لن تعرف إذن أي حركة تأميم من أي نوع ولن يبذل أي جهد حقيقي لتعديل مصير جماهير الفلاحين الذين لفتت قضيتهم مع ذلك انتباه العسكريين. وعندما تحولت الأزمة إلى نزاع مسلح اكتفت الحكومة بإقامة رقابة مشددة على الأنشطة الاقتصادية التي لم تكن تختلف في شيء عن النشطة التي أقامها الديمقراطيون الغربيون خلال الحرب العالمية الثانية. وقد أفادت التروستات الكبيرة من سياسة الأعتدة المصنعة التي ارتبطت بها البلاد لدعم مجهودات التوسع.

اتجاه النظام إلى (الطريقة الشمولية TOTALITAIRE [١٦]) في الحكم ظهر في بادئ الأمر في التضييقات التي فرضت على الحريات الفردية وعلى التعبير عن الرأي. ونذكر أن (قانون حماية الأمن المدني) الذي صدر عام ١٩٢٥ كان يعاقب على جريرة مجرد اقتراح تغيير في النظام او إلغاء الملكية الخاصة. أما بعد عام ١٩٣١ فقد تم تبني عدد من القوانين المماثلة وتأمن تطبيقها بدقة في الأرخبيل على يد "الشرطة الخاصة " (التي أطلق عليها أيضاً اسم "الرقابة على الرأي")، وطبقت في المستعمرات على يد الشرطة العسكريين. وزُجّ رجال اليسار ومناضلو العمال والطلاب بالمئات في السجون وأُنذروا بالتخلي عن (أفكارهم المؤذية). وأوقف بعض الأساتذة عن متابعة التدريس. وفي عام ١٩٣٥ وُجه الاتهام إلى مينوب الذي كانت نظريته عن (الأعضاء) قد نالت بعض

[١٦] أي طريقة الاعتماد على حزب واحد أو تكتل سياسي واحد يمثل مجموع الأمة. - المترجم -

الحظوة في أوساط المثقفين خلال العشرينات بأنه قدح بـالذات الملكيـة فمنعـت كتاباتـه وأضاع في آن واحد منصبه الجامعي ومقعده في مجلس الأعيان. وإلى هـذه المكارثيـة[17] تضاف ملاحقة الساحرات التي تقوم بها عناصر متفرقة. ولجأ متعصبون من المتطرفيـن القوميين إلى تخويف وتجريح منظمين لإسكات المعارضين الذين لـم يكونـوا مـع ذلـك قادرين على التعبير عن آرائهم في مجتمع خاضع ممتثل يمارس فيه الضغط الاجتمـاعي ثقله الباهظ على الأفراد.

والدعاية هي العلامة الثانية التي يعرف بها نظام شمولي بطريقة مؤكدة. وقـد لجـأت إليها الحكومة على أوسع نطاق لتلغم تقدم التحديث في البلاد. وغدت تسـتخدم منـذ الآن طرائق للإقناع سريعة التأثير تطبقها بطريقة منهجية وترسلها عـن طريـق المدرسـة أو أجهزة الإعلام. وكان على الكتب المدرسية أن تعاد صياغتها عدة مرات لتصبح قريبة مـن الإديولوجية الرسمية. على أن النظام الشمولي الياباني لم يكن له قط كتاب مثل (كفـاحي) رغم الجهود التي بذلت في هذا الاتجاه. فقد طرح بين يـدي الطـلاب دليـل أخلاقـي وسياسي بعنوان (المبادئ الرئيسية للكوكوتو) (كوكوتي نوهونجي) هـو مزيـج مـن مجموعة غير متجانسة من المفاهيم البالية إلى حد بعيد بحيث نجد فيه خليطا من قصـص أسطورية تمجد التفوق الياباني واسـتمرار الأسـرة المالكـة اليابانيـة وتعظـم (الإدارة الإمبراطورية) وتذكر بالفضائل الكونفوشيوسية عن الولاء السخصي وبر الأبناء بالآبـاء كما تذكر بقانون العصور الوسطى عن شرف المحارب. فالكوكوتي نوهونجي KOKUTAI NO HONGI ذو إيحاء مخالف قطعا للإيحاءات الغربية بتنديده بالفردية التي ينسـب إليـها كل رذائل الغرب بدءا من الديمقراطية وانتهاء بالشيوعية، ولكن القارئ لا يجـد فيـه أي توجيه صالح لعمل واقعي ملموس.

والحاصل أن الكوكوتي نو هونجي يعكس جيدا اتجاهات العصر الذي سطر فيه. وهـو يتوجه إلى الوجدان والشعور أكثر من توجهه إلى التفكير والمحاكمة العقلانية. وتحتل فيـه التعليمات العملية مكانا صغيرا وهي في أفضل حالاتها ذات غموض شديد. وتوجـد فيـه الفضائل التقليدية منتصبة كمثاليات لا ينالها المساس بينما غدت (الإدارة الإمبراطوريـة)

---

[17] المكارثية : نظام اضطهاد للآراء وملاحقة أصحابها، عرفته أميركا بعد الحـرب العالميـة الثانيـة - المترجم -

موضع عبادة حقيقية. ويدعو الكتاب دائما إلى مفاهيم غامضة من أمثال (الروح اليابانية) أو (الكوكوتي)، وهو مزين بحكم مأثورة مثل الحكمة الشهيرة H AKKO ICHIU (العالم كله تحت سقف واحد) المستعارة من الفلسفة الصينية القديمة. ويمكن لهذه الجملة الغامضة أن تأخذ معنى مزدوجا : معنى حسنا إذا عنت الأخوة بين البشر، ومعنى خطرا إذا دعت إلى السيطرة اليابانية على مجموع العالم. ويمكن أن تحدد إيديولوجية الكوكوتي نو هنجي بأفضل من ذلك أيضا عن طريق إنكاراتها وموافقاتها : فهي تنكر الرأسمالية المتوحشة والفساد السياسي والفردية والأممية كما ترفض عالما غربيا مفتقرا للأصالة يثير من الخوف مثلما يثير من الاحتقار. والرأسماليون ورجال السياسة هم على المستوى نفسه من الاستنكار لأنهم بتشابه دوافعهم الأنانية يحملون الدنس نفسه الذي لوثتهم به قيم الغرب. ففي نهاية الثلاثينات كان كل ما يأتي من الغرب لا يوحي إلا بالشك والحذر. وعندما كان طفل ياباني يلتقي أحد الغربيين في الشارع فإنه يدل عليه عفويا بعبارة (هاهوذا جاسوس إنكليزي).

مثل هذه النظرة إلى العالم لابد أن يكون لها أثرها على التصرفات والأخلاق، فكل ما ليس يابانيا أصبح على قائمة التحريم. وتحديد ما ليس يابانيا لابد بحكم العادة أن يثير كثيرا من المجادلات التي قد يستطيع القارئ الفرنسي أن يكون لنفسه فكرة عنها إذا سعى لإحصاء كل الملامح التي تبدو له بوجه خاص غير فرنسية. فالمراقص كان الحكم عليها قاسيا واعتبرت مؤسسة غير أخلاقية أتت من الغرب، ومع ذلك فإن أحدا لم يخطر بباله أن يتخلى عن التقنية العسكرية القادمة من الغرب. وبقيت لعبة البيسبول تتمتع بشعبيتها بينما بدأت لعبة الغولف تعتبر رياضة ترف مدموغة بأصولها الأجنبية. وقد حاولوا عبثا إلغاء جميع الكلمات الإنكليزية من اللغة المحكية والمكتوبة، أما لافتات طرق المواصلات المعبدة والحديدية التي كانت حتى ذلك الوقت تكتب باللغتين اليابانية والإنكليزية فقد حل محلها لافتات مكتوبة حصرا باللغة اليابانية. وخضع الطلاب والنقابات والصحافة لرقابة شديدة. وتحملت النساء اليابانيات مؤثرات متناقضة، فهن يدعين إلى ترك منازلهن لتأمين اليد العاملة الضرورية للاقتصاد الحربي ويطلب منهن في الوقت ذاته أن يكن زوجات مطيعات وامهات مخلصات وفقا للتقاليد اليابانية الخالصة.

وهكذا اجتمعت عدة أعراض لتدل على الانزلاق نحو الحكم الشمولي. ومع ذلك فإن

التطور السياسي كان بعيدا عن أن يكون تكرارا للسياستين الألمانية والإيطالية. ففي الأرخبيل الياباني لم يظهر أي حزب (شمولي) يكتل الجماهير حوله. والذي حدث أن كونوي خلط عددا من المنظمات في تجمع قومي لخدمة العرش (TAISEIYOKUSNAKAI) ولكن هذه المؤسسة ذات الاسم الطنان كانت ذات نشاط يكاد يكون معدوما. ودعيت كل الأحزاب لأن تنطوي تحت لواء القسم السياسي من هذا التنظيم الجديد. ولكن رغم هذا النداء فإن المرشحين المدعومين من (التجمع القومي لخدمة العرش) لم يحصلوا إلا على ٦٤% من الأصوات في انتخابات نيسان أبريل عام ١٩٤٢ التي جرت أثناء الحرب بينما نال بقية الأصوات مرشحون فرديون أو بقايا مناضلين من الأحزاب القديمة. وأعادت الحرب إلى ظهور نظام تجمعات الجوار القديم (TONARIGUMI) الذي يعود إلى عصر التوكوغاوا. وبما أنها أنشئت لمراقبة جرايات التموين ونشر التعليمات وإثارة حماسة المواطنين فإن (تجمعات الجوار TONARIGUMI كانت تشبه التنظيمات الجماهيرية الفاشستية الأوربية من عدة وجوه. ويبدو أن العودة إلى الماضي وبعث الروح الإمبراطورية القديمة وتمجيد فضائل عصر التوكوغاوا كانت المركبات الأساسية لأديولوجية الثلاثينات. ومع ذلك لم تكن المسألة مسألة بعث للمجتمع القديم ولاعودة لمؤسسات عصر الميجي. فقد اعتقد البعض أنهم يرون بعثا للتضامن الاجتماعي القوي الذي عرفته الأيام الغابرة، وابتهج أخرون بالاجماع المستعاد والذي بموجبه ستوجه كل الرغبات نحو هدف وحيد كما هو الأمر في عصر الميجي. ولو أن الباقين على قيد الحياة من ذلك العصر تجسدوا ثانية لدهشوا من طابع الوحدة المزيفة التي فرضت على المجتمع الياباني عن طريق الدكتاتورية العسكرية. فالهيئة الاجتماعية غدت مركبة غير متجانسة، والسلطة نفسها توزعت بين البحرية والجيش البري اللذين أصبحا وصيين على حكومة مدنية عاجزة تتظاهر بالاستقلال وتتصنع الجهل برغبات الإمبراطور.

فاليابان العسكرية إذن امتلكت الكثير من ملامح الدول الأوروبية ذات الحكم الشمولي TOTALITAIRES وبخاصة جماعة اليمين أكثر مما تمتلك من ملامح اليابان القديمة، ذلك لأن الأرخبيل الذي تورط في تيار التحديث الذي لا عودة عنه بعد الآن لم يكن يستطيع أن يمحو فجأة خمسين عاما من التحولات الاجتماعية والنفسية. وكان تعميم التعليم العام والاعتياد على الحياة السياسية المتعددة الأحزاب يتنافيان مع عودة المجتمع القديم القائم

والواقع أن أحداً لم يكن يدري لمن يعود الحق في تعيين رئيس الوزراء والموظ المدعوين لتمثيل الإمبراطور، ولم يكن لمثل هذا الغموض من نتائج طالما أن زمرة الأوليغاركيين كلفت نفسها بهذه المناصب وباتخاذ كل القرارات السياسية. ولكن اختفاء (الوسائط المعتمدة) خلق نوعاً من القلق والضيق، فمنذ العشرينات تم الاعتراف للأك البرلمانية بحق التدخل في اختيار الوزراء وإن بقي هذا المبدأ نظرياً أكثر منه عد وبعض الناس وصلوا إلى الوظائف الحكومية في غفلة من رقابة البرلمان، وبـ السياسة اليابانية تعمل بطريقة التأرجح سامحة لكل فريق من الفرقاء المهيمنين أن يفـ مرشحيه على التناوب : أرستقراطية البلاط، البيروقراطية، طبقة العسكريين وأو رجال الأعمال دعيت على قدم المساواة لإدارة البلاد. وقد حافظوا كلهم على وهم أنـ يقومون إلا بالتعبير عن (الإرادة الإمبراطورية). ولم يكن شيء يمنع الطبقة العسـ منذئذ من تأكيد أنها تمثل (الإرادة الإمبراطورية) أفضل مما يفعله السياسيون الضـ الذين يركضون وراء متابعة مصالحهم الخاصة. فكان يكفي إذن أصغر تغيير في تـ القوى ليسمح العسكريون لأنفسهم بالاستيلاء على جهاز الدولة بصورة نهائية وذ صورة الحياة السياسية اليابانية أعمق تبديل.

الحرب الصينية اليابانية الثانية:

كانت السياسة الخارجية التي دافع عنها الجيش تُستلهم من مبادئ متناقـ فالعسكريون يتمسكون بالشوفينية وهم مقتنعون بأن الجنود اليابانيين سيستقبلون فـي مكان على أنهم محررون من طغيان الغرب. ويتخيلون أن البلاد الآسيوية ستكون مسـ لقبول حالة من العبودية المطبقة في ظل إمبراطورية (آسيا الكبرى) المقبلة. والـ هي أن الشعور القومي كان يستيقظ في كل مكان من العالم الآسيوي وغدا بصورة خـ حاداً في الصين. يضاف إلى ذلك أن طرائق الاستعمار التي استعملها اليابانيون في كـ ومنشوريا ليست أكثر قبولاً من الطرائق التي لجأت إليها الأمم من العرق الأبيض. و كل توسع للإمبراطورية الاستعمارية اليابانية يؤدي إلى صلابة الرغبة في المقاومة الصينيين. قد تكون النزعة الاستعمارية اليابانية قد ظهرت متأخرة في التاريخ العـ أتت بعد حركات القرن التاسع عشر الاستعمارية لذلك لم يحرز مشروع السيطرة اسيا الجنوبية الشرقية أي نجاح دائم. أما القادة السياسيون في العشرينات ورجال الأ

في تلك الحقبة فقد أدركوا أبعاد النهضة القومية الصينية، ولم يكن القادة العسكريون أقل إدراكاً لهذا التطور، ولكنهم لم يكونوا يفكرون إلا بالسخط من ذلك والغضب عليه بدلاً من مد حدود إمبراطوريتهم أكثر ما يمكن طالما الحال لا يزال يتحمل ذلك. وأما في عام ١٩٣١ فإن الجيش ورط البلاد في سياسة فتوحات غنية بالوعود وغدا الوقت منذئذ محسوباً عليه.

والحرب العالمية الثانية التي هي في الواقع أول حرب تستحق أن توصف بالعالمية إنما بدأت في الصين عام ١٩٣٧. ففي ليلة السابع من تموز يوليه ١٩٣٧ نشبت معركة عارضة بين جنود صينيين وبين قوات يابانية تقوم بمناورة قرب بكين. وعلى خلاف الحوادث السابقة لم يكن الأمر هذه المرة يتعلق بحادثة مقصودة لذلك سعت القيادة اليابانية لأن تحصر القضية في نطاقها المحلي. ولكن الحكومة الصينية التي كانت النهضة القومية القريبة العهد منحتها ثقة لم تكن تعرفها عام ١٩٣١ طلبت من اليابان تسوية عامة لمجموع القضايا المتنازع عليها بين البلدين. وأعلنت طوكيو استعدادها لقبول حل عن طريق التفاوض. وبينما المساعي تبذل لإيجاد أرضية للاتفاق شرعت الطائرات الصينية في ١٤ اب أغسطس بقصف مراكب حربية يابانية راسية في شانغهاي. والمدينة هي التي نالها القصف، وما لبثت أن بدأت حول شانغهاي معركة برية واسعة بينما امتدت المعارك على كل الصين الشمالية.

أمام المقاومة الصينية قررت الحكومة اليابانية أن تلحق بالخصم هزيمة حاسمة. وبينما هي مستمرة على استحياء بوصف النزاع (بالحادث الصيني) دعت إلى تعبئة تكاد تكون عامة. وقام الجيش الياباني من قواعده في الصين الشمالية يغزو جنوبي البلاد وغربيها. وبعد مصادمات عنيفة تكبدت فرق النخبة من جيش تشان كاي هزيمة في منطقة شانغهاي وتغلغلت جيوش الغزو بدءاً من كانون الأول ديسمبر في اتجاه نانكين العاصمة التي سيفرض عليها الجنود اليابانيون خوة منتظمة ويسلمون أنفسهم لأعمال النهب والاغتصاب. واستمر الصينيون في العراك مانعين اليابانيين من أن يوجهوا إليهم الضربة الحاسمة. وفي الخريف من عام ١٩٣٨ سقطت كل من هان كي يو في وسط البلاد وكانتون على الساحل الجنوبي بينما غزت الجيوش اليابانية القسم الأكبر من منغوليا الداخلية والصين الشمالية ولن تلبث هذه الجيوش أن تؤمن الإشراف على كل المدن الكبرى والمرافئ الرئيسية والطرق الحديدية وكل المناطق الإنتاجية المكتظة بالسكان من

العالم الصيني. أما الحكومة الصينية فتابعت العراك وهي منكفئة في عاصمتها المؤقتة تشونغ-كينغ الواقعة في حماية حصون جبلية في الصين الغربية. وفي الشمال الغربي كانت حرب العصابات تدور حول مدينة بينان الشيوعية.

أقام اليابانيون دولة تدور في فلكهم في الصين الشمالية. وفي آذار مارس من عام ١٩٤٠ أقنعوا "وان شنغ واي" – وهو أحد الزعماء القوميين الرئيسيين – بأن ينشئ في نانكين حكومة تدين للأرخبيل. أما الجماهير الصينية التي خضعت رغم أنفها فصارت تشارك في المقاومة المسلحة وبدا أن الحرب لن يكون لها نهاية. وقد لجأت الحركة القومية الصينية إلى شكل من المقاومة الماكرة التي لم تتمكن آلة الحرب اليابانية القوية من القضاء عليها، وستكون اليابان أول بلد حديث يواجه تقنيات حرب العصابات في بلد أقل تطور منه ويتورط في مناضلة الروح القومية الآسيوية. على أن تهديدات الحرب التي لن تلبث أن تحوم فوق بقية العالم ستجلب بصيص أمل للصين وتصب القلق والاكتئاب من جهة أخرى على التطلعات اليابانية. وكانت الولايات المتحدة هي العدو الكبير المحتمل للأرخبيل في نظر البحرية اليابانية، أما الجيش البري فعدوه المحتمل هو الاتحاد السوفياتي وهذا ما يفسر دخول اليابان في تشرين الثاني نوفمبر من عام ١٩٣٦ في حلف ضد الكومنترن (الشيوعية الأممية) إلى جانب ألمانيا النازية ثم إيطاليا الفاشسية. وفي خلال الصيف من عام ١٩٣٨ جرت معركة هامة استمرت اثني عشر يوما مع السوفيات على الحدود الشرقية لمنشوريا، وفي خلال الربيع والصيف التاليين دارت لخمسة أشهر معركة أخرى على الحدود الغربية، وهذان الالتحامان اللذان انتهيا بفشل اليابان أظهرا عدم الكفاءة في مكننة الجيوش اليابانية.

وعندما اندلعت الحرب في أوروبا في صيف عام ١٩٣٩ بدت على الفور منشطا قويا لليابان. والواقع أن العمليات العسكرية في الغرب لفتت أنظار الرأي العام العالمي عن آسيا الشرقية، وكانت اليابان أثناء الحرب العالمية الأولى قد جنت فوائد اقتصادية وعسكرية كبيرة من تحول الأنظار عنها. وفي أيلول سبتمبر من عام ١٩٤٠ سمح انهيار فرنسا لليابانيين بمد سلطانهم على شمال الهند الصينية (أي شمال فيتنام الحالية) حيث نظموا منها حصارا على الصين الجنوبية الغربية، وفي الوقت نفسه وقعت طوكيو معاهدة تحالف ثلاثي مع ألمانيا وإيطاليا. وفي تموز من عام ١٩٤١ سيطر اليابانيون على مجموع

شبه جزيرة الهند الصينية ليتمكنوا من استخدام الموانئ الجنوبية قواعد بحرية تلزمهم في حالة توسع لاحق للنزاع. وكانت الحكومة اليابانية قد نشرت فكرة (نظام جديد لآسيا الشرقية) عليه أن يشمل اليابان والصين ومنشوريا، ثم لوحظ سريعا أن هذا المشروع يستتر في الواقع حلما بسيطرة يابانية على كل آسيا الشرقية، وعندئذ صاغ القادة اليابانيون تعبيرا جديدا هو (مجال الرخاء المشترك لآسيا الشرقية)، ومع خلق (وزارة آسيا الشرقية الكبرى) عام ١٩٤٣ بدا أن حلم السيطرة قد أصبح حقيقة واقعة. ولكن الحرب الأوروبية جلبت لليابانيين بعض خيبات الأمل لأنها كشفت للرأي العام الأميركي خطورة الوضع الدولي. فالولايات المتحدة ترفض أن ترى أمام عينيها بناء عالم تتصرف فيه ألمانيا بمصائر أوروبا الغربية واليابان بمصائر آسيا الشرقية. وكانت واشنطن قد اكتفت بأن تحتج بالقول على توسعات اليابان وترفض الاعتراف بالإلتحامات التي تمت في القارة الاسيوية، وبدا أن الساعة قد دقت لتبني تدابير أكثر إيجابية وتجهيز النفس بقوة عسكرية تناسب الوضع الجديد. وفي تموز يوليه عام ١٩٣٩ قبيل اندلاع الحرب في أوروبا نقضت الحكومة الأمريكية المعاهدة التجارية التي وقعتها مع اليابان، وساعدها هذا القرار الذي جاء من طرف واحد بأن تطلق يديها لتتخذ في المستقبل تدابير اقتصادية ثأرية. وانطلاقا من تموز يوليه ١٩٤٠ خضعت صادرات الحديد ومنتجات النفط الذاهبة إلى اليابان لسياسة ترخيص مسبق لشل آلة الحرب اليابانية بصورة تدريجية. وعندما استولت اليابان في تموز يوليه ١٩٤١ على الهند الصينية الجنوبية قررت الحكومات الأمريكية والبريطانية والهولندية فرض الحظر الكلي على تسليم المنتجات النفطية لليابان.

منذئذ وجدت اليابان نفسها سجينة في مأزق حرج لأن جيشها وبحريتها تعتمدان اعتمادا كليا على واردات المنتجات النفطية ولا يمتلكان من الاحتياط إلا ما يكفيهما لعامين، وأصبح لابد من تحقيق نصر على الصين بدون تأخير إذا أرادت اليابان أن تتجنب إلى حين حرمانها من التموين. وكان لابد من عمل سريع ومن ضربة حاسمة.

أما إذا لم يتحقق مثل هذا النصر السريع على الصين فأمام الصين حلان : أولهما يقوم على وضع حد للحرب الدائرة مع الصينيين وهو خيار يفترض وجود تنازلات كبيرة وانسحاب للجيوش وفقا للرغبات الأمريكية. ويمكن لهذا الحل أن يحظى بقبول أوساط رجال الأعمال إذا قدم للأرخبيل إمكانية الولوج إلى الأسواق المهزوزة بفعل الحرب في

أوروبا. وقادة الاقتصاد لا يزالون يدكرون النتائج المذهلة التي قدمها مثل هذا التكتيك أثناء الحرب العالمية الأولى، فإذا أخذت اليابان في حسابها الانقطاع الموقت لوصول البضائع الأوروبية والتهديد بالخراب فإنها ستكون شبه مطمئنة على قدرتها بأن تحقق سيطرتها الاقتصادية متجنبة نفقات الفتوحات العسكرية، ولكن يجب عليها قبل ذلك تصفية كامل القضايا المعلقة بينها وبين الصين.

ومع ذلك فإن المصالح الاقتصادية لن تكون هي المنتصرة لأن كل انسحاب للجيوش يعني للعسكريين فقدان الكرامة وإراقة ماء الوجه. ويخشى أيضا من أن يفسر الرأي العام الياباني مثل هذا التحول بأنه تنكر لبرنامج الأمن الاقتصادي السابق القائم على الفتوحات العسكرية. ولم تكن الحكومة من جهتها تستطيع التخلي عن الممتلكات الاستعمارية بدون أن تفقد قسما من مسانديها وتخشى أن يضعها تسريح مفاجئ وكثيف للجيوش في موقف حرج. وأخيرا فإن الكبرياء القومية ستتعرض لتحقير شديد إذا قدمت البلاد انطباعا بأنها خضعت للمطالب الأمريكية. ومن المعروف في الواقع أن الولايات المتحدة طالبت دائما – وليس بدون معرفة منها بأن ذلك متعذر التحقيق – بأن تسوية قضايا آسيا الشرقية سيكون من شروطها الأولية تخلي اليابان عن الأراضي التي ألحقتها بها منذ عام ١٩٣١، ومثل هذا الطلب الذي يفرض على الأرخبيل أن يخضع حتى قبل أن يعرف حدود التسوية المستهدفة لم يكن بالإمكان أن يقبل من رأي عام مأخوذ بالأفكار القومية.

أما الحل الثاني فهوأن تتقدم اليابان في اتجاه الجنوب وأن تكسر الكماشة التي خلقها حصار الغربيين الاقتصادي. وهذا يعني الاستيلاء مباشرة على مصادر جنوبي شرقي آسيا وبخاصة مناطق التموين بالنفط من جزر الهند الهولندية (أندونيسيا الحالية) وتحقيق (مجال الرخاءالمشترك لآسيا الشرقية) بدون تأخير. وفي نيسان أبريل ١٩٤١ وقعت حكومة طوكيو التي أرادت أن تكون طليقة اليدين اتفاقا مع الاتحاد السوفياتي. وبعد قليل وجد اليابانيون أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه عندما قام حلفاؤهم الألمان المرتبطون مع الاتحاد السوفياتي بمثل هذا الاتفاق بغزو روسيا في حزيران من العام نفسه، وقد قللت النجاحات النازية الأولى بشكل ملحوظ من أهمية الاتحاد السوفياتي في ميزان توازن القوى.

فإذا اختارت اليابان سياسة التوسع في اتجاه الجنوب الشرقي الآسيوي فإن الحرب مع

بريطانيا وهولندا والولايات المتحدة ستكون أمراً لا مفر منه. أما الدولتان الأولى والثانية اللتان لا تمتلكان إلا قوات متواضعة في آسيا وعليهم الكثير مما يفعلونه في أوروبا للدفاع عن أنفسهم فلم تكونا تقلقان طوكيو أبداً، وفي المقابل كانت الولايات المتحدة قوة اقتصادية مرهوبة الجانب. ولكن طالما أن ألمانيا لم تتحمل الهزائم فيمكن التقدير بأن الولايات المتحدة لن تجرؤ على تركيز قواتها في المحيط الهادي، فألمانيا تشكل خط الدفاع الأول عن اليابان وانتصارها ربما ترك الأرخبيل سالماً بدون مساس. وحتى لو خسرت الحرب في نهاية المطاف فإنها ستكون قد حمت مؤخرة اليابان على الأقل وساهمت مساهمة فعلية في إنهاك العدو المشترك وأعطت للأرخبيل الوقت اللازم لإخضاع الصين وإقامة إمبراطورية استعمارية منيعة بمصادرها الطبيعية الضخمة وبملايين شغيلتها المتخصصين وبالمانع الحامي الذي يشكله كل من المحيط الهادي والمحيط الهندي.

في أواسط عام ١٩٤١ وجدت اليابان نفسها على هذه الصورة أمام خيارين مخيفين يرتبط بهما مصيرها. وبعد مغامرتها في عامي ١٩٣١-١٩٣٧ وجب عليها أن تواجه حالة جديدة ليس فيها إلا مخرجان مجهولا النتيجة: فإما الانسحاب بخزي فاقدة كل مكاسبها السابقة وإما اللعب بكامل رصيدها دون التأكد من نجاحها الحاسم. ولقد حاول كونوي وبضعة من المدنيين أن يصلوا إلى تسوية مع واشنطن ولكنهم اصطدموا بموقف صلب ومهذب في الوقت نفسه من الأمريكيين. وشجب الإمبراطور علنا سياسة الحرب. ومع ذلك فإن العسكريين اعتبروا في صيف وخريف عام ١٩٤١ أن أمامهم فرصا جيدة للنجاح ورأوا سلفا ثمار النصر ترتسم جليا في الأفق في شكل إمبراطورية أكثر سكانا وثروة من أية إمبراطورية أخرى حملها ظهر الأرض. وإذا ألقينا نظرة على الماضي للاحظنا أن خطأ التقدير الذي ارتكبته أركان حرب اليابان هو أنها اعتمدت على العامل الإنساني أكثر من اعتمادها على العوامل الستراتيجية والجغرافية والاقتصادية. وباعتماد العسكريين عن طيب خاطر على تفوقهم المعنوي وعلى فضائل (الروح اليابانية) تركوا أنفسهم يخدعون بادعاء انحلال الديمقراطيات الغربية، فقد اعتقدوا اعتقادا صادقا بالنزعة السلمية العميقة في نفوس الأوروبيين وظنوا أنه لا يوجد ما يخشونه من أمريكة أفسدها الترف المفرط. وبما أنهم على قناعة تامة بأن الأمريكيين لن يتورطوا في حرب طويلة فقد قدروا أن بعض انتصارات يحرزونها في بدء القتال ستكون كافية لتؤمن لهم السيطرة

على المحيط الهادي.

من بيرل هاربور إلى هيروشيما:

بعودتهم إلى الستراتيجية التي استعملوها ضد روسيا عام ١٩٠٤ دخل اليابانيون الحرب بهجوم مفاجئ صاعق على " بيرل هاربور" في جزر هاواي. ففي فجر يوم الأحد السابع من كانون الأول ديسمبر ١٩٤١ دمروا في لحظة أسطول المحيط الهادي الأميركي الذي يمثل يومئذ قسما هاما من قوة الولايات المتحدة البحرية، بينما لم تمس حاملات الطائرات التي قدر لها أن تكون الورقة الرابحة الحاسمة في متابعة الحرب. وقد أدى الهجوم على بيرل هاربور فورا إلى رفع كل العوائق التي مازالت تقف أمام غزو خاطف لآسيا الجنوبية الشرقية وجزر شمالي أستراليا. ولكن هذا النجاح العسكري الياباني الواسع النطاق تكشف أيضا عن خطأ نفساني خطير لأن واقعة بيرل هاربور من تأثيرها المباشر أنها دعمت وحدة الشعب الأميركي الذي بدا حتى ذلك الوقت منقسما على نفسه انقساما شديدا بشأن التدخل في الحرب وبدا أن الترقب والانتظار لم يعودا مقبولين بعد الآن، فقد حملت أميركا السلاح مع تصميم حازم على سحق كل من اليابان وألمانيا في آن واحد.

منذ الأيام الأولى للحرب أغرق الطيران الياباني في بحر ماليزيا مركبين رئيسيين من الأسطول البريطاني. وفي ١٥ شباط فبراير استولى اليابانيون على سنغافورة بالهجوم عليها من الخلف وكانت أكبر قاعدة بريطانية محصنة تنتقل إلى السيادة الآسيوية. وابتداء من آذار مارس ١٩٤٢ أصبح القسم الأكبر من جزر الهند الهولندية (أندونيسيا الحالية) تحت سيطرة اليابانيين. وفي شهر أيار مايو سقطت الفيليبين بدورها رغم مساعدة الجنود الأمريكيين. وعندما شعر اليابانيون بقوتهم إثر هذه النجاحات الأولى استولوا على برمانيا بينما أعلنت تايلاند – وهي أخر أمة مستقلة في هذا الجزء من العالم – حيادها المتعاطف مع اليابانيين.

في أثناء ذلك كانت الولايات المتحدة مشغولة بإعادة بناء قدرتها العسكرية. وفي محاولة منها لإيقاف توسع الجيوش اليابانية أرسلت إلى المحيط الهادي بضع قطع بحرية نجت من التدمير. وفي أيار مايو خاضت قوات أمريكية وأسترالية متمركزة في بحر كوريل إلى الشمال الشرقي من أستراليا معركة غير حاسمة مع البحرية اليابانية. وفي الشهر التالي ألحق أسطول أمريكي يدعمه قسم استعلامات عالي المستوى هزيمة قاسية

بالأسطول الياباني الذي كان يستعد للاستيلاء على ميدواي إلى الغرب من جزر هـاواي. وفي أيلول سبتمبر كان اليابانيون يخترقون غابات غينية الجديدة للوصـول إلـى ساحلها الجنوبي فأوقف تقدمهم في معركة عنيفة استمرت حتى شـباط فـبراير حتـى أجبرهم الأمريكيون على الإنكفاء إلى وادي القنال إلى الشمال الشرقي من أستراليا وهكـذا يكـون الغزو الياباني قد بلغ نهايه توسعه منذ السنة الأولى للحرب ولكن كان لابد من مهلة طويلـة قبل أن يتمكن الأمريكيون من النفوذ إلى داخـل الإمبراطوريـة الواسـعة التـي كسـبها الأرخبيل منذ قليل.

عند دخول الولايات المتحدة الحرب كـانت اليابـان قـد اسـتخدمت كـامل قدراتـها الاقتصادية، فالسنوات الأربع من الحرب مع الصين أجبرتها على تعبئة كل مواردها مـن اليد العاملة. وأصبحت الحاجة ماسة إلى العديـد مـن جيـوش الاحتـلال لإدارة البـلاد المفتوحة. أما الولايات المتحدة فهي تمتلك عددا مضاعفا من السكان بالنسبة لليابان ومـن القدرة الاقتصادية عشرة أمثالها فهي مطمئنة كامل الاطمئنان على تفوق مادي ساحق. وقـد تلافت (الروح اليابانية) في بادئ الأمر موضـوع النقـص فـي التجـهيزات فـالجنود اليابانيون يدافعون بحماسة بالغة ولا يتراجعون أبدا أمام الموت. ولكنهم ما لبثوا أن فقـدوا تفوقهم شيئا فشيئا أمام المدرعات والسفن والطـائرات الأمريكيـة. وكـانت الغواصـات والطائرات بصبها الألغام فوق المرافئ الستراتيجية تقوم بعمل تقويض بطـيء وتخل بنظـام الأسطول الياباني. وفي نحو من نهاية عام ١٩٤٤ تم عـزل معظـم الحاميـات اليابانيـة بعضها عن بعض وأصبحت معرضة للأذى أمام الإغارات الأمريكية. ومن جهة أخـرى فإن أعمال التدمير أدت إلى ذوبان القدرة العامة للحمولة البحرية اليابانية فنجم عـن ذلـك أزمة تموين في المواد الأولية مما أجبر الصناعة اليابنية التي تعمل منذ سـنوات بكـامل طاقتها على تخفيض إنتاجها.

مضى المجهود الأمريكي في اتجاهين رئيسيين. فالأسطول باشر السـير فـي طريـق ملتوية بين جزر المحيط الهادي متجنبا إياها بدءا من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٤٣. وبعـد أن ألحق خسائر فادحة بجزيرة تاراوا المرجانية في جزر مارشال فـي المحيـط الـهادي الأوسط بلغ في حزيران يونيه ١٩٤٤ جزيرة سيبان الســتراتيجية فـي المحيـط الـهادي الغربي، ومن هذه القاعدة أخذت الطائرات الأمريكية تقصف بانتظام مدن اليابان نفسها فـي

غارات جوية مستمرة. وقد أدى خراب المناطق المدنية إلى رحيل كثيف للشغيلة مما شل الانتاج الياباني أكثر فأكثر. وبلغ القصف الجوي أوجه أثناء الغارتين اللتين نظمتا في ربيع ١٩٤٥ على طوكيو حيث كلفت كل منهما مائة ألف من الأنفس البشرية وخربتا قطاعا واسعا من العاصمة. وتعرضت معظم المدن اليابانية الكبرى لمصير مشابه ولم تنج إلا كيوتو وبعض المدن الثانوية من التدمير. وفي خلال شهري شباط وآذار (فبراير - مارس) من عام ١٩٤٥ استولى الأمريكيون على جزيرة إيوجيما IWO JIMA شمالي سيبان التي ستستخدم ملجأ للقاذفات التي ستصاب أثناء الغارات على الأرخبيل.

وبينما الغارات الجوية تتوالى كان الجيش الأمريكي يتقدم نحو الغرب تحت قيادة الجنرال ماك آرثر. وكانت بعض الأساطيل تجوب السواحل الشمالية لغينيا الجديدة وتحيط بالجزر المجاورة وتنزل جنودا في جزيرة ليت LEYTE في الفيليبين في تشرين الأول أوكتوبر ١٩٤٤. وقامت بقايا الأسطول الياباني بمحاولة يائسة لكسر الكماشة الأمريكية ولكنها فشلت وتم استرجاع مانيلا في شباط فبراير ١٩٤٥ بعد معركة طويلة ضارية. ومنذئذ بدأ محورا الهجوم الأمريكي بالالتقاء حيث سيتم ذلك في نيسان أبريل ١٩٤٥ عند تجمع القوات الأمريكية في أوكيناوا. وعندما شعر اليابانيون بالغزو المرتقب لبلادهم أخذوا يدافعون دفاع المستميت اليائس ولم يترددوا في قذف أخر طائراتهم فوق المراكب الأمريكية في هجمات انتحارية ناجعة ومشهورة. وتشبيها بالأعاصير التي أنقذت في الماضي اليابان من غزو المغول عام ١٢٨١ أطلق اليابانيون اسم كاميكاز على ملاحي طائرات الانتحار. ولكن التفوق العسكري الأمريكي انتهى بالتغلب على البطولة اليابانية فتم غزو أوكيناوا كلها في شهر حزيران يونيه ١٩٤٥ بعد خسائر فادحة بالأرواح البشرية. وقد كلفت العملية اليابانيين مائة وعشرة آلاف جندي وحرمت أوكيناوا من ثمن سكانها المدنيين أي ٧٥٠٠٠ من السكان.

في خلال ذلك استلمت ألمانيا في أيار مايو وغدا واضحا أن اليابان فقدت كل أمل لها في كسب الحرب ومع ذلك بقيت معنويات المدنيين عالية. فالسكان الذين قبلوا الحرمانات وتراكم الدمار برباطة جأش منقطعة النظير بدا أنهم مصممون على القتال حتى النهاية. وكان بعض المدنيين من حاشية الإمبراطور قد فهموا منذ عام ١٩٤٤ خطورة الحالة وحاولوا التفاوض من أجل الحصول على هدنة. وأجبروا الجنرال توجو في تموز يوليه

١٩٤٤ على أن يتخلى عن رئاسة مجلس الوزراء إلى جنرال آخر (هو الجنرال كـــوازو) الذي سيتخلى عن المنصب بدوره بعد غزو أوكيناوا للأميرال سوزوكي الذي كان قد نجـــا من (حادث ٢٦ شباط فبراير ١٩٣٦).

ومنذ شهر حزيران يونيه ١٩٤٤ طلب الإمبراطور من المجلس الحربـــي الأعلـــى أن يتوقع توقف القتال. وكلف الحكومة أن تطلب وساطة الاتحاد الســـوفياتي. أمـــا الولايـــات المتحدة الأمريكية التي طالبت عدة مرات كلاً من اليابـــان وألمانيـــا (بالاستســـلام بـــدون شروط) فقد أعلنت في السادس والعشرين من تموز يوليه ١٩٤٥ مع كل مـــن بريطانيـــة والصين تصريح بوتسدام الشهير الذي يحدد بدقة شروط الاستسلام التي هي (الاستســـلام بدون شروط) ! .

وحُكم على اليابان في ذلك التصريح أن تفقد كل ممتلكاتـــها الاســـتعمارية وأن تُحتـــل أراضيها حتى تصبح بلداً مسالماً تماماً وخالياً من النزعة العسكرية. ولكن الحلفاء تعـــهدوا باحترام هويتها القومية وأن يتركوا لها حرية اختيار نظامها السياسي المقبل.

بدتْ نهاية الحرب قريبة. ومع ذلك فإن الأمريكيين دون أن يفكروا بنتائج قرارهم ألقـــوا قنبلتين نوويتين على هيروشيما وناغازاكي في السادس والتاسع من آب أغســـطس ١٩٤٥، وكلف هذا السلاح النووي من أول استعمال له ما يقرب من مـــائتي ألـــف مـــن الأرواح البشرية وأدخل العالم في قلق العصر النووي. وإذا كان استعمال القنبلة النوويـــة الأولـــى على هيروشيما يسمح بإرغام قادة اليابان على الاستسلام وهم الذين تصلبوا حتى الآن فـــي مقاومتهم فإن قرار إلقاء قنبلة ثانية لم يكن يستند إلى أي تسويغ تكتيكي. وفي خـــلال هـــذه المرحلة المأساوية غزا الاتحاد السوفياتي منشوريا في الثامن من آب أغســـطس فوجـــد أن جيش كانتونغ الياباني قد فقد فعاليته التي صنعت له شـــهرته. وســـبق أن ســـتالين وعـــد شركاءه في مؤتمر يالطا (شباط فبراير ١٩٤٥) بأن بلاده ستدخل الحرب ضـــد اليابـــان في الأشهر الثلاثة التي تلي هزيمة ألمانيا. وشعر الاتحاد السوفياتي بعد هيروشيما أن عليـــه أن يتدخل بسرعة إذا أراد أن يكسب جزءاً من الممتلكات اليابانية عندما يعود السلام.

أما القادة اليابانيون فقد بقوا بعـــد كـــل هـــذه المصـــائب متمســـكين بثبـــات بالســـيادة الإمبراطورية. وفي العاشر من آب أغسطس قبلوا بنود إعلان بوتسدام ولكن بشرط واحـــد هو ألا يلحق أي أذى بمكانة الإمبراطور. وعلى هذا الطلـــب الأخـــير قدمـــت الحكومـــة

الأمريكية إجابة غامضة انقسم المجلس الياباني الأعلى بصددها إلى ثلاث أصوات مقابل ثلاثة. أما الإمبراطور فقد خرج للمرة الأولى منذ سقوط النظام القديم عن تحفظه وأمر بقبول شروط الحلفاء. وفي الرابع عشر من آب أغسطس أعلن بنفسه في الإذاعة استسلام شعبه. ولكي يطمئن من أن العسكريين سيحترمون وقف القتال، عهد برئاسة الوزارة إلى أمير من الأسرة الإمبراطورية. وفي الثاني من أيلول ١٩٤٥ تقبل ماك آرثر استسلام السلطات اليابانية الرسمي وهو على ظهر المدرعة ميسوري الراسية في ميناء طوكيو.

❋ ❋ ❋

المحتوى

الفصل السادس

الوحـــدة القومـــية الراســـخة

الفصل السابع

غـــروب الإقطـــاع

الفصل الثامن

فـــي مدرســـة الغـــرب

الفصل التاسع

ديمقراطـــية وإمبريالـــية

الفصل العاشر

النزعـــة العســـكرية والحـــرب

هذا الكتاب

يعدُّ اليابان في مصاف الدول المتطورة تكنولوجياً وعلمياً على الصعيد العالمي ، ومن الدول الغنية لما تتمتع به من خيرات طبيعية ، وتطور تكنولوجي .

وهذا الكتاب يشرح فصول الحضارة اليابانية منذ العصر الحجري الأول إلى ما وصل إليه اليابان من تقدم في عصرنا الراهن ، وفيه تعرُّض للحديث عن المناخ والطبيعة الجغرافية ، وأصل اليابانيين ، وأهم مدن اليابان التاريخية ، ويكشف عن المعتقدات الدينية ، والثقافات ، بما فيها اللغة الحيَّة.

كذلك يتحدث عن أشكال النظام التي سادت عبر تاريخه ، والثورات التي تعرض لها ، ثم بناء الوحدة القومية الراسخة .

كذلك يضم في طياته الحديث عن الحرب اليابانية الصينية .

الكتاب هام للدارسين في قسم التاريخ ، وخاصة المهتمين بتاريخ هذا البلد الذي يطلع علينا كل يوم بمخترعات تنمُّ عن الإبداع والطاقة العقلية المتميزة لدى هذا الشعب .

الناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١

فاكس: ٢٣١٧١٥٩ - ٥٦١٣٢٤١